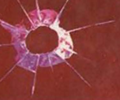


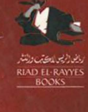
رياض نجيب الريّس

قضايا خاسرة

من الإسكندرونة إلى البلقان ومن عُمان إلى الشيشان







قضايا خاسرة

رياض نجيب الريّس

قضايا خاسرة

من الإسكندرونة إلى البلقان ومن عُمان إلى الشيشان



رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

LOST CAUSES
FROM ALEXANDRETTA TO CHECHNYA

By

Riad Najib El-Rayyes

First Published in September 2000

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 9953 21 000 4

هذا الكتاب
على شبكة الانترنت:
http://www.elrayyesbooks.com
E-MAIL: info@ elrayyesbooks.com

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

إلى صديق كان شريكي
في الرهان على كل القضايا الخاسرة،
بما في ذلك قضية بلاده فلسطين.
مرة أخرى،
إلى ذكرى الصحافي نجيب عبد الهادي

المحتويات

حكاية البحث عن بطل

مقدمة

حكاية اللواء السليب

حكاية المُلك العقيم

حكاية الإسلام السياسي

حكاية الانتصار والهزيمة

حكاية الطربوش والقبعة

حكاية الدب والذئب

■ لا يصدق قول في القضايا الخاسرة بقدر ما يصدق قول الإمام الشافعي:

«وإن رأوني بخير ساءهم فرحي،

وإن رأوني بشر سرهم نكدي»□

حكاية
البحث عن بطل

الفشل نجاح مؤجل

■ «قال أبو السمراء: قال لنا أبي:
يا بنيّ، تزينوا بزيّ الكتّاب، فإن فيهم أدب الملوك وتواضع السوقة».□

«لباب الآداب»
للأمير أسامة بن منقذ

القضايا الخاسرة في العالم كثيرة. كتب التاريخ مليئة بأحداث الثورات المهزومة والمناضلين المتعبين. صفحات تاريخنا العربي المعاصر تضج بالهزائم منذ أكثر من قرن إلى اليوم. أبطال هذه القضايا واراهم التراب أو طواهم النسيان. ثوارها أصبحوا في السلطة التي لم يستطيعوا مقاومتها، فهزمتهم المناصب. مناضلوها أصبحوا رجال أعمال وسماسرة، كسبوا الثروة وخسروا الثورة. كتّابها أصبحوا عازفين في أوركسترا الدولة التي حاربوها. شعراؤها باتوا مغنين في جوقة النظام الذي سخّروا القوافي لهدمه.

وتكتشف من قراءة التاريخ أن القضايا والثورات التي انتصرت، كان لها دائماً أبطال. وغالباً ما يكون هؤلاء الأبطال أصحاب فكر أو رسالة.

وعادة ما يكون هؤلاء أيضاً أصحاب زند أو حاملي سيف فقط، أنبياء كانوا أو شعراء أو رواة.

ومن أهم أسباب خسارة القضايا وفشل الثورات غياب البطل. البطل الذي لم يتألق. أو البطل الذي لم يصمد. أو البطل الذي لم يفهم معنى البطولة ولا واجباتها ولا حدودها. كثيراً ما يسقط البطل ضحية سوء إدارته لبطولته. وكثيراً ما ينجح لأنه أوجد القاعدة التي أحسنت استخدام بطولته.

كان من نصيبي دائماً كصحافي أن أقف على أبواب قضايا كثيرة خاسرة، وأن أتعرّف إلى ثورات كثيرة فاشلة، وأن أختلط بعدد كبير من أصحاب هذه القضايا المهزومة. كم يكون مضجراً ومملاً عمل الصحافي لو اقتصر على الأنظمة والحكام فقط. ولأن أكثر هذه القضايا الخاسرة لا تجد طريقاً إلى تعريف الناس بها، عملاً بالقاعدة التي لا تخطىء بأن لا شيء ينجح كالنجاح، فإن الصحافة لا تهتم عادة بالفاشلين سواء أكانوا ثورات أو قضايا أو أشخاصاً.

ولا يعنيني في عرضي لبعض هذه القضايا ـ وكلها مثيرة للجدل ـ أن أُتهم بالانحياز لها أو ضدها، بقدر ما يعنيني أن أكون منصفاً لها، وأن ألفت النظر إليها في محاولة لفهم هذه القضايا تاريخياً وعلى ضوء ما يجري في المنطقة العربية.

إن حلم أصحاب هذه القضايا بوطن بدل القبيلة، وبدولة بدل العائلة، وبلغة بدل لغاتها المنقرضة، وبانتماء إلى عالم ما بدل الانتماء إلى لا شيء، لم يعد تحريض صحافي أو دعوة كاتب. لقد أصبحت أوراق هذه القضايا كلها تنتظر من يفاوض ومن يعطي ومن يأخذ، لا من يَقْمَع أو يتجاهل أو ينسى. المهم أن تبقى هذه الأوراق لصالح قومية العالم العربي وتماسكه واستقراره.

إن هذه القضايا ليست عوالم جديدة بدأت تطل على العرب. لقد كانت دائماً قائمة هناك، لكنها أخذت اليوم تفرض نفسها بشكل أو بآخر، سلباً كان أم إيجاباً، على أحداث العالم العربي ووقائعه.

إن القضية إن وجدت النصير، فلا بد من أن تجد الطريق. لقد علّمنا الماضي أن كل قضايا الأوطان تبدأ بحلم شاعر وقلم كاتب وعناد محارب ونبوءة تاريخ.

رياض نجيب الريّس

بيروت ـ ربيع ٢٠٠٠

حكاية
اللواء السليب

١ ـ الإسكندرونة

كيف ولماذا ضاعت؟

■ «قالت الحكماء: العجز عجزان: عجز عن طلب الأمر وقد أمكن، والجِدُّ في طلبه وقد فات.»□

«جامع بيان العلم وأهله»
لابن عبد البر القرطبي

مَنْ يعرف قصة «اللواء السليب» اليوم؟

تذكرت هذا السؤال، وتركيا تحتفل بذكرى مرور خمس وسبعين سنة على قيام الدولة التركية العلمانية الحديثة التي أسسها مصطفى كمال (أتاتورك) على أنقاض الأمبراطورية العثمانية. وكان أولى ضحاياها سورية، بسلخ لواء الإسكندرونة عن الأراضي السورية.

وعاد هذا السؤال إلى الأذهان عندما اشتد الخلاف التركي ـ السوري في تشرين الأول/ تشرين الثاني ١٩٩٨، ودخل الرئيس المصري حسني مبارك في وساطة بين أنقرة ودمشق، فقال له الرئيس التركي سليمان ديميريل أثناء زيارته للعاصمة التركية، «إن على سورية أن توقف مطالبتها بلواء الإسكندرونة». كما أن مسعود يلماظ، رئيس وزراء تركيا، قال في المناسبة ذاتها، إن «أساس

المشكلة التركية ـ السورية الأخيرة، هو الاعتراف الرسمي والعلني لسورية بشرعية ضم تركيا لواء الإسكندرونة العربي إليها بالقوة».

يُفهم من كلام الرئيسين التركيين، أن لبّ المشكلة التزكية ـ السورية، حتى من قبل أن تدخل إسرائيل في شبكة التحالفات مع تركيا، وقبل أزمة توزيع مياه دجلة والفرات، وقبل اتهام سورية باحتضان حزب العمال الكردستاني وزعيمه عبد الله أوجلان، يتأسس على معضلة أهم وأكثر تعقيداً وأطول تاريخاً اسمها لواء الإسكندرونة.

لماذا الإسكندرونة؟ وما علاقة اللواء السليب بتركيا الحديثة، وكيف يكون الحاضر صدى لأصوات الماضي القريب؟

□ □ □

لعل الإجابة على هذه التساؤلات تبدأ من احتفالات تركيا في ٢٩ تشرين الأول ١٩٩٨، بمرور خمس وسبعين سنة على قيام الدولة التركية العلمانية الحديثة، التي ألحقها مصطفى كمال «أتاتورك»، سياسة وعسكراً واستراتيجية وثقافة بأوروبا والغرب، منفصلة انفصالاً كلياً عن ماضيها وتراثها وعلاقاتها العثمانية. وأرادها أن تكون دولة غربية قلباً وقالباً. وإذ بعد كل هذه السنين، يتوقف القلب، وينكسر القالب. الأهم من ذلك، أنه أعلن فصل الدين عن الدولة، واضعاً لها كل الضوابط والضمانات. لذا فإن مبدأ العلمانية التركية، لم يكن من السهل اللعب به من قبل ومن بعد تشكيل الأحزاب والحركات الإسلامية المعاصرة التي دخلت حلبة السياسة التركية خلال السنوات العشر الماضية.

وظلت العلمانية التركية طوال ثلاثة أرباع القرن، الصراط السياسي

المستقيم في تركيا، وفي حمى المؤسسة العسكرية التي قامت بانقلابين عسكريين كبيرين على الحكومات المدنية المتعاقبة من ورثة أتاتورك، تحت غطاء الحفاظ على هذه العلمانية، عندما كان يشعر العسكر أن هناك انحرافاً سياسياً في اتجاه من اتجاهين. إما معادٍ أيديولوجياً للعلمانية بشكل أو بآخر، أو معادٍ سياسياً للتوجه الغربي والسياسة الأميركية - الأوروبية في فترة من الفترات، مما قد يغيّر من تحالفات تركيا وولائها الدائم للغرب.

في خضم الاحتفالات التركية هذه، قليل من العرب يذكر أن سورية كانت الدولة العربية التي دفعت ثمن قيام دولة أتاتورك الحديثة، عندما ضمت الدولة الجديدة لواء الإسكندرونة سالبة إياه عن الدولة السورية الفتية، بالاشتراك والتآمر مع فرنسا، الدولة المنتدبة على سورية ولبنان في حينه، ونفذه خلفاء أتاتورك بقيادة عصمت إينونو، على مدى سنوات وببراعة نادرة في تلك الظروف.

مجدداً مَنْ يعرف قصة «اللواء السليب» اليوم؟

في حمأة الصراع التركي - السوري، والتحالف التركي - الإسرائيلي، وتطاول تركيا على الحق العربي السوري، وتصعيد الموقف التركي ضد جارتها الجنوبية، سورية، واستخدام أنقرة كل أنواع التهديدات العسكرية ضد دمشق، التي وصلت إلى حافة «حرب صغيرة» بين البلدين، أعيد فتح ملف الإسكندرونة (أو الإسكندرون، وسنستعمل نحن في هذا الكتاب الإسكندرونة لأنها أكثر شيوعاً) الذي انطوى منذ أكثر من ستين سنة، ونسيه بكل أسف، كل العرب، والكثير من السوريين.

ولم تعد الإسكندرونة في الأذهان اليوم، إلاّ لواءً سليباً، سلبه

الأتراك وتركوه ذكرى للعرب السوريين. حتى ظن بعض العرب من غير السوريين أن كلمة لواء تعني «الجنرال»، وأن الأتراك سلبوا ذلك الضابط السوري قبل ستة عقود، ولم يعيدوا إليه مسروقاته إلى اليوم (وكان هناك عدة نكات تتداول في هذا المجال، أيام الوحدة السورية ـ المصرية). ولأن هذا اللواء ظلّ سليباً إلى اليوم، أصبحت كلمة لواء مرتبطة ارتباطاً خاصاً بالإسكندرونة، وهي التي كانت تعني «سنجق» بلغة العثمانيين، أو محافظة بلغة التقسيمات الإدارية المعاصرة. فكلمتا «لواء» و«سليب» أصبحتا مرادفتين لاسم الإسكندرونة.

ومن المؤسف أن القارىء العربي المعاصر الذي لا يعرف كثيراً عن الإسكندرونة التي عادت تركيا إلى فتح ملفها في نزاعها الأخير مع سورية، ولربما من غير قصد، قد يشحذ ذاكرته العربية الضعيفة مجدداً، بتاريخ ما أهمله تاريخ العرب المعاصر في نصف القرن الأخير على الأقل.

□ □ □

ولواء الإسكندرونة جغرافياً الذي تبلغ مساحته ١٨ ألف كيلومتر مربع، هو إقليم على البحر الأبيض المتوسط يقع في أقصى شمال غرب سورية، ويشكل منطقة جبلية وعرة، تنتهي عندها السلسلتان الغربية والشرقية. فيه غابات وأودية وسهول خصبة. وفيه مصب نهر العاصي على شاطىء المتوسط. واللواء كان يتبع ولاية حلب في العهد العثماني، ومن ثم ولاية بيروت في بداية عهد الانتداب الفرنسي، وبعدها الدولة السورية بعد توحيد الدويلات الطائفية السورية التي أنشأها الانتداب الفرنسي، كدولة العلويين ودولة الدروز وسواهما في سورية، إلى أن فصلته عصبة الأمم إدارياً عن

سورية في العام ١٩٣٧، وجعلته تحت إدارة حاكم فرنسي مرتبط بها. فكان ذلك تمهيداً لسلخه عن سورية نهائياً وإلحاقه بتركيا في العام ١٩٣٩. وسكان الإسكندرونة (البالغ عددهم تلك السنة ٢٢٠ ألف نسمة من العرب و١٨٧ ألفاً من الأتراك)، متعددو القوميات. كان فيهم حتى العام ١٩٣٩، أكثرية عربية وأقلية تركية. إلى جانب مجموعة من الأرمن الذين نزحوا إليها هرباً من اضطهاد العثمانيين الأتراك في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ولواء الإسكندرونة، جرح نازف في الخاصرة السورية منذ ذلك التاريخ وإلى اليوم، لم يندمل وإن عراه غبار النسيان. وهو ما زال حياً إلى اليوم في ذاكرة المعمرين. وإذا نسيه الجيل الجديد من شبان اليوم، فذلك لا ينفي أنه كان في الثلاثينيات القضية السورية الأولى، فكم من إضراب أُعلِن، وكم من تظاهرة سارت، ومسيرة انطلقت، وهتافات بحّت الحناجر بها، وشعارات رفعت من أجل الإسكندرونة.

كانت الإسكندرونة من ضمن الحدود العربية التي أعلنها الشريف حسين - شريف مكة وقائد الثورة العربية الكبرى في رسالته الشهيرة إلى هنري ماكماهون - المندوب السامي البريطاني في القاهرة في العام ١٩١٥، في فترة كانا يخططان فيها للدولة العربية التي كانت ستقوم بعد انهيار الأمبراطورية العثمانية وانتصار الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى. فردّ ماكماهون على الرسالة قائلاً بأن السكان هناك ليسوا عرباً تماماً.

وقضية الإسكندرونة تتلخص بمؤامرة تعرض لها تدريجياً الكيان السوري في عهد الانتداب الفرنسي. إذ بدأ الفرنسيون بتصنيف

سكان اللواء على أساس عرقي وإثني سخيف، حتى في مقاييس ذلك الزمان، عندما وزعوا السكان وصنفوهم على الشكل التالي:

العلويون، ويعود أصلهم إلى الحثيين. المسيحيون الأرثوذكس (وسموهم بالاسم الفرنجي - غريك) ويعود أصلهم إلى اليونان. والكاثوليك واللاتين ويعود أصلهم إلى روما. والسريان ويعود أصلهم إلى منطقة ماردين. والأشوريون ويعود أصلهم إلى بلاد ما بين النهرين. والأرمن ويعود أصلهم إلى أرمينيا. أما العرب السُنّة، وفي هذا بيت القصيد، فيعود أصلهم إلى تركيا وليس إلى سورية. وبعد أن صنّف الفرنسيون عرب اللواء هذا التصنيف العرقي والمذهبي، بقي أن يصنفوا الأقلية التركية، فقالوا إنهم «أبناء الوطن الأم تركيا».

وبدأت تتضح أبعاد المؤامرة في العام ١٩٣٩، عندما احتجت إيطاليا (لأسبابها الاستعمارية الخاصة بها وهي التي كانت تحتل ليبيا والحبشة) على الموقف الفرنسي، حين رأت أن التنازل عن لواء الإسكندرونة لصالح تركيا، يخالف مخالفة صريحة غايات الانتداب ورغبات السكان، وما تنص عليه المادة الرابعة من صك الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، والذي منحته عصبة الأمم، والذي يقول:

«إن الدولة المنتدبة تضمن أراضي سورية ولبنان من كل فقدان أو استئجار يقع عليها أو على قسم منها، ومن وضع أية مراقبة أجنبية كانت عليها».

كما يخالف المادة الأولى من الدستور السوري، الممنوح من فرنسا كدولة منتدبة إلى الدولة السورية، والذي ينص على أن «سورية

دولة مستقلة ذات سيادة ولا يجوز التنازل عن شيء من أراضيها.» (الترجمة الرسمية العربية).

وبالتالي أدرك السوريون أن الدولة المنتدبة هي التي تتحمل مسؤولية ألا يتم التنازل عن أي قسم من أراضي سورية ولبنان أو تأجيرها أو وضعها تحت سيطرة قوة أجنبية بأي شكل من الأشكال. فإذا بالذي حصل هو نموذج مثالي لسياسات القوى الكبرى في ذلك العصر، كما مارستها تركيا من جهة، وما تنازلت عنه فرنسا وليس لها حق فيه، وما يشكل انتقاصاً من حقوق بلد آخر ويخالف كل المواثيق الدولية من جهة ثانية. فمأساة الإسكندرونة، أنها ضاعت تدريجياً، في مناخ جرى فيه تخدير السوريين. وقد تابعت صحافة ذلك الزمان، المشهد، عبر محادثات تجري ووفود تسافر وأخرى تعود وبرقيات تطيّر ووعود تقطع وتسويات تطرح وشعارات تُرفع ومعاهدة تُعقد. وكل ذلك لم يحل دون سلب اللواء. فالاتفاقات التركية - الفرنسية توالت، والغالبية السكانية العربية شتتتها يد المؤامرة، فغدت أقليات عرقية ومذهبية. والأقلية التركية حولتها يد المؤامرة نفسها، إلى أكثرية قومية جديدة بعطف فرنسا وعصبة الأمم.

فقد جرى التحول الديموغرافي على الأرض، كما يحصل في دول البلقان ويوغوسلافيا القديمة اليوم، عندما هُجّرت الأكثرية العربية بلدة بلدة وقرية قرية. والأقلية التركية زادت بنزوح آلاف الأتراك الوافدين من الأناضول بحماية السلطات الفرنسية، حتى غدت أكثرية. فسكن الأتراك بيوت العرب واحتلوا مزارعهم وأراضيهم وإقطاعهم، وصادروا مصانعهم ومتاجرهم، واحتلوا أصغر وظيفة كانت لموظف عربي. ولعل مأساة الإسكندرونة، كانت في التهجير

وفي النزوح عن الأرض، كما هي مأساة فلسطين بعدها، مع اختلاف طفيف في التفاصيل.

□ □ □

لقد كان التنازل الفرنسي عن لواء الإسكندرونة، تنازلاً تدريجياً وبطيئاً. حتى بدا وكأن هذه الأرض تنزلق انزلاقاً من الحضن السوري إلى الحضن التركي. والسوريون غير قادرين على مواجهة هذا الانزلاق، في غياب دعم دولي يحول دون التهجير والنزوح. ومن هنا كان الإجماع على أن ضياع اللواء كان نتيجة مساومات فرنسية لاكتساب تركيا إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. صحيح أن التنازلات الفرنسية سبقت تسليم اللواء بحوالى سنتين (١٩٣٦)، وسبقت وقوع الحرب. لكن فرنسا رأت أن كسب صداقة تركيا، وتوفير موقع متقدم لها في جمهورية أتاتورك الفتية العلمانية الحديثة، تمتد مساحتها بين قارتي آسيا وأوروبا، وتمتلك مضايق بحرية، وتشرف على البحر الأبيض المتوسط، وعلى بحر إيجة والبحر الأسود، كان سبباً أول. حتى إذا جاءت الحرب، كان كسب تركيا إلى جانب الحلفاء سبباً آخر في التنازلات الفرنسية ونزع الإسكندرونة من سورية.

ولم يلتفت السوريون إلى هذا الأمر إلاّ متأخرين. فظلوا إلى نهاية العام ١٩٣٦، مطمئنين إلى الموقف الفرنسي ووعود المندوبين السامين والموفدين الفرنسيين. فالعام ١٩٣٦، كان سنة المعاهدة السورية ـ الفرنسية بكل ما حملت من إيجابيات وتفاؤل. وجاءت أحداث ١٩٣٧، وفي مقدمها وضع اللواء تحت إشراف عصبة الأمم، مخيبة لآمال السوريين وجعلتهم يوقنون أن فرنسا غدرت بسورية وسلّمت لواء الإسكندرونة ثمناً لصفقة مع تركيا. لقد كان

واضحاً من المسار التاريخي لقصة الإسكندرونة، أن السوريين راحوا ضحية خديعة فرنسية ودولية، وكأنهم في غفلة عما يبيت لهم. لذلك كان الاهتمام الرسمي والإعلامي السوري بالإسكندرونة ضعيفاً قبل العام ١٩٣٦، فلم يلق الاهتمام الوطني والسياسي والإعلامي إلاّ في سنيه الثلاث الأخيرة (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩). وكان هذا مبعث خيبة أمل السوريين في حكومتهم الوطنية الفتية. فأصاب من حكومة الكتلة الوطنية، وهي في بداية عهدها بالحكم، مقتلاً، عانت منه طوال عهدي الانتداب والاستقلال.

□ □ □

بدأ انزلاق لواء الإسكندرونة من الحضن السوري إلى الحضن التركي منذ مطلع العام ١٩٣٦، والسوريون يعيشون أوهام الصداقة مع تركيا، ويقولون في صحفهم، إن سورية قبل معاهدة ١٩٣٦، وهي المعاهدة السورية ـ الفرنسية التي تمَّ التفاوض بشأنها في صيف ذلك العام «لن تكون أقل صداقة لتركيا من فرنسا (...) وإن السوريين العرب من رفح إلى جبال طوروس، هم أكثر الناس حباً للأتراك القاطنين في لواء الإسكندرونة، وأشدهم عطفاً عليهم، وأعظم إخلاصاً واحتراماً للإدارة الخاصة في اللواء». وأكد السوريون، في محاولة فاشلة لتطمين الأتراك، أن أتراك الإسكندرونة، «هم إخواننا وشركاؤنا في هذا الوطن. نحترم عواطفهم ولغتهم ونقدر شعورهم وعاداتهم»(*).

لكن السوريين ظلوا يتساءلون: لماذا يسيء أتراك الإسكندرونة الظن بنا بعد أن أبدينا كل هذه النوايا الحسنة، ويقفون موقفاً معادياً من نهضتنا الوطنية. وما هي العوامل التي تجعلهم يثقون بالأجنبي المحتل

أكثر من ثقتهم بالسوري المستقل؟ وكانت تركيا الكمالية بالنسبة إلى الوطنيين السوريين، مثلاً يحتذى لجميع الشعوب الشرقية في الوطنية والتضحية في سبيل الحرية والاستقلال. وكانت تركيا الدولة التي تأسست بعد معاهدة الصلح بين الحلفاء والدولة العثمانية في العام ١٩٢٠، قد تنازلت عن الإسكندرونة وأنطاكية. لكن أتاتورك رفض في العام ١٩٢١ ما سُمي بمعاهدة «سيفر»، وأعلن ميثاق المجلس الوطني الكبير، الذي طالب بموجبه إعادة تكوين تركيا من جميع أجزاء الأمبراطورية العثمانية التي تقطن فيها غالبية تركية. ولم يستطع تحقيق ذلك في اليونان ودول البلقان، فحققه في الإسكندرونة وأنطاكية. وجاءت معاهدة العام ١٩٣٦ بين فرنسا وسورية، فهيأت مجدداً للأتراك فرصة للمطالبة بتعديل وضع لواء الإسكندرونة، بحجة أن هذه المعاهدة قد منحت سورية استقلالاً، يلزم فرنسا أن تعيد النظر في وضع اللواء، بمنح سكانه الأتراك الاستقلال أيضاً.

□ □ □

وكان قد سبق معاهدة ١٩٣٦، الفرنسية - السورية، عدة معاهدات دولية، تبدأ بصك الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، عملاً بقرار مجلس الحلفاء الأعلى الصادر في سان ريمو في ٢١ نيسان ١٩٢١. وقد أقرّ مجلس عصبة الأمم عند اجتماعه في لندن في ٢٤ تموز ١٩٢٢، هذا الانتداب. في أواخر العام نفسه، عقد مؤتمر دولي في لوزان ضم الدول الغربية الحليفة بالإضافة إلى اليونان وتركيا. والذي انتهى بتوقيع معاهدة لوزان في تموز ١٩٢٣، التي كرّست انتصار تركيا في حربها مع اليونان، وإلغاء معاهدة «سيفر» التي اعتبرت مجحفة بحق تركيا وفرضت عليها من قبل

الحلفاء. واسترجعت تركيا بعدها صلاحياتها وامتيازاتها التي كانت لها قبل الحرب العالمية الأولى. أما معاهدة «سيفر» فكان قد أعطى الحلفاء بموجبها حق قيام دولة كردية ودولة أرمنية. كذلك جاءت معها معاهدة أنقرة في العام ١٩٢١، وهي اتفاقية تفاهم بين فرنسا وتركيا، تضمنت اعتراف كل من الحكومتين الفرنسية والتركية بحق أهالي لواء الإسكندرونة في اختيار الحكومة التي تقوم بإدارة شؤون اللواء. ولم يرد في هذه المعاهدة أي اعتراض على هوية اللواء العربية السورية، أو إشارة إلى ضمه مستقبلاً إلى تركيا. ومن هنا كانت بداية الخديعة الفرنسية ـ التركية بفصل الإسكندرونة عن الوطن السوري الأم.

ظل موقف الدولة السورية حتى نهاية العام ١٩٣٦، وهي الدولة الوطنية الفتية الناشئة التي لا حليف لها، موقف العاتب على تركيا وعلى الدول الأوروبية، وخاصة بعد توقيع المعاهدة الفرنسية ـ السورية في باريس ذلك العام. فمشكلة الإسكندرونة واجهت السوريين بعد المعاهدة مباشرة، وفي اليوم الذي يريدون أن ينصرفوا فيه إلى تسلم أعباء بلادهم لينهضوا بالوطن الصغير إلى مستوى الأوطان المستقلة، فوجدوا أن تركيا تقف في طريقهم وتطالب باقتطاع جزء من وطنهم، بدلاً من أن تكون تركيا ـ كما كانوا يطمحون ـ عوناً لهم في عهدهم الجديد. ولم يجدِ، بالطبع، هذا العتاب شيئاً، حيث كان السوريون ينظرون إلى تركيا كدولة أكثر قوة ومناعة مما كانت عليه في عهد الأمبراطورية العثمانية، بل كزعيمة للشرق الأدنى، في مناعتها وقوتها واستقلالها.

وكان عتب السوريين، في إطار «عظمة» تركيا في رأيهم، أن سلخ الإسكندرونة عن سورية، الدولة الصغيرة، يضعفها، ولكنه لا يزيد

من قوة تركيا، لأن بضعة آلاف تركي بين عشرات الآلاف العرب، لا تؤلف شيئاً من القوة بالنسبة إلى تركيا، بل إنه يفقدها صداقة العرب، الذين يعطفون على تركيا ويتمنون لها الخير. وكان في هذا شيء من السذاجة السياسية.

وكان السوريون يقارنون أوضاعهم بأوضاع تركيا في العهد العثماني، عندما حاولت الدول الأوروبية إضعافها. لذلك قارن رجال الحكم الوطني في سورية، حالهم بحال الاتحاديين، من رجال حزب «الاتحاد والترقي» الذين تولوا الحكم في نهاية الدولة العثمانية، وموقف أوروبا في حينه منهم بموقف تركيا من سورية في تلك الأيام. وكان المشهد السياسي في مطلع القرن مشابهاً. فسورية والكتلة الوطنية في العام ١٩٣٦، كتركيا والاتحاديين في العام ١٩٠٨، يوم تسلموا أعباء الدولة. فقد قامت في وجه حكومة الاتحاديين مشاكل وأطماع عديدة كلها هدفت إلى قضم أجزاء من السلطنة. فمثلاً أعلنت بلغاريا انفصالها عن اسطنبول كمملكية مستقلة. وضمت النمسا إليها البوسنة والهرسك. واستعادت اليونان جزيرة كريت. واحتلت إيطاليا طرابلس الغرب. واستولت كل دولة في أوروبا على ما كانت تطمح فيه من أجزاء الأمبراطورية العثمانية. وهكذا أمضى الاتحاديون أيام حكمهم يحاولون ردع الأوروبيين عن سلب ملكهم وتقطيع أوصال دولتهم. كذلك قضت الحكومة الوطنية في سورية أيامها الأولى تحاول منع سلخ لواء الإسكندرونة عن بلدها، بدل الالتفات إلى مشاكلها الداخلية، حتى أصبحت الأعباء الخارجية بسبب الإسكندرونة أكثر بكثير من مشاكل الاستقلال الداخلي، واختلطت المشاكل مع فرنسا بهذه القضية تحديداً. لذلك كانت

سورية تأمل أن لا تقف تركيا منها في مهد حريتها الموقف الذي وقفته أوروبا منها بعد إعلان حريتها هي.

□ □ □

أمام هذا الموقف السوري الليّن والضعيف، العاجز عن التصدي لمشاريع سلب اللواء، تأسست اللجنة الوطنية السورية وبادر سكان اللواء إلى التحرك، فأصدر زكي الأرسوزي جريدة «العروبة» في العام ١٩٣٧ للتصدي للدعاية التركية، وأسس «عصبة العمل القومي» مع غيره من المناضلين القوميين. والأرسوزي (١٩٠٠ - ١٩٦٨) مفكر قومي عربي ولد في اللاذقية ونشأ في أنطاكية والإسكندرونة. تعلم في مدارس أنطاكية ثم في بيروت، ودرس الفلسفة في جامعة السوربون في باريس ومارس التعليم في مدارس اللواء. ورحل الأرسوزي عن الإسكندرونة في العام ١٩٣٨، وراح يعلّم في مدارس حلب ودير الزور وينشط في «عصبة العمل القومي»، ويبشر بفكرة «البعث العربي»، دون أن ينخرط في تنظيم حزبي، وله عدة كتب أهمها «العبقرية العربية في لسانها» و«بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم». ولعب الأرسوزي، مع غيره من اللوائيين العرب، دوراً أساسياً في التعريف والدفاع عن الإسكندرونة، وإبقائها حيّة في أذهان الجيل العربي في تلك الفترة. ومن المؤسف ـ حسب علمي ـ أن ليس هناك كتاب عربي موثق حتى الآن عن موضوع الإسكندرونة يحفظ للأجيال العربية الجديدة تاريخها، ويشحذ ذاكرتها، وخاصة على ضوء الوثائق التاريخية التي أفرج عنها بعد مضي أكثر من خمسين عاماً. إذ لا أذكر منها سوى كتاب صغير أصدره الدكتور مجيد خدوري في العام ١٩٥٣ في دمشق وأهداه إلى الدكتور قسطنطين زريق.

وهكذا انزلقت الأمور حتى احتلت تركيا اللواء في العام ١٩٣٨، بعد موت أتاتورك وتولّي رفيقه عصمت إينونو الحكم. وأجريت انتخابات في اللواء تحت رعاية دولية قامت فرنسا وتركيا بتزويرها، نجح الأتراك فيها بغالبية في المجلس التشريعي للواء. تبع ذلك توقيع فرنسا وتركيا لاتفاق في ٢٣ حزيران ١٩٣٩، أُدخل بموجبه لواء الإسكندرونة في الأراضي التركية، طموحاً من فرنسا بوقوف تركيا معها في الحرب العالمية الثانية. واستبدلت تركيا اسم لواء الإسكندرونة باسم «هاتاي»، وهو اسم ينسب إلى الحثيين. وأصبح اللواء منذ ذلك الحين يعرف رسمياً في تركيا باسم «هاتاي». وبقيت أسماء مدينة الإسكندرونة ومدينة أنطاكية وبعض المدن والقرى الأخرى على حالها.

□ □ □

وانطوت قضية الإسكندرونة، ذلك اللواء السليب منذ ذلك التاريخ، وقد أعاد فتحها الأتراك، في ذكرى اليوبيل الماسي للجمهورية التركية. فتركيا حائرة اليوم بين هوية شعبها المسلم وبين هوية الدولة العلمانية، دون أن تستطيع التوفيق بين الهويتين. لأن الساسة الأتراك الذين تعاقبوا على الحكم خلال ٧٥ سنة، حوّلوا العلمانية، بمواصفات أتاتورك، إلى أيديولوجيا، تعدت على كل الحريات العامة، وخاصة الحريات الدينية، حتى امتدت إلى السياسة الخارجية. فلم تستطع دولة مصطفى كمال العلمانية، الخلاص من الإرث العثماني التاريخي. فما زالت الأقاليم التي كانت مدار نزاع بين الدولة التركية الحديثة والحلفاء الذين توزعوا أراضي الأمبراطورية كمناطق نفوذ لهم، منذ وفاة أتاتورك في العام

١٩٣٨، كالموصل والإسكندرونة تحديداً، إلى جانب قضية الأكراد، ما زالت موضع نزاع وبؤرة انفجار.

كذلك العلاقات التركية المتوترة التي كانت بين تركيا الكمالية في الثلاثينيات، مع كل من العراق وسورية وإيران، ما زالت إلى اليوم متوترة بطريقة أو بأخرى. فقضايا المياه وقضايا الأقليات الطائفية والقومية، وقضايا الهوية الدينية والمذهبية، ما زالت تشكل خطراً داخلياً على النظام التركي الحالي، لارتباطها بنزاع خارجي موروث من أيام الكمالية الأولى. ولعل أجراس هذا الخطر قد بدأت تقرع منذ حرب الخليج الثانية (عاصفة الصحراء) في العام ١٩٩٢، وتفاقمت في السنوات الثماني اللاحقة، لضياع هوية الانتماء التركي، كدولة وكشعب.

فتركيا الكمالية قد أضاعت البوصلة التي تركها لها الإرث العثماني، فلا هي اليوم دولة مشرقية، ولا إسلامية، ولا تعرف بالتالي كيف تتعامل مع جيرانها العرب والإيرانيين. لقد استغنت عن الكحل المشرقي بالعمى الإسرائيلي، وهي تقرع بذلّ أبواب الاتحاد الأوروبي، الموصد بوجهها منذ ثلاثين سنة ونيف، تتوسل وتتسول أن يفتح لها. ولم تصبح تركيا جزءاً من أوروبا كما أراد لها مصطفى كمال، ولم تعد جزءاً من المشرق الشرق أوسطي، كما تركها العثمانيون. فلم تكسب الدين، وأضاعت الدنيا.

□ □ □

من هنا قد نفهم لماذا سلب اللواء، وضاعت الإسكندرونة، في أيام الدولة التركية الحديثة التي ورثت تركة «الرجال العثماني المريض»،

وظلّت إلى اليوم مريضة بالمرض ذاته. فلا هي شفيَت منه، ولا هي منعت انتشار عدواه.

لذا لا أحد يعرف اليوم، أمام الأوضاع الداخلية الصعبة والمعقدة، والخذلان الخارجي نتيجة لتخبط هذه الأوضاع لعقود طويلة من الزمن، ما هي خيارات تركيا المستقبلية؟

ولعل العرب، والسوريين تحديداً منهم، بعد أن قطعوا مع تركيا مسيرة القرن العشرين كلها، قد توصلوا إلى قناعة بما قاله المدائني في «البيان والتبيين» للجاحظ: «إذا انقطع رجاؤك من صديقك، فألحقه بعدوك»!.

(*) راجع كتاب «الإسكندرونة ـ اللواء الضائع (١٩٣٦ ـ ١٩٤٧)» وهو الجزء السادس من مجموعة الأعمال الكاملة لنجيب الريّس، الصادرة في عشرة مؤلفات عن «شركة رياض الريّس للكتب والنشر» ـ بيروت ١٩٩٤.

٢ ـ الإسكندرونة

أنطاكية ومسيحيو المشرق

■ «... وقيل لعيسى بن مريم، على نبينا وعليه السلام:
ـ مَنْ أدّبك؟
قال:
ـ ما أدبني أحد، ولكنني رأيت جهل الجاهل، فجانبته» .□

المـاوردي في كتاب
«أدب الدنيا والدين»

عندما تساءلت: مَنْ يعرف قصة الإسكندرونة «اللواء السليب» اليوم؟ لم أكن أعرف أن هذا الأمر يقتضي الغوص المستفيض في تاريخ ما أهملته التواريخ من أحداث بلادنا.

لذلك فوجئت بأن الذين يعرفون أطرافاً من هذه القصة، يريدون أن يعرفوا المزيد عنها. وأن الذين عاصروا بعضاً من مرحلة سلب تركيا للإسكندرونة، عاتبون لإهمالي جوانب هامة من هذه القضية. وعلى رأس هؤلاء أنصار ومحازبو الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه أنطون سعادة، وهم يغمزون من طرف خفي بأنني ذكرت دور «العصبويين» (أي جماعة «عصبة العمل القومي»)

ولم أذكر أدواراً أخرى، لها أهمية دور «العصبويين» ودور زكي الأرسوزي بالذات. وأشارت فئة أخرى من القرّاء المتصلين إلى تجاهلي لدور مسيحيي أنطاكية والإسكندرونة في النضال للحفاظ على عروبة لواء الإسكندرونة ضد التتريك وإبقائها جزءاً من الوطن السوري.

وتداخلت الملاحظات ببعضها البعض، حتى بات لزاماً عليَّ أن أقول كلمة مهنية، قبل أن أمشي. وهي أن الصحافي، لا يستطيع أن يلمّ بأي موضوع يختاره بمختلف جوانبه، في حيّز محدود من المساحة وعدد معيّن من الكلمات، خصوصاً وأنه يريد المحافظة على متابعة واهتمام القارىء الملول عادة، فيشدّ انتباهه ويفتح شهيته إلى المزيد من المتابعة. لا سيما إذا كان الموضوع ذا أبعاد تاريخية بينما مصادره قليلة وغير متوافرة. والإسكندرونة مثال حقيقي وحَي لهذه المعضلة. والصحافي ابن السرعة واللحظة الخاطفة، هو ليس كاتباً أكاديمياً ولا مؤرخاً للموضوع الذي يتناوله، وليس من مهماته الإحاطة بكل شاردة أو واردة فيه. الصحافي باختياره الموضوع، يريد أن يلفت النظر إليه وأن يثير الاهتمام به وأن يدلي برأي فيه. لا أكثر ولا أقل. فليس من بين مهامه إرضاء كل القرّاء، فيخسر نفسه ولا يربح موضوعه.

في عهد الدولة التركية الكمالية العلمانية الحديثة قضمت تركيا لواء الإسكندرونة من سورية. وكانت هذه القضية قد بَهتت ألوانها في ذاكرة السوريين والعرب عامة. هذا من ناحية. من ناحية أخرى كان لا بد من فتح ملف الإسكندرونة، لأنها قضية محورية وردت في الخلاف التركي ـ السوري في العام ١٩٩٨، بعد أن أثارها

الأتراك بشكل خاص في وجه السوريين، وأرادوا استعمالها كقميص عثمان ضد سورية.

في مجال التعليق سياسياً على دور المسيحيين العرب في موضوع لواء الإسكندرونة وعاصمتها أنطاكية، ليس عندي ما أقوله سوى أن أروي شيئاً مما تعلمته في شبابي.

كان هناك ثلاثة أحداث. الحدثان الأولان تعلمتهما في المدرسة. والحدث الثالث تعلمته في بيتي. الحدثان اللذان تعلمتهما في المدرسة هما أنه كان للنصرانية الأرثوذكسية يومان أغرّان في تاريخ العرب القومي. يوم في الشام ويوم في العراق.

يومها في الشام كان حينما زحف الإسلام من الحجاز إلى هذه الديار ليحررها من استعمار الأمبراطورية البيزنطية. لقد رفض النصارى العرب أن يحاربوا في صفوف الجيش الروماني وانضم كثيرون منهم إلى صفوف العرب المسلمين وقاتلوا جنود قيصر.

أما يومها في العراق فقد كان حينما انضم المثنى بن حارثة على رأس قبائل بني شيبان إلى جيش سعد بن أبي وقّاص في فتح بلاد الفرس وقتال كسرى. وكان شباب بني شيبان المسيحيون الأرثوذكس على أبواب القادسية يهتفون للفتح العربي القومي ويحاربون لتحرير العرب من استعمار الفرس.

هذان يومان أبيضان يحفظهما تاريخ العرب والإسلام للنصرانية الأرثوذكسية في أشرق صفحة من صفحاته. فقد نسيت هذه الأرثوذكسية الخلاف بينها وبين الإسلام في الدين أمام مهمة دفع الأجنبي عن أرض الوطن. واحتفظت بالذاكرة القومية، فانضمت إلى لوائها وتحمست للعروبة في سبيلها.

أما ما تعلمته في بيتي، فكان في مطلع العام ١٩٣٧، عندما جاء أحد أعضاء لجنة المراقبة الدولية إلى أنطاكية ليحقق في دعوى الأتراك سلخ لواء الإسكندرونة من سورية وضمه إلى تركيا. فأغلق الأتراك المساجد يوم الجمعة في وجوه المسلمين من العرب السوريين ليمنعوهم من الصلاة والتظاهر أمام اللجنة الدولية تأكيداً لعروبة الإسكندرونة وأنطاكية. وليؤكدوا للعالم الغربي أن تركيا العلمانية جمهورية لا دينية جديدة، قد تخلت عن دينها وإسلامها، وأنها أصبحت دولة أوروبية.

فما كان من النصارى العرب الأرثوذكس إلاّ أن فتحوا خلال ساعة واحدة من المنع التركي، كنائسهم البيزنطية الرومانية وأحالوها مساجد للمسلمين يؤدون فيها صلاة الجمعة في أعظم مهرجان وطني قومي. وصلّى المسلمون لأول مرة في حياتهم صلاة الجمعة في الكنائس إلى جانب المسيحيين. ووقف خطيب المسلمين في هيكل المسيح يتلو القرآن. وصعد مؤذنهم إلى قبة الناقوس ليرفع الأذان. وقد سطّر الموقف المسيحي التلقائي والعفوي هذا، أروع حادثة وطنية في تاريخ النضال السوري من أجل عروبة لواء الإسكندرونة. ما قوّى في نفس السوريين رابطة القومية والعروبة في ظل الدين الإسلامي والدين المسيحي، في عصر كانوا يقولون فيه إن الأديان تهدم القوميات. وإذا بهذا الموقف الديني يحمي القومية ويشدّ أزرها ويدافع عنها أمام الخطر الأجنبي الداهم. وإذا بها أيضاً أعظم مظاهرة سياسية أمام لجنة دولية جاءت أنطاكية لتشهد مصداقية ادعاء الأتراك في هذا اللواء العربي قبل أن يُسلب. فكانت أبلغ دفاع عن عروبة لواء الإسكندرونة واتحاد سكانه.

وهكذا أصبح للنصرانية العربية الأرثوذكسية في التاريخ العربي يوم ثالث، بعد يوم الشام ويوم العراق، هو يوم أنطاكية(١).

وقد سألني عن هذه الواقعة ومدى صحتها الأب متري جرداق وهو باحث في التاريخ ورجل دين أرثوذكسي، أثناء الحديث الذي أجرته معي السيدة جيزيل خوري في برنامج «حوار العمر» (الأحد ٤ تشرين الأول ١٩٩٨) وقال إنه لم يجدها موثقة في أي مرجع وأنه سأل عنها البطريرك هزيم، الذي قال له إنه لا يذكرها. ولعلها مناسبة أن أقول للأب جرداق، إن سؤاله هذا هو الذي أوحى لي بكتابة موضوع الإسكندرونة، وأن هذه الحادثة موثقة ومنشورة في جريدة «القبس» الدمشقية في عددها الصادر بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٩٣٧.

□ □ □

ويوم أنطاكية يجرنا إلى الحديث عن نصارى المشرق من الأرثوذكس، ونحن نسوق من التاريخ العربي القديم والحديث، الروايات عن مواقفهم القومية. فالروم الأرثوذكس، في المشرق، في الهلال الخصيب، في العالم العربي، هم في هذه البلاد منذ العصر الرسولي ومنذ نشأة المسيحية. وليسوا وليدي هجرة أو انشقاق. هم أهل البلاد منذ القدم. هم أبناء الذين تنصروا على يد بطرس الرسول في الساحل، أو على يد بولس الرسول في الداخل وسواهما، في ما كان يعرف بولاية المشرق في العهد الروماني. ولم يأتوا من جزر اليونان كما قد يوحي الاسم. وظلوا في صلة غير منقطعة مع كنيسة المشرق المعروفة بالكنيسة الأنطاكية والمسماة كذلك، لكون بطريركها بقي مقيماً في أنطاكية حتى القرن الرابع عشر.

والنصارى الأرثوذكس هم سكان سورية الطبيعية. استعملوا الآرامية واليونانية لغتي تلك العصور، حتى تعرّب لسانهم جميعاً بصورة نهائية في القرن الثالث عشر. ولم يبق على الآرامية ـ وهي لغة السيد المسيح ـ المستعملة مع العربية إلاّ فئة قليلة في بلاد القلمون في الشام وفي قرية معلولا في سورية. وقد اتخذوا الطقس الديني البيزنطي بعدما استعاد الروم جزءاً من بلاد الشام في القرن العاشر. وحافظوا على هذا الطقس بعد أن نفى الصليبيون زعماء كنيستهم. فأقاموا في القسطنطينية حيث أتقنوه. وكان التلاصق المذهبي بين الأمبراطورية الرومانية البيزنطية وهذه الفئة من مسيحيي المشرق، قد قوّى عندهم الشعور بالامتداد الجغرافي. وعندما جاء العثمانيون وورثوا بيزنطية سياسياً وجغرافياً، بقي الأرثوذكس منتشرين في أنحاء الأمبراطورية العثمانية الواسعة وخلف تخومها.

وعلينا أن لا ننسى أن الحملة الصليبية الرابعة قامت أصلاً ضد الأرثوذكسية الشرقية في محاولة أخيرة لجر الكنائس الشرقية إلى السيطرة الأوروبية الغربية، أكثر مما قامت ضد المسلمين. وهي قتلت المسيحيين بقدر ما قتلت من المسلمين، ودمرت من الكنائس وأديرة المسيحيين أكثر مما دمرت من مساجد وممتلكات المسلمين. وحمل الأرثوذكس مع بقية المسيحيين والمسلمين طوال المئة سنة الأخيرة لواء القضية القومية العربية والقومية السورية، فحاربتهم فرنسا، الدولة المنتدبة على سورية ولبنان، وحاولت جرهم إلى الكثلكة، كما حاولت بريطانيا أن تستميلهم إلى البروتستانتية. وصمد الأرثوذكس، رعاة وكنيسة، في وجه المحاولتين.

□ □ □

ولأن الأرثوذكس هكذا في التراث والتاريخ العربي، من قبل

الإسلام ومن بعده، استطاع البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، أن يقف في كاتدرائية نوتردام في باريس في العام ١٩٨٣، ليقول لأكبر دولة كاثوليكية في العالم، ذات الارتباط المصلحي التاريخي المتواصل مع سورية ولبنان، وفي أسوأ أيام التعصب المسيحي اللبناني ضد العروبة والإسلام، وفي أمرّ أيام التعصب الإسلامي وأسوئه ضد المسيحية والعروبة ـ فكرة وقومية ـ إنه يخاطب الشعب الكاثوليكي الفرنسي بصفة كونه: «أرثوذكسياً عربياً وعربياً مسيحياً».

ولم يكتفِ البطريرك هزيم بذلك، بل قال: «إنني أتكلم باسم كنيسة مركزها دمشق. المدينة التي هزم فيها المسيح الرسول بولس، فآمن وتعمد فيها. لغتنا الطقسية هناك هي اللغة العربية، اللغة الوحيدة التي يصلّي بها المسلمون في مختلف أنحاء العالم. فالكنيسة التي تتكلم هذه اللغة العربية، هي الوحيدة التي تعي متاعب بلادنا بصبر وشجاعة، والقادرة على أن تصل إلى قلوب كل المشرقيين».

وموقف الأرثوذكسية العربية، هو أيضاً موقف كل الكنائس الشرقية أصلاً التي تبعت الغرب ولحقت بروما، وعلى رأسها الكنيسة المارونية. ولا تزال كلها كنائس شرقية بأصولها وفروعها. فالكنيسة المارونية التي من الممكن أن يقال عنها إنها أكثر الكنائس الشرقية تغريباً، لا تزال كنيسة مارونية لأنطاكية وسائر المشرق، وهو لقب بطريركها. هذه الكنيسة لم تصبح لاتينية، وما زالت كنيسة عربية، مشرقية. كذلك كنيسة السريان الأرثوذكس والسريان الكاثوليك والأرمن الأرثوذكس والأقباط الأرثوذكس. فكل هذه الكنائس تدعي وصلاً بأنطاكية وسائر المشرق. وكل بطريرك من بطاركتها

هو بطريرك أنطاكية وسائر المشرق. فالكرسي الأنطاكي هو دليل على شخصيتها وأصالتها المشرقية. لقد سعى الغرب إلى حجب المسيحية العربية المشرقية وعدم الاعتراف بها. وهي جزء عضوي من الواقع الاجتماعي والثقافي والحضاري العربي. وهي بالتالي، لا تستطيع الانفصال عنه، وإلاّ فقدت هويتها.

□ □ □

نعود إلى «اللواء السليب» وتداخله في الموضوع القومي بين سورية ولبنان، فيروي نجيب الريّس، أن صديقاً لبنانياً قال له: «كيف رأيت موقف الصحافة اللبنانية من قضية الإسكندرونة، وكيف ترى عاطفة اللبنانيين بوجه الإجمال من سورية في هذه المشكلة؟ أرأيت موقف الحزب السوري القومي الاجتماعي واحتجاجاته وبرقياته في تأييد حق سورية في هذا اللواء السوري العربي؟».

فيرد نجيب الريّس: «نعم. ورأيت حتى الشيوعيين في لبنان يحتجون مع سورية. بل رأيت مدينة من أعرق المدن اللبنانية تحتج بالإجماع معنا، وهي مدينة زحلة. وهذه عاطفة أخوية من لبنان نذكرها له مع الشكر، لأن الاعتداء على شبر واحد من سورية إنما هو اعتداء على الوطن السوري اللبناني كله، الذي نعيش فيه منفصلين اليوم ومجتمعين غداً، أحببنا أم كرهنا»[٢].

كان هذا الحديث في ٤ كانون الثاني ١٩٣٧. وبعيداً عن إسقاطاته ومدلولاته على الواقع السوري ـ اللبناني اليوم، فقد كان موقف الأحزاب في لبنان، وفي مقدمها الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه أنطون سعادة، (الذي تزامن مع نجيب الريّس

في رعيل واحد، وإن اختلفا في الحزبية السياسية) من المواقف التي استقوى بها السوريون، ومن بينهم «العصبويون».

□ □ □

من ضمن هذا السياق السوري - اللبناني كان موقف الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه، أبرز المواقف وأكثرها وطنية بالنسبة إلى الإسكندرونة وقضيتها. فقد وجه سعادة في ٨ كانون الثاني ١٩٣٧، إلى المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان، مذكرة هي الوحيدة من نوعها، يعرض فيها تطوع رجال من حزبه للدفاع عن اللواء، يقول فيها:

«نظراً لانعقاد مجلس الوزارة التركية في أنكشهير، والإشاعات السارية حول إمكانية تعدٍّ مسلَّح من قِبَل تركية على سنجق الإسكندرون، لنا الشرف أن نضع تحت تصرُّف جيش الدفاع العدد اللازم من المتطوعين من أعضاء حزبنا للمساعدة على الاحتفاظ بالسّنجق السوري.

«إننا على يقين، يا فخامة المفوض السامي، من أن الدولة الفرنسية الصديقة لن تترك في هذه المناسبة، أيَّ مجال للتهويل، لا سيما وأن إرادتها النبيلة للاضطلاع بأعباء تعهّداتِها يؤيدها استعدادنا للدفاع عن مصالحِنا القومية فإننا لا نستطيع أن نرضى، دون أن نقلِّل من قيمة أنفسنا بأن يُهرَق الدم الفرنسي الكريم، إذا اقتضى الحال، في سبيل الذود عن سلامة الأراضي السورية. فنحن نجعل إذاً من وجودنا في مراكزِنا على حدودنا الشمالية، في حالة خلاف مسلّح مع تركية، قضية شرف لنا(...)».

وفي هذا الاتجاه كتب سعادة مقالاً في جريدة «الشرق» البيروتية (٢٩ كانون الثاني ١٩٣٧) يعلن فيه أن الأرض السورية يدافع عنها جيش سوري لا جيش تركي، إثر إعلان الاتفاق الذي تمَّ بين

فرنسا وتركيا والذي ينص على منح الإسكندرونة وأنطاكية استقلالاً إدارياً في ظل حماية فرنسية ـ تركية مشتركة، ومقال سعادة هذا، من وجهة نظري، يعتبر من أقوى وأجرأ المواقف اللبنانية في هذا الموضوع.

يقول سعادة:

«(...) الحقيقة أن هذا الاتفاق قد جاء بعيداً كل البعد عن حلّ قضية الحدود السورية ـ التركية حلاً يؤمن السلام. إن تأمين السلام على الحدود السورية ـ التركية لا يمكن أن يتم بالإجحاف بحقوق سورية وإفقاد سيطرتها على بقعة هامة في الوطن السوري تُضاف إلى البقاع التي فقدتها بموجب اتفاقات سابقة.

«إن الاحتفاظ بحق الدفاع عن لواء الإسكندرون للقوات التركية والفرنسية يعتبر تمهيداً عملياً لتهديد استقلال سورية وخسارة كبيرة لمصالح الأمة السورية. إن فقد السيطرة السورية على لواء الإسكندرون، خسارة لا تنحصر في دولة الشام، بل تشمل لبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق، لأنها فَقْدُ بقعة خصبة وموقع هام للتجارة والأعمال الحربية، وتهديد لا يقتصر على كيان دولة الشام بل يتناول سورية الجغرافية كلها، لأن اجتياز الحدود من الشمال يعني أن البلاد كلها أصبحت في خطر(...).

«إن الأمة السورية لا تريد أن تختنق بين الضغط التركي والضغط الصهيوني. إنها قد سئمت العقم الفكري والشلل السياسي اللذين يغمران موقف السياسيين الكلاسيكيين القابضين على زمام الأمور ولا يعرفون من طبائع الأمور السياسية سوى ما يدّعون وما يجادلون وما يختلقون من أعذار للشلل المصابين به. إنهم يظنون أن الأمة مشلولة وليس الشلل إلاّ في نفوسهم.

«إن الحزب السوري القومي الاجتماعي كان القوة الأولى الوحيدة في سورية التي وقفت موقفاً حاسماً في جانب تصريحات ممثل الدولة

المنتدبة في اجتماع الأمم الأول لبحث مسألة الإسكندرون، وإن هذه القوة ستظل في موقفها، إن الأرض السورية سيدافع عنها جيش سوري لا جيش تركي. وإذا كان الجيش الفرنسي سيشترك في هذا الدفاع فإنه يفعل ذلك بموجب صك الانتداب ووفاقاً لمعاهدة الصداقة والولاء التي لا يزال حبرها رطباً (...).

«قلنا إن مسألة الحدود الشمالية لا تهم أهل الشام فقط بل أهل لبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق أيضاً. لقد قُلنا ونعيد القول إن السوريين القوميين الاجتماعيين في لبنان وغير لبنان يعدّون حدودهم الوطنية حدود سورية الجغرافية ويعتبرون كل اعتداء على الحدود اعتداء عليهم.

«إننا نطالب بأن تكون أول نقطة من نقاط البحث، المصالح المشتركة بين لبنان والشام، نقطة توحيد الجيش أو توحيد وسائل الدفاع عن الحدود العامة التي تضمن تقدم الأمة في مضمار الحياة.

«إننا لا نوافق مطلقاً على النظرية الخرقاء القائلة بأن تهديد سلامة الشام لا يتضمن تهديد سلامة لبنان. إن المصير القومي واحد للبنان والشام وسورية الطبيعية كلها، ولا شيء يؤمّن خيرَ المصير سوى استعدادنا لإدراك خطورة الموقف وتوحيد الجهود في نهضة غرضُها حماية المصلحة القومية العامة(...)».

□ □ □

ولعل أهم ما كتبه أنطون سعادة في وصف حال التخلف القومي والتردي الوطني الذي كان يحيط باللبنانيين إبان أزمة الإسكندرونة، هو ما شاهده في عيد المولد النبوي في بيروت في تشرين الثاني ١٩٣٧، إثر زيارة قام بها وفد تركي إلى لبنان برئاسة وكيل وزارة الخارجية التركية. يقول سعادة:

«... تدفّق القوم خارجين من المسجد الكبير بعد احتفالهم بعيد المولد

النبوي، وتبادلوا التهانيء واكتظوا أمام باب الجامع يشاهدون الوفود تقصد غرفة الفتوى لتقديم تهانيها.. وقف ذلك الحشد الغفير أمام المسجد تاركاً مجالاً لمرور سيارات القناصل التي كانت تقلّ المهنئين.

«القناصل. قنصل فرنسة، قنصل مصر، قنصل العراق، قنصل... كل هؤلاء مرّوا بين الجميع بجو مشبع بالهدوء والرصانة.

«وفجأة علا التصفيق واشتدُّ الهتاف وإذ بالناس يندفعون إلى سيارة قادمة صارخين تعيش تركية تعيش تعيش!.. وإذ بأحدهم يتقدم من القنصل التركي في سيارته، ويقدم له باقة من الزهر عنواناً لمحبتهم له ولدولته.

«تجاه هذا المشهد الغريب وقفتُ مشدوهاً ثم انزويت وأخذت أسائلُ النفس لماذا هذا الاحتفاء الكبير بالقنصل التركي؟! لماذا لم يُكرّموا قنصل العراق، قنصل مصر؛ قنصل العجم!! فكان الجواب أن انحدرت دمعة حارة من عيني كانت بكاء على تلك العقول الرجعية الساذجة، على أولئك الأحياء الأموات! (...)»[٣].

□ □ □

سألني زميل: كم تهوى أنت القضايا الخاسرة؟ يوماً تكتب بحنين عن ضياع الأندلس، ويوماً تستجير بحديث صحافي مع الإمام علي بن أبي طالب. ويوماً آخر تفتح ملف الإسكندرونة واللواء السليب، وتطالب باسترجاعه. ويوماً تتساءل عمّن باع الجزر العربية الثلاث في الخليج، وعما إذا كان النفط أغلى من الدم؟ إعقل يا صاحبي، فقضاياك الخاسرة كلها، لا تهم أحداً ولا تطعم خبزاً.

قلت لزميلي العزيز: لقد قضت السياسة على البقية الباقية من الأفكار المستقبلية، ودمرت الحروب العربية بقايا الأحلام القومية الواعدة، ولم يعد ممكناً الاستدارة من مواقف الذل العديدة

المعروضة على المسرح السياسي العربي اليومي، إلى موقف عزّ واحد.

في هذا العصر غير المضيء، انقض محترفو التعصب، على تنوع أحقادهم، على تراث الفكر العربي القومي على امتداد هذا القرن وأمعنوا فيه طعناً وتمزيقاً وتشويهاً وتحريفاً، حتى نسينا، على الرغم من تبجحنا الثقافي، رموز ورواد نهضة قرن عربي كامل. نسينا جمال الدين الأفغاني ونسينا محمد عبده ونسينا عبد الرحمن الكواكبي، ونسينا من بعدهم نجيب عازوري وساطع الحصري وزكي الأرسوزي وأنطون سعادة وقسطنطين زريق، ونسينا ونسينا ونسينا. كلهم بشروا بقضايا خاسرة، وكلهم سقطوا على أعتاب الإحباط السياسي الذي تعاني منه الأجيال العربية اليوم. فإذا بالأحلام الوطنية والقومية مجرد كوابيس، وإذ بي مجرد واحد من باعة هذه الأحلام على رصيف الصحافة العربية.

قال زميلي: إنني أخشى عليك في قضاياك الخاسرة، من مصير لا تريده. قلت: ما هو؟ قال: ما قاله سفيان بن سعيد الثوري لعطاء بن مسلم الخفّاف. «قال: يا عطاء، إحذر الناس. وأنا فاحذرني. فلو خالفتُ رجلاً في رمانة، قال عنها إنها حامضة، وقلت: حلوة. أو قال حلوة، وقلت: حامضة، لخشيت أن يهدر دمي»[٤] .

---

(١) راجع كتاب «المسيحيون والعروبة» لرياض نجيب الريّس «شركة رياض الريّس للكتب والنشر» لندن ـ ١٩٨٨.

(٢) راجع كتاب «إسكندرونة: اللواء الضائع (١٩٣٦ ـ ١٩٤٧)» في سلسلة الأعمال المختارة لنجيب الريّس، الصادرة في عشرة مؤلفات ـ «شركة رياض الريّس للكتب والنشر» ـ لندن ـ ١٩٩٤.

(٣) راجع كتاب «لواء الإسكندرون» لأنطون سعادة، الطبعة الأولى، عن عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي، بيروت ١٩٩٦.

(٤) رواه الأمير أسامة بن منقذ في كتاب «لباب الآداب».

أنطاكية

تعددت الآراء حول نشوء هذه المدينة. لكن أكثر المؤرخين يرجحون أن الأمبراطور سلوقوس الأول بناها سنة ٣٠١ق.م. وأطلق عليها اسم أبيه أنطيوخوس، أحد كبار قادة الجيش المقدوني في عهد فيليبس والد الإسكندر الكبير.

احتلها الرومان عند احتلالهم سورية سنة ٦٤ق.م. وغزاها الفرس ودمروها سنة ٢٣١م. وفي ٢٦٦م. صارت تحت حكم تدمر وملكتها زنوبيا، إلى أن أصبحت من نصيب الأمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) سنة ٣٩٥م. هاجمها الفرس مرة ثانية سنة ٥٤٥م فأحرقوها. وفتحها العرب سنة ٦٣٨م. ومرت بعهود الأمويين والعباسيين، حتى استولى عليها أحمد بن طولون سنة ٨٧٧م وألحقها بالدولة الطولونية. ثم صارت للأخشيديين سنة ٩٤١م. إلى أن انتقلت لحكم سيف الدولة في حلب بعد سنة ٩٤٤م.

احتلها البيزنطيون سنة ٩٦٩م، ثم احتلها السلاجقة سنة ١٠٨٤م، بعد أن بقيت في حوزة البيزنطيين حوالى ١٢٠ عاماً. حتى احتلها الصليبيون سنة ١٠٩٨، فكانت أول مدينة سورية تُحتل من قبلهم في الحملة الصليبية الأولى. وأسسوا فيها «إمارة أنطاكية الصليبية»، حتى حررها الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ في العهد المملوكي. وجاء الفتح العثماني سنة ١٥١٦. وظلت تحت الحكم العثماني حتى غزاها إبراهيم باشا المصري سنة ١٨٣٢، وبقي فيها حتى سنة ١٨٤٠، حين استعادها العثمانيون، عند انسحابه من سورية إلى مصر.

احتلها الفرنسيون سنة ١٩١٨، وسلخت عن سورية حين منحتها فرنسا لتركيا سنة ١٩٣٩.

الإسكندرونة

بناها أنتيغون أحد خلفاء الإسكندر المقدوني في سورية، وأطلق عليها اسم الإسكندرونة نسبة إلى الإسكندر، وتخليداً لذكرى معركة أبسوس الذي انتصر فيها الإسكندر على داريوس، ملك الفرس، بالقرب من المدينة سنة ٣٣٣ق.م.

فتحها الرومان سنة ٦٤ق.م. وخرّبها الفرس في القرن الثالث للميلاد. في زمن الفتح العربي ظهرت من جديد في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، واشتهرت عندما شيّد الرشيد لزوجته زبيدة حصناً فيها. ومرت في العهود التي مرت فيها جارتها أنطاكية. حتى نقل إليها إبراهيم باشا عتاد جيشه من مصر إبان غزوه سورية سنة ١٨٣٢م. فقطع أشجار أحراج جبل اللُكام (الأمانوس) وصنع سفنه منها، فانتعشت في عهده القصير وانتقلت إليها عائلات عديدة.

سيطرت عليها الحكومة العثمانية سنة ١٨٦٥، وأتبعتها لقضاء بيلان، ثم جعلتها قضاء تابعاً لولاية حلب سنة ١٨٨٥.

احتلتها فرنسا في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٨، حين دخلتها قواتهم. وسلخها الفرنسيون نهائياً عن سورية ومنحوها لتركيا سنة ١٩٣٩.



حكاية
المُلك العقيم

١ ـ البلقان

أعمار القياصرة الطويلة!

■ «لما اقترب أجل عبد الملك بن مروان، رأى غسّالاً يلوي بيده ثوباً فقال:

ـ وددت أني كنت غسّالاً لا أعيش إلاّ بما أكتسبه يوماً فيوماً.

فبلغ ذلك أبا حازم الأعرج فقال:

ـ الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عنده ما هم فيه».□

«سراج الملوك»

محمد بن الوليد الطرطوشي

الزعماء، قياصرة وملوكاً وأمراء ورؤساء، بشر مثلنا ناطقون مائتون. وهم مثلنا كلنا حريصون على الحياة من دون أن يكونوا حريصين على الموت كي توهب لهم تلك الحياة. فالحياة بأي شكل من الأشكال، عزيزة.

مرت بذهني تلك الخاطرة، وأنا أستعرض عشرات الزعماء من مختلف أنحاء العالم الذين وفدوا لحضور جنازة المغفور له الملك الراحل الحسين بن طلال، ملك الأردن في شباط ١٩٩٩. وأكثر ما لفت نظري بين هذا الحشد هو حضور وغياب ـ في الوقت نفسه ـ الرئيس الروسي بوريس يلتسين، الذي تحامل على مرضه وجاء عمّان، ليقوم بواجب العزاء بالطبع، لكن ليقول أيضاً للعالم وزعمائه أنه ما زال حيّاً وقادراً على الحركة والسفر، ولو بحدود.

في ذلك الوقت كانت أخبار مرض الرئيس الروسي بوريس يلتسين تحتل صدارة الأنباء وتشغل بال العباد والبلاد. وتساءلت لماذا تتحمل الأمم ـ كل الأمم ـ حكم زعماء، مرضى، مسنين، يرفضون مبدأ «التقاعد» أو التخلي عن المنصب والسلطة لمن هم أكثر شباباً وقدرة وتجدداً منهم. والتاريخ المعاصر حافل بأمثلة عن هذا النوع من الزعماء الذين يرفضون التواري عن المسرح السياسي حتى الرمق الأخير. ولعل المثال الحي ـ الميت عن ذلك هو الرئيس بوريس يلتسين، لكنه ليس المثال الوحيد في التاريخ.

□ □ □

من المفهوم والطبيعي، أن الزعماء يودون البقاء في المنصب أطول مدة ممكنة، ومن الأفضل أن يكون ذلك حتى لحظة الوفاة. وكلما تقدموا في السن وطال مكوثهم في الحكم، كلما ازداد خوفهم من «التقاعد» لكونهم زعماء قادرين على كتابة القوانين والدساتير بالشكل الذي يناسبهم. فبدلة السلطة محاكة من قماشهم، وخياطتها على مقاسهم. إن معظم دساتير العالم تنص على الحد الأدنى للسن التي يجب أن يكون فيها المرشح لمنصب الزعامة، لكن ولا واحد منها ينص على الحد الأقصى للسن التي يجب على الزعيم أن يتقاعد فيها. إن قوانين العمل والخدمة تنطبق على الموظفين، لكنها لا تنطبق على الزعماء. لذا فإن مستقبل الأمة قد يقع في أيدٍ بدأت تهتز أو أذهان شرعت تضعف أو أقدام باتت ترتجف. فلا يعود الحاكم يستطيع أن يحمل قلماً أو يتذكر أمراً. بل يتفركش عند أقصر عتبة.

في واقع المناصب السياسية العليا، أن «الشلة» المحيطة بأصحاب تلك المناصب يمكنها أن تحميهم من تصرفات مهينة قد يقعون فيها

كل يوم. فكلما كبر في السن زعيم ما، فإن المحيطين به من المستشارين ورجال العلاقات العامة وكتبة الخطابات، يستطيعون أن يبرهنوا باستمرار أن ذلك الزعيم بخير وأن سياساته مدروسة ومتقنة. ومهما كان الزعيم متعباً أو مريضاً، فإن الآلة الحكومية تستطيع أن تتنفس عبر الرئتين الاصطناعيتين اللتين يزوّد بهما من قِبل المستشارين. وبالتالي فإن الخبر الأساسي الذي ينقل إلى العالم وبشكل مستمر، أن صحته بخير وحالة البلاد الصحية أيضاً بخير. وقد بلغ الإتقان بهذه اللعبة، أن الكذبة كثيراً ما تنطلي على الذين يصنعونها.

في الديموقراطيات، يتواطأ المجتمع لخلق وهم أن الزعماء لا يكبرون في السن بالسرعة التي يكبر فيها الإنسان العادي. فرجل السياسة في السبعينيات أو الثمانينيات من عمره يكون متمتعاً بنشاط بدني وعامر الذهن بالأفكار الخلاّقة. مع أنه يكون في العمر الذي ينكفىء فيه معظم الناس - أو قبله - إلى التخلي عن نشاطهم الوظيفي، والاكتفاء بعمل أقل إرهاقاً وأكثر راحة. والسبب يعود إلى أن السلطة ومسؤوليات الحكم تنشط الخلايا وتحفز الجسم وتقوي الأعصاب. وتدليلاً على ذلك، فإن أي زعيم سياسي يكون خارج السلطة متعباً ومريضاً، لكنه ما أن ينتخب أو يُدعى لتولي الحكم، حتى تغادره الأمراض ويدب النشاط في أوصاله. بالمقابل، فإن كثيراً ما يكون السياسي معافى في الحكم، وعندما يسقط من السلطة لسبب أو لآخر، يجد أن جميع الأمراض والأوجاع قد حلّت به عند مغادرته الكرسي.

ويتساءل الكثير من المواطنين في الديموقراطيات، لماذا لا يطالب الناخبون أن يستقيل ممثلوهم أو زعماؤهم من السلطة عندما يصلون

إلى سن معينة. الجواب (الذي ربما وضعه السياسيون المسنون أنفسهم) أن الزعماء المسنين يملكون خميرة خاصة من الحكمة تصلح للحكم وقادرة على القيادة. وهي خميرة تختلف عن التي يجب أن تتوافر في جراح أعصاب أو في طيار أو عالم فيزيائي. فمواصفات الزعامة لا علاقة لها بالسن، كما لغيرها من المهن أو الوظائف. أما الحكمة فمصدرها أنهم عركوا الحياة العامة وعرفوا الناس بطرق مختلفة وتعلموا من الدروس، أكثر مما يمكن أن يتوافر للفرد العادي. وكما يقول شكسبير في مسرحية «الملك لير» أن الملك عندما يصل إلى عمر معين بعد سنين طويلة في الحكم، يشعر بأنه أقرب إلى الله من غيره من العباد الصالحين، فلا يرى نفسه عارياً أبداً.

□ □ □

وكلمة مُسِن تعني فوق السبعين إذا كان المرء في صحة معتلة، وفوق الخامسة والسبعين إذا كان بصحة جيدة. أما عندما يصل إلى الثمانين، فسيكون معرضاً أكثر إلى نوبات نفسية وعصبية، من نزق وغضب وأمراض أخرى، قد تقوده ـ ومعه البلاد ـ إلى قرارات كارثية. أما في شؤون الدين فنجد أن رجال الدين، أصحاب السلطة العليا من مختلف الأديان، هم دائماً رجال مسنون. وبنظرة سريعة على مناصب الإفتاء والمشيخة والقضاء في الإسلام، ومن مختلف الطوائف والملل، نرى عدداً كبيراً من الرجال المسنين.

والكنيسة الكاثوليكية مثال فادح على ذلك. فهي دائماً تنتخب كاردينالاً مسناً لمنصب البابوية، في الوقت الذي يشكل الكرادلة «مجلس شيوخ» من الأساقفة المسنين. فالبابا أغاثون كان عمره ١٠٣ سنين عندما انتخب بابا وأسقف روما في العام ٦٧٨. والبابا

سيلستين الثالث مات أثناء حصار روما في العام ١١٩٨ وله من العمر ٩٢ سنة. أما البابا ليو الثالث عشر فمات بعد سبعة قرون من ليو الثالث، وله من العمر أيضاً ٩٣ سنة. ويبدو أن هناك تحالفاً بين رجال الدين والله في ما يتعلق بالسن. وكما كان الأقدمون يبالغون بأعمار الآلهة والكهنة حتى تصل إلى مئات السنين، نجد في العصر الحاضر أن سن الزعماء من رجال الدين تقارب منتصف السبعين. فآية الله خميني، زعيم الثورة الإسلامية في إيران، وصل إلى الحكم وهو في الثامنة والسبعين من العمر، وكانت سلطته كولي للفقيه، مدى الحياة. وأكثر الزعماء المسنين في هذا القرن، كانوا بعيدين عن الله، لأنهم كانوا من داخل النظام المعادي لله، وهو النظام الشيوعي.

□ □ □

في الاتحاد السوفياتي، قبل وفاة زعيم الحزب الشيوعي يوري أندروبوف في العام ١٩٨٤، كان ستة من أصل أحد عشر عضواً في المكتب السياسي للحزب، فوق السبعين من العمر. وواحد فقط، هو ميخائيل غورباتشوف، كان دون الستين منه. أما زعامات الدول الشيوعية الأقل أهمية، فقد كان مثالها الأعلى كيم إيل سونغ، زعيم كوريا الشمالية «المحبوب من ٤٠ مليون كوري»، وهي الصفة الملاصقة للقبه، وقد كان عمره في ذلك الوقت ٩٢ سنة. ناهيك عن زعماء فيتنام وكمبوديا ولاوس، فكلهم «فوق السن القانونية». حتى فيديل كاسترو، زعيم كوبا، زاد عمره على السبعين سنة. وعندما انهارت دول أوروبا الشيوعية في العام ١٩٨٩، كان معدل أعمار زعمائها ٧٦ سنة، وقد استمروا في حكم البلاد حوالى ٢٧ سنة. وهذه الأرقام، لا تعني استقرار الأنظمة في تلك البلدان، إنما تعني عقم وجمود تلك الأنظمة الشيوعية.

إن ضعف الأنظمة السياسية التي يحكمها رجال مسنون، كان صارخاً في الاتحاد السوفياتي أكثر من أي بلد آخر، فعندما مات ليونيد بريجنيف زعيم الحزب الشيوعي في موسكو وهو في الخامسة والسبعين في العام ١٩٨٢، وكان انتخب لهذا المنصب في العام ١٩٦٤، وهو في العقد الأول لحكمه، كان زعيماً نشيطاً وحيوياً، وتحول في العقد الأخير من حياته إلى رجل مريض دائماً منذ أن أصيب بنوبات قلبية بين العامين ١٩٧٥ و١٩٧٧. فأصبح كلامه بطيئاً، ويداه تهتزان، صارفاً معظم وقته في مصحات «سرية» مختلفة، كما فعل يلتسين بعده. حتى إن يلتسين قال عن بريجنيف «في سنواته الأخيرة، لم يكن يعرف ماذا يفعل، أو ماذا يوقع. فكل السلطة كانت في أيدي المحيطين به من معاونيه» - ثم صارت هذه هي حال يلتسين أيضاً ـ. ولم يقدر سوى الموت أن يزيل بريجنيف من الكرملين.

أندروبوف، عيّن زعيماً للحزب الشيوعي السوفياتي في تشرين الثاني ١٩٨٢، وكان له من العمر ٦٨ سنة. وبدا في حينه وكأنه شاب، بالمقارنة مع من سبقه من زعماء. واتضح فيما بعد أنه مصابٌ بمرض خطير في الكلى. ومات خلال ١٥ شهراً من توليه السلطة، قضى من أصلها ستة أشهر في المستشفى. بعده انتخب المكتب السياسي قسطنطين تشيرننكو، وعمره ٧٢ سنة، وهو كان الأصغر سناً من معظم أعضاء المكتب السياسي، لكنه كان مريضاً. كان أصغر من أندريه غروميكو (٧٣ سنة) وديمتري يوستنوف (٧٤ سنة) ونيقولاي تيكونوف.

وكان تشيرننكو غير قادر حتى على تحية العروض العسكرية، أو إلقاء خطابات. ففي آذار ١٩٨٤ ألقى خطاباً عاماً في السياسة

الخارجية، لم يستطع أن يقرأه، قافزاً فوق صفحتين أساسيتين تحتويان على لب الرأي السياسي الذي يقصده الخطاب. ولم ينتبه تشيرننكو لذلك ولا المستمعون، ما عدا المستشارين الذين أعدوا الخطاب. كذلك فعل في خطاب مماثل في حزيران من العام نفسه أمام اللجنة المركزية. حتى استقر الرأي أن تُقرأ الخطابات بالنيابة عنه. إلى أن مات في آذار ١٩٨٥. عندئذٍ فقط، وبعد ثلاث جنازات رسمية خلال ثلاثين شهراً، قرر المكتب السياسي أن ينقل السلطة إلى زعماء شباب، فجاء غورباتشوف.

□ □ □

أما الحزب الشيوعي الصيني، الذي كان أقل علنية وشفافية من الحزب الشيوعي السوفياتي، فقد استطاع أن يخفي مرض زعيمه ماوتسي تونغ الذي كان قليل الظهور إلى درجة التخفي، بالمقارنة مع بريجنيف. في العام ١٩٧٤، كان ماوتسي تونغ في الثمانين من عمره يعاني من مرض القلب وداء باركينسون، ضمن أمراض أخرى يصعب حصرها. وكان لا يستطيع الكلام بوضوح أو المشي أكثر من بضع خطوات أو حتى إطعام نفسه. على الرغم من ذلك منع حكومة الصين من أن تتخذ أي قرار من دونه. فكان يدير أمور الدولة من فراش المرض وهو يمضغ أوراق الشاي الأخضر.

وانهارت البلاد من حوله في فوضى لم تعرفها الصين من قبل، كما لم تخرج منها إلاّ في العام ١٩٧٨، بعد سنتين من موته، عند وصول دينغ زياو بينغ، وله من العمر ٧٤ سنة، إلى السلطة. وحكم دينغ الصين حتى بلغ ما يزيد على التسعين من عمره. واستطاع دينغ أن يفرض إصلاحاته على الصين، ونال قصب السبق كأكبر حاكم سناً استمر في السلطة. وغيرت الصين مجراها من ماو إلى دينغ،

لتدخل العصر الحديث. ويذكر المؤرخون المعاصرون، أن زعماء الحزب الشيوعي الصيني الذين اجتمعوا سراً في أيار ١٩٨٩ ليخططوا للهجوم على ساحة تينانمن في بيجينغ (بكين) في ٤ حزيران من تلك السنة، بهدف القضاء على حركة الطلاب الديموقراطية، كان معدل أعمارهم ٧٥ سنة.

لكن يبدو أن صاحب التاريخ الأطول للبقاء في الحكم، كان الزعيم الأفريقي فيليكس هوفيه ـ بوانيه، الذي توفي في كانون الأول ١٩٩٣، بعد ٣٣ سنة كرئيس لدولة ساحل العاج. وهي دولة أفريقية ليست ديموقراطية ولا شيوعية. وكان عمره الرسمي المعلن ٨٨ سنة، لكن عمره الحقيقي كان أكبر بسبع سنين.

من السهل ومن الصحيح القول، إن الأنظمة الشيوعية بحكم بنيتها الديكتاتورية الداخلية، كانت تفرز حكاماً مسنين. لأنها ككل الديكتاتوريات، ليس فيها للناس قول في حاكمهم. إذ إن مؤسسات الحكم نفسها تجعل ذلك ممكناً ومتاحاً. فما أن يتولى الزعيم الحكم ويستولي على مفاتيح السلطة ويبدأ يكبر في السن، حتى تنمو حوله طبقة طفيلية من الأعوان والمستشارين، تصبح مصلحتها وحاجتها في الإبقاء عليه ـ مهما كانت ظروفه أو ظروف البلاد ـ حتى الرمق الأخير. فماوتسي تونغ أبقي حياً بالإكراه وتحت عذاب شديد، كما يروي مؤلف سيرته هاريسون سالزبوري، حتى مات، ليحتفظ المحيطون بسريره بسلطتهم حتى اللحظة الأخيرة. فالشرعية ـ شرعية الحكم والنظام ـ تأتي من الزعيم ما دام حياً.

□ □ □

ولم يكن ذلك الموقف أو تلك السياسة، حكراً على الأنظمة الشيوعية. فالأنظمة الفاشية، ممثلة في شبه جزيرة إيبيريا بالبرتغال وإسبانيا كانت كذلك. فقد كان ديكتاتور البرتغال أنطونيو سالازار الذي أقصي عن الحكم في العام ١٩٦٨ بانقلاب عسكري وله من العمر ٦٩ سنة، وديكتاتور إسبانيا فرانكو الذي تولى منصبه وله من العمر ٨٢ سنة، مثالين يمكن أن يتكررا لو انتصرت الأنظمة الفاشية بعد الحرب العالمية الثانية، كإيطاليا موسوليني وألمانيا هتلر.

كان الجنرال فرنسيسكو فرانكو، ديكتاتور إسبانيا لحوالى نصف قرن، يحب المراهنات على مباريات كرة القدم. وقد ربح ورقة يانصيب في أيار ١٩٦٧، بقيمة مليون بيسيتا (١٧ ألف دولار). وكان يتابع سحب اليانصيب مع مباريات الكرة من مجموعة تليفزيونات وزعها على مداخل وحجرات وغرف قصر الرئاسة (البادرو) حتى أثناء اجتماعات مجلس الوزراء. وعندما أصيب بالمرض وأصبح يضعف تدريجياً ويغيب بين فترة وأخرى عن الوعي، أخذ ينسى أسماء ووجوه وزرائه مطلقاً على بعضهم أسماء أندية كرة القدم الإسبانية. ويقول بول برستون، مؤلف كتاب سيرة فرانكو، أن مساعديه من وزراء ومستشارين، ظلوا يتصرفون وكأن فرانكو ما زال مسيطراً على مقاليد السلطة «خوفاً من خسارة مناصبهم في حال أي تغيير في بنية الخلافة». وكانوا يبررون ذلك، على أساس أن «القائد» يكون واعياً لساعات محدودة ومعينة في اليوم، وفي هذا ما يكفي لممارسة الحكم.

ومع أن الأنظمة الفاشية والنازية لم تعش طويلاً، علينا أن نتذكر أن زعيمين لعبا دوراً مؤيداً لهذه الأنظمة، هما الرئيس الألماني قبل الحرب العالمية الثانية والذي أوصل هتلر إلى الحكم، المارشال بول

فون هايندنبورغ، والمارشال فيليب بيتان رئيس فرنسا الذي تعاون مع الحكم النازي تحت ستار القومية الفرنسية. كان هايندنبورغ في الخامسة والثمانين من عمره، وقد قال عنه مستشار النمسا أوتو براون إنه كان يحار بين أن يشفق عليه لخرفه أو يتعاطف معه ـ لكن بغضب ـ لأنه عجوز طيب.

كذلك كانت المشاعر مماثلة في فرنسا حول المارشال بيتان، فتراوحت بين الشفقة والغضب. ولم يكن بيتان قد بلغ مرحلة الخرف في العام ١٩٤٠، عندما انتخبه البرلمان الفرنسي لمنصب رئاسة الجمهورية وله من العمر أربعة وثمانون عاماً. ولكن عند محاكمته بتهمة الخيانة لتعاونه مع النازية في العام ١٩٤٥، كان قد بلغ التاسعة والثمانين، وبلغ به الخرف مداه. وهكذا فإن التعصب الوطني كان يتجاوز العراقيل وامتحانات الأهلية لإيصال هذين الزعيمين إلى الحكم.

□ □ □

حتى جاءت الأنظمة الديموقراطية، فاختارت رجالاً وسطاً، تتراوح أعمارهم بين الأربعين والسبعين، من مثل: لوران فابيوس الذي اختير رئيساً لوزراء فرنسا وله ٣٧ سنة من العمر في العام ١٩٨٤. وكان أصغر رئيس حكومة أوروبية في حينه. وكان ذلك عائداً لاختيار رئيس جمهورية فرنسا في ذلك الوقت فرنسوا متيران، لا للناخبين الفرنسيين. ولومار بولاك رئيس وزراء بولندا، كان عمره ٣٤ سنة، عندما اختاره أيضاً رئيس البلاد فاليسا. إن ذلك الميل لاختيار الشباب جاء بعد سنين طويلة من حكم المسنين في أوروبا ـ الشرقية والغربية معاً. صحيح أن رؤساء الوزراء المذكورين كانوا

معينين، إلاّ أن علينا أن نذكر أن الشعوب في الديموقراطيات كانت تنتخب بحريتها المطلقة، المسنين.

لقد أعادت بريطانيا انتخاب ونستون تشرشل رئيساً للوزراء للمرة الثانية في العام ١٩٥١، وله من العمر ٧٧ سنة، بعد ست سنوات أمضاها في المعارضة. وانتخبت الولايات المتحدة رونالد ريغان رئيساً للجمهورية في العام ١٩٨٠ وله من العمر ٦٩ سنة، وقد أعيد انتخابه للمرة الثانية لمدة أربع سنوات في العام ١٩٨٤. فرنسوا ميتران رئيس جمهورية فرنسا الذي انتخب في العام ١٩٨١ وله ٦٤ سنة، أعيد انتخابه لمدة سبع أخرى في العام ١٩٨٨. وظل في الحكم حتى بلغ ٧٨ سنة، قبل وفاته. أندرياس باباندريو، أعيد انتخابه رئيساً لوزراء اليونان في العام ١٩٨٤، وعمره ٧٤ سنة، بعد أربع سنوات من سقوط حكومته السابقة.

بين كل هؤلاء الرؤساء المسنين في الديموقراطيات الغربية، كان الرئيس فرنسوا ميتران أكثرهم حيوية، إلى أن أصابه سرطان البروستات في العام ١٩٩٢. بينما كان تشرشل في سنواته الأخيرة وهو ما زال رئيساً للوزراء، حسب وصف طبيبه اللورد موران، عبارة عن «كتاب في علم الباثولوجيا لكثرة ما عنده من أمراض». أما ريغان فكان أكثر الرؤساء شعبية في العالم الغربي، لأن الناخبين الأميركيين أرادوا رئيساً بمواصفاته، عندما كان يعمل على التخفيف من ثقل ظل الحكومة المركزية على المواطنين، ويعرف كيف يتحدث إلى الناس ويشرح سياسة إدارته بكلمات مبسطة. فالتبسيط السياسي كان أحد المفاتيح السحرية لديه. ولعل وصفه للاتحاد السوفياتي بأنه «أمبراطورية الشر» قد قرّب الصراع الأميركي ـ السوفياتي والرأسمالي ـ الشيوعي من رجل الشارع الأميركي.

وهكذا عندما تكون شهية السياسي مفتوحة على السلطة، فإن وضعه الصحي سيكون من آخر همومه.

□ □ □

كل ذلك يعود بنا إلى أن بوريس يلتسين، رئيس عموم الروسيا، رجل مريض (احتفل بعيد ميلاده الثامن والستين في شباط ١٩٩٩، وهو في المصح بعيداً عن الكرملين). لا أحد ينفي ذلك. فالمناظر التليفزيونية ليلتسين داخلاً إلى مصح وخارجاً من مستشفى، أصبحت، في آخر عهده، من المناظر الإخبارية التي اعتاد عليها متابعو الأخبار العالمية ومشاهدو المحطات الفضائية. فأمراضه تنوعت، واجتهادات الأطباء وتشخيصهم قد شمل مساحة واسعة من العلوم الطبية حتى عصي الداء على الدواء. وأمراض يلتسين لم تكن تعني الرئيس الروسي وحده - وهو أول رئيس منتخب من الشعب مباشرة في تاريخ روسيا كله - بل العالم بأسره.

فتاريخ الكرملين، من أيام القياصرة الملكيين إلى القياصرة البلاشفة في عهد الاتحاد السوفياتي، كما أسلفنا، حافل بهذا النوع من الزعماء المرضى. وكان هذا الوضع وما زال يناسب الحاشية المحيطة بأي قيصر في الكرملين. لأنه مادام قادراً على التوقيع، فمن مصلحة الحاشية أن تبقيه حياً، ولو محنطاً. فالمراسيم والوثائق التي تحمل تواقيع الرؤساء المرضى، بما في ذلك وثائق إعلان الحرب، لها الفاعلية نفسها التي تحملها مراسيم الرؤساء الأصحاء. وكلما ازداد مرض الزعماء وقل استيعابهم وفهمهم للوثائق التي تعرض عليهم للمصادقة، ازدادت رغبتهم بالتوقيع من دون تردد على ما يمكن أن يترددوا بالموافقة عليه أو برفضه لو كانوا بكامل وعيهم الصحي. والحاشية في أي بلاط، عادة ما ترحب بذلك. وكلما طال مرض

الزعيم، كلما استمرت الحاشية في السلطة. وكلما تطلع المواطن إلى البديل الأسوأ للزعيم المريض، كلما تعلقوا ببقايا الحياة فيه. هكذا صار الوضع في روسيا عندما بدت البدائل لبوريس يلتسين كلها أسوأ منه، فتمسك أهل الكرملين بالقيصر الذي يعرفونه، خوفاً من القيصر الذي يجهلون.

هذه المعادلة، تبدو وكأنها لم تعد تصلح لروسيا، فتراكم مجموعة أزمات أو أحداث سياسية، منذ وقبل وبعد مرض يلتسين (قبل استقالته)، قد أكد لمعظم المراقبين للشؤون الروسية، أن البلاد تحتاج إلى يدين قويتين لا تهتزان وهما تمسكان وتديران دفة الحكم في روسيا ما بعد سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفياتي وأمبراطوريته. في حال يلتسين فإن هذه الحسابات لم تعد دقيقة تماماً. فالانهيارات السياسية في داخل روسيا، بدأت تحمل عناوين عريضة، تتصدرها محاربة التيارات الديموقراطية.

وكان اغتيال غالينا ستاروفويتوفا، السياسية الليبيرالية التي علّمت يلتسين معنى الديموقراطية في مواقفها المبدئية كنائبة في «الدوما» (مجلس النواب). هذا الاغتيال الذي وقع في تشرين الثاني ١٩٩٨، من قبل عناصر لم يكشف عنها النقاب حتى الآن، والذي هزّ الحياة السياسية والاجتماعية في روسيا كلها، كان مؤشراً إلى أن الوضع لم يعد يطاق. كذلك فإن الشيوعيين المسيطرين بأكثريتهم على «الدوما»، رفضوا أن يدينوا مجموعة من رفاقهم أصحاب المواقف العلنية المعادية للسامية المتزايدة يوماً بعد يوم. كذلك كان هناك ازدياد للشوفينية الروسية وللدعوات الفاشية داخل عدد من الأحزاب والتجمعات السياسية، ما دفع يلتسين إلى زجرها علناً. كل ذلك، وسط الوضع الاقتصادي السيىء، والتردي

النقدي وانحدار الصناعة إلى أسفل، جعل المطالبة برجل قوي صحيح العافية وسليم الفكر وقادر على الوقوف على قدميه دون مساعدة، حاجة وطنية لم يعد من الممكن تأجيلها.

□ □ □

نعود إلى مرض الرئيس يلتسين، الذي عاد للمرة العاشرة ربما، ودخل المستشفى من جديد، لنقول أن هرم الرؤساء، الذي يوافق هرم هذا القرن ليس كهرم الرجال العاديين. ولأن ذلك كذلك، فإنه يحيلنا على دائرة أكبر من محدودية المرء ـ الإنسان العادي وشؤونه وشجونه. فيتحول الرئيس إلى رمز، بحيث يغادر كونه كائناً ناطقاً مائتاً فقط، وترتبط حركته بحركة مؤسسات الحكم والدولة، وهي حركة بطيئة عموماً وتتعلق طرداً وعكساً بحجم كل بلد ودوره.

من هنا فإن تلك المؤسسات وقد بذلت وقتاً كبيراً في استيعاب حاكم جديد، كان عليها أن تبذل وقتاً أكبر لوداع هذا الحاكم. والتغيير في أي أمر من الأمور ليس سهلاً، فالناس أبناء العادة وهم يبذلون جهوداً كبيرة لكي يتعودوا، وما أن يتعودوا حتى يألفوا، وما أن يألفوا حتى يصبح من العسير عليهم أن يغيروا، وهكذا. غير أن محمد بن الوليد الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك» يعطي للحاكم والسلطان بعداً أكبر حينما يقول:

> «ولا يتمنى زوال السلطان إلا جاهل مغرور أو فاسق يتمنى كل محذور. وهموم الناس صغار وهموم الملوك كبار. وألباب الملوك مشغولة بكل شيء وألباب السوقة مشغولة بأيسر شيء. والجاهل يعذر نفسه ولا يعذر السلطان(...) وظلم ستين سنة خير من فوضى سنة».

إذاً المُلك عقيم وحاكم في اليد خير من عشرة على الشجرة!

٢ ـ البلقان

أيام الحصاد في كوسوفو

■ «انظروا إلى الفرنج! انظروا بأية ضراوة يقاتلون في سبيل دينهم، في حين لا نبدي نحن المسلمين أية حمية للجهاد في سبيل الله.»□

صلاح الدين الأيوبي

«الكامل في التاريخ» لابن الأثير

من الأقوال المتداولة عن يوغوسلافيا، قول إيطالي مأثور: «إن يوغوسلافيا تتألف من ست جمهوريات، وخمس إثنيات، وأربع لغات، وثلاث ديانات، وأبجديتين، وتيتو واحد»!

وبرحيل الماريشال تيتو، رحلت يوغوسلافيا معه، وانقسمت الجمهوريات وتمزقت. وتصارعت الإثنيات واللغات والأديان والأبجديات. ولم يعد هناك اليوم من تيتو ما، يجمعها. إن حرب الصرب بدأت في اليوم الذي مات فيه تيتو من العام ١٩٨٠. فأي مصير يا ترى كان ينتظر بلاداً وحّدها بالقوة؟ لقد انتفضت من بعده في سلسلة حروب دموية على إرثه الوطني ومفهومه السياسي بعد أن جعل منها دولة نادرة في أوروبا في حيادها بين المعسكرين الشرقي والغربي، إبان أقسى أيام الحرب الباردة، وزعيمة لكتلة عدم الانحياز مع رفيقيه جمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو، عندما كان الحياد الإيجابي كلمة لها معناها.

وعلى الرغم من اتساع المأساة الإنسانية يوماً بعد يوم، لحرب خاسرة ومدمّرة للطرف الجاني والطرف المجني عليه، فلا حدود يمكن أن تقف عندها حرب الصرب والألبان في كوسوفو، كذلك حرب دول الأطلسي في صربيا وتوابعها. هذه هي حال البلقان، بلداناً وشعوباً وتاريخاً. وليس هناك منطقة في أوروبا مسكونة بالحروب، قدر هذا الشريط الممتد من الأناضول إلى جزر اليونان إلى ألبانيا وبلغاريا والمجر وبعض رومانيا، بالطبع إلى جانب يوغوسلافيا القديمة وجمهورياتها الست. وليس هناك من منطقة تعشش فيها ذكريات المعارك وتواريخ الحروب، من حروب الفتوحات والتوسع العثماني حتى الحرب العالمية الأولى وما تبعها من حروب الشعوب الصغيرة الطامحة إلى الاستقلال، حتى ذكريات المعارك الكبرى أكانت معركة كوسوفو بوليي قبل ستمئة سنة بين العثمانيين والصرب، أو معركة غاليبولي قبل ثمانين سنة، بين الأتراك والحلفاء الغربيين وعلى رأسهم بريطانيا.

والبلقان برميل بارود دائم، ينفجر باستمرار عند أول احتكاك به. هذا هو تاريخ بلدانه وهذه هي مأساتها، زادها موزاييك خليط شعوبها من مختلف القوميات والإثنيات واللغات والأديان، جعلها قابلة دائماً للتفتت والانقسام، حتى أصبحت لفظة «بلقنة»، بكل اللغات، تعني احتمالات تقسيم البلد الواحد، أو الشعب الواحد، إلى فئات ووحدات أصغر فأصغر. والبلقنة كلمة عكس الوحدة، وهي تعني تحديداً التجزئة للشعب أو للبلد، حسب القومية أو الدين أو اللغة أو العرق. وعند السنة الأخيرة من نهاية القرن العشرين، عادت «البلقنة» إلى مسقط رأسها لتفعل فعلها في بلدانها وليتطابق الاسم مع المسمّى كما كان ذلك في السنوات الأولى في مطلع

القرن الماضي. والبلقان، كمكان، اسم له وقع السحر، لكن ما العمل إذا كان السحر عاد وانقلب على الساحر!

□ □ □

وإذا كان لا بد من بداية للحرب في البلقان، التي تهدد بإعلان أو من غير إعلان، بحرب عالمية ثالثة، فلتكن هذه البداية من التاريخ نفسه الذي وقع أسيراً في قبضة الصرب منذ أكثر من ستة قرون، ولم يعرف الفكاك منهم حتى الآن.

يقول التاريخ إن للصرب حكاية تغوص في غياهب الماضي السحيق وتعود إلى أكثر من ستمئة سنة. هذه الحكاية هي المنطلق وهي المنتهى لمدى تعلق الصرب بإقليم كوسوفو. فجموح الحماسة والعاطفة الصربية يعود تحديداً إلى ٢٨ حزيران ١٣٨٩، وهو اليوم الذي هُزم فيه آخر حكام الصرب في القرون الوسطى، القيصر لازار، في معركة ضد الأتراك العثمانيين، خسر فيها سيطرته على كوسوفو، في سهل كوسوفو بوليي، وعاصمته بريشتينا، والذي يقع في جنوب يوغوسلافيا (القديمة) بين بلغاريا وألبانيا واليونان. ومنذ ذلك الوقت، وقعت كوسوفو تحت سيطرة الأتراك، وأصبحت جزءاً من الأمبراطورية العثمانية في حروبها التوسعية في أوروبا. وكانت هذه المعركة فاتحة للوجود التركي ـ العثماني في البلقان الذي استمر خمسمئة سنة.

تبدأ هذه الحكاية في العام ١٣٨٧، عندما قرر الصرب محاربة التوسع العثماني في البلقان، مستغلين وجود عدد من قواد السلطنة، وعلى رأسهم الوزير علي باشا، في الأناضول. فشن الصرب هجوماً على الجيوش العثمانية، انتصر فيه الصرب أولاً. وكان ذلك في

العام ١٣٨٧. في هذا الوقت كان سيسمان قرال أمير البلغار (وقرال كلمة تركية معناها أمير أو ملك) يتأهب للانضمام إلى لازار، قيصر الصرب عندما فاجأ الوزير علي باشا جيوش البلغار واحتل بلدتي تورنوفو (شرق بلغاريا) وشومن (شمال شرق بلغاريا). واسمهما بالتركية: ترنوه وشومله. ففر سيسمان ولجأ إلى مدينة نيكوبول محتمياً فيها من العساكر العثمانية. (نيكوبول هي نيكوبولس باللاتينية ومعناها مدينة النصر، أسسها الأمبراطور الروماني تراجانوس، وتقع في شمال بلغاريا على حدود رومانيا، واسمها بالتركية نيكوبلي).

في العام ١٣٨٨ جمع سيسمان شمل جيوشه، أو ما تبقى منها، داخل هذه المدينة، ليحارب العثمانيين مرة ثانية، فخرج من نيكوبول وهاجم الجيوش التركية، «مهاجمة يائس»، حسب وصف المصادر التركية، فانهزم هزيمة نكراء ووقع أسيراً بيد العثمانيين. فضم السلطان مراد نصف بلغاريا إليه، ولم يأمر بقتله، بل أبقاه حياً ورتب له معاشاً يتناسب مع مقامه السابق، وعيَّنه في العام ١٣٨٩ حاكماً شبه مستقل على النصف الباقي من بلغاريا.

لما علم لازار، قيصر الصرب، بهزيمة رفيقه أمير البلغار، وانخذاله أمام السلطان مراد، قرر أن يشن هجوماً على العثمانيين. فمال بجيوشه قليلاً نحو الغرب محاولاً الانضمام والتحالف مع أمراء ألبانيا الأرناؤوط. (الأرناؤوط الاسم الذي يطلق على الألبان الذين يسكنون بلاد الشام). لكن السلطان مراد، لم يمكنه من ذلك، فلحقه بجيوشه إلى سهل كوسوفو بوليي (بالتركية: قوص أوه، وقوص تعني كبير أو واسع، وأوه معناها السهل) في العام ١٣٨٩. ونشب قتال ضارٍ بين الجيشين «يشيب من هوله الولدان ـ دافع

خلاله الصربيون دفاع الأبطال» ـ حسب الوصف التركي للمعركة ـ وبقيت الحرب بينهما سجالاً مدة من الزمن، ذهب خلالها ضحايا عديدة، «تناثرت فيها الرؤوس وزهقت النفوس».

في هذه الأثناء فرّ صهر القيصر لازار المدعو فوك برانكوفتش، ومعه عشرة آلاف فارس من الصرب ملتحقاً بجيش العثمانيين. فدارت الدائرة على الصربيين وجرح لازار في المعركة، ووقع أسيراً في أيدي العثمانيين فقتلوه. وكان ذلك في ٢٨ حزيران ١٣٨٩. وظل هذا اليوم محفوراً في ذاكرة الصرب إلى الأبد. وبهذه الواقعة المهمة التي هزمت أوروبا وبقي ذكرها ذائعاً في عموم بلاد البلقان، زال استقلال الصرب، كما فقدت من قبل بلغاريا استقلالها، وكما ستفقد اليونان من بعد ذلك استقلالها.

في نهاية هذه المعركة، وبعد أن تحقق النصر النهائي للأتراك العثمانيين، أراد السلطان مراد أن يتفقد أرض المعركة. فبينما كان يمر بين القتلى والجرحى، قام من بينهم جندي صربي اسمه ميلوك كوبلوفتش، وطعن السلطان مراد بخنجر طعنة كانت هي القاضية عليه. فما كان من جنود الإنكشارية إلّا أن مزقوا بسيوفهم كوبلوفتش، فسقط القاتل قتيلاً. وكان مقتل السلطان مراد بعد مقتل القيصر لازار، علامة تاريخية فارقة في هذه المعركة. فقد قتل في ٨ تشرين الأول ١٣٨٩، وله من العمر خمس وستون سنة، حكم منها ثلاثين سنة، ونقلت جثته إلى مدينة بورصة ودفن فيها[1].

□ □ □

بسقوط الأمبراطورية العثمانية في مطلع القرن العشرين، بدأ

الصرب يعودون تدريجياً إلى كوسوفو ويقيمون هناك. في العام ١٩١٢، سيطر الصرب على كوسوفو، مستغلين ثورة الألبان على حكم باشوات الأتراك المسيطرين على الإقليم. وعند نهاية الحرب العالمية الأولى، منح الحلفاء الصرب إقليم كوسوفو مكافأة على مقاومتهم للألمان والنمسويين. وبموجب معاهدة فرساي، أعطي الشعب الصربي السيطرة في مملكة تضم الصرب إلى جانب الكروات والسلوفين (التي أصبحت لاحقاً يوغوسلافيا). واعترفت معاهدة فرساي رسمياً بضم كوسوفو إلى صربيا. لكن التوتر استمر في مملكة صربيا بين مختلف إثنيات شعوبها، حتى وقعت الحرب العالمية الثانية، عندما غزا هتلر يوغوسلافيا، فوجد فيها أرضاً خصبة للانقسام وشعوباً قابلة للتعاون معه، وخاصة بين الكروات. فأسس حكومة متعاونة في كرواتيا تابعة له، قامت بمهام السياسة النازية في البلقان.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، استطاع الكرواتي جوزب بروز تيتو أن يعيد توحيد يوغوسلافيا، وأصبح شخصه هو المفتاح للتسوية السلمية في البلقان. وكان تيتو بمساعدة الحلفاء، هو الذي قاد المقاومة الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية في يوغوسلافيا، فطرد أولاً الألمان النازيين من البلاد، ثم هزم الكروات الفاشيين، وبعدها هزم الصرب الملكيين. وقد تحقق ذلك كله بحروب محلية طاحنة. وتمّ بذلك توحيد يوغوسلافيا. وفي السنوات التي تلت، حوّل تيتو مملكة الصرب التي ورثها بعد المقاومة إلى ست جمهوريات فيديرالية: سلوفينيا، كرواتيا، البوسنة ـ الهرسك، صربيا، الجبل الأسود، ومقدونيا. وعند التأسيس، ظلت كوسوفو جزءاً من صربيا، لكن في العام ١٩٧٤ تحت ضغط من الأكثرية الألبانية

(تسعون بالمئة من السكان)، أعطى تيتو الألبان نوعاً من الحكم الذاتي، بمنح كوسوفو رتبة إقليم مستقل داخلياً. وكما كان متوقعاً، أثار عمل تيتو هذا غضب الصرب.

□ □ □

لقد استطاع تيتو أن يضبط المشكلة الإثنية في بلاده، ولكنه لم يستطع أن يحلها. وطوال الثمانينيات أخذت قصص معاناة الصرب على أيدي الألبان في كوسوفو تتداول في بلغراد، والفظائع التي ترتكب بحقهم هناك. حتى جاء العام ١٩٨٧، ووقف الزعيم الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش ليعلن في حشد من صرب كوسوفو الغاضبين في بلغراد «أن يوغوسلافيا لا وجود لها من دون كوسوفو». وكانت بداية المأساة التي تعيشها بلاده اليوم. بعد ذلك بسنتين، ألغى ميلوسوفيتش قرار تيتو باستقلال كوسوفو الإقليمي وحلّ حكومتها المحلية. وبدأ ببناء دولة بوليسية تقوم على أسس عرقية وإثنية على طريقة التمييز العنصري في جنوب أفريقيا. فألغى تعليم اللغة الألبانية في المدارس والدوائر الرسمية وأرسل قوات عسكرية صربية للسيطرة على الإقليم. وردّ الألبان بإعلان الاستقلال وإقامة جمهورية موازية لدول يوغوسلافيا الأخرى، كذلك أعلنوا عن دستور جديد، وأجروا انتخابات في الإقليم العام ١٩٩٢.

بعد ذلك بسنة تقريباً، كان الصرب مشغولين بمحاربة الكروات والبوسنيين. في الوقت نفسه كان ألبان كوسوفو بقيادة الزعيم المعتدل إبراهيم روغوفا، يأملون بالحصول على استقلال ذاتي بالطرق السلمية. لكن بعد تدخل حلف الأطلسي في العام ١٩٩٥، واتفاق دايتون للسلام قد قسّم البوسنة، واعترف بحدود

صربيا (المتضمنة كوسوفو) وحدود الجبل الأسود كيوغوسلافيا الجديدة، تغيّر موقف الكوسوفار (نسبة إلى كوسوفو) وتحول موقفهم المؤيد للألبان المعتدلين، إلى مجموعة جانبية اعتبرت متطرفة (جيش تحرير كوسوفو .K.L.A) حيث دعت إلى إعلان مقاومة مسلحة في الإقليم، حتى يتم منحها الاستقلال. وليس هناك اتفاق بين الأطراف الألبانية في كوسوفو، ينص على مدى نسبة وحدود هذا الاستقلال المُرتجى.

واستطاع جيش تحرير كوسوفو أن يحقق بعض النجاحات في داخل الإقليم، حتى آب ١٩٩٨، حين قرر ميلوسوفيتش الرد على هجمات جيش التحرير، باتباع سياسة «الأرض المحروقة»، باقتلاع الألبان في كوسوفو من جذورهم في عمليات تطهير عرقية واضحة. بعد ذلك بشهر أصدر مجلس الأمن الدولي في أيلول ١٩٩٨ قراراً بوقف القتال في كوسوفو منذراً يوغوسلافيا بعقوبات شديدة إذا رفضت الانصياع إلى قرارات الأمم المتحدة. وانصاع ميلوسوفيتش في البداية وقبِل بسحب قواته من كوسوفو، كما قبِل بوجود مراقبين دوليين في الإقليم. لكن سرعان ما اندلع القتال مجدداً خلال مدة قصيرة جداً، مما دفع بالأوروبيين إلى الدعوة لمحادثات رامبوييه في ضواحي باريس، حيث لعب الصرب لعبة الشد والرخي، حتى انهارت المحادثات نهائياً. مما أدى إلى تنفيذ حلف الأطلسي تهديداته بقصف يوغوسلافيا. ومن هناك فصاعداً بدأت الحرب ـ المأساة الجديدة في البلقان.

وقفة أخرى ضرورية لمعرفة جيش تحرير كوسوفو .K.L.A، وهو اليوم الحليف الوحيد على الأرض للغرب وحلف الأطلسي في حربه داخل كوسوفو. يقدر عدد جيش تحرير كوسوفو بحوالى ٥٢ ألف

مقاتل، يزدادون يومياً بانضمام المزيد من اللاجئين إليهم. ويعتبر جيش التحرير آلية حربية لا بأس بها. إلاّ أن قدرته الآن على القتال، قد ضعفت مرحلياً، لأنه أصبح من مهامه الاعتناء بأفواج من اللاجئين، وتوفير بعض الحماية لهم من غارات الصرب. في الوقت نفسه بث دعوة التطوع وروح القتال بين صفوفهم، ثم تدريب المتطوعين. وهذا يعني صرف جهد مرحلي في هذا الاتحاد مما يحد من قدرة عناصر جيش التحرير الأصلي على التفرغ كلياً للقتال. وإذا لم يزود الغرب هذا الجيش بالسلاح والعتاد، فإن قدرته على مقاومة الصرب ستبقى ضعيفة. لكن بعض الدوائر الغربية تتردد حيال تسليح الكوسوفيين، لاعتقادها أن بين صفوفهم مجموعات متطرفة شبيهة بجيش التحرير الإيرلندي .I.R.A، التي قد تلتف وتضعف الأغلبية المعتدلة بعد التحرير، في سياق التوصل إلى تسوية مقبولة لمستقبل الإقليم.

وجيش تحرير كوسوفو لم ينشأ أصلاً لمقاومة الاضطهاد الصربي لأهالي كوسوفو. لقد تمّ تأسيس هذا الجيش في العام ١٩٨٢ على يد زعيم ألبانيا الشيوعي الستاليني الشهير أنور خوجا بهدف إزعاج يوغوسلافيا وإقلاق حدودها بعد موت تيتو. لكن سرعان ما استطاعت الشرطة الصربية بعد انهيار أنور خوجا الشيوعي في ألبانيا، أن تعتقل زعماء جيش التحرير وتطردهم إلى سويسرا. ولم يعودوا إلى كوسوفو إلاّ في العام ١٩٩٧. ويتعاون عن قرب جيش تحرير كوسوفو اليوم مع نظام ألبانيا، ويقوم بأعمال تهريب مخدرات من وإلى ألبانيا. كما أنه يؤدي وظيفة تهريب الألبان الذين يودون الهجرة إلى إيطاليا. وينظر بعض الغربيين إلى جيش تحرير كوسوفو بريبة وقلق لا يقلان عن نظرتهم إلى القوات

الصربية، بعد لجوئه إلى استعمال الوحشية والعنف في قتاله أو في صفوفه الداخلية.

لكن ما الذي جعل الصرب يندفعون في هذا الطريق على الرغم من فداحة الخسارة؟

لا يكمن الجواب في التراكمات التاريخية ولا في العِقد العرقية ولا التعصب الديني، بل يكمن في تصوّر الصرب أن الألبان في كوسوفو يشكلون تهديداً مباشراً لهم كشعب صربي بازدياد أعداد الألبان المسلمين منهم ونمو معدل الولادات عندهم. فإذا ظلت كوسوفو جزءاً من صربيا، فسيكون هناك خلال خمس وعشرين سنة، مسلمون ألبان بأعداد كبيرة في صربيا بكاملها، أكثر مما سيكون هناك صرب. وإذا نجح ألبان كوسوفو في مخططاتهم، يخاف الصرب أن يواجهوا مشاكل مشابهة من الأقليات العرقية الأخرى الموجودة داخل بلاد الصرب ذاتها، مثل المسلمين في «نوفي بازار» والمجريين في «فيوفيدينا». فادعاء الخوف من أن يصبحوا أقلية في بلادهم، وهم الأكثرية الساحقة حالياً فيها، ما هو إلاّ مجرد تبرير للسياسة الخرقاء المتبعة حالياً.

□ □ □

نعود إلى السؤال الذي يقف وراء مأساة يوغوسلافيا. ما السر في كوسوفو الذي يجعلها تسيطر كلياً على مشاعر ومخيلة الصرب إلى حد القتل والجريمة من ناحية، ومع الألبان بدورهم إلى حد الوصول إلى هذه الحرب الوحشية من ناحية ثانية. بالنسبة إلى الصرب تبدأ المسألة ـ كما ذكرنا ـ من هزيمة القيصر لازار في معركة كوسوفو بوليي مع جيوش العثمانيين في العام ١٣٨٩، بعد

أن رفض أن يصبح أحد أتباع سلطان الأتراك متخلياً عن استقلاله، مفضلاً أن يحارب ويموت في المعركة بدل أن يعيش في عار التبعية. وهزمت صربيا في أحدى أكبر هزائم التاريخ المعروفة، وخضعت للنير العثماني حوالى خمسة قرون. وأسست هذه المعركة للقومية الصربية ومفاهيمها.

هكذا ينظر الصرب إلى بداية تاريخهم المعروف. لكن عندما نفصل بين الحقائق والأوهام، نجد أن كوسوفو كانت في قلب أراضي مملكة صربيا في العصور الوسطى، وفيها مقدسات الصرب من كنائس وأديرة ومزارات دينية تمثل العقيدة المسيحية الأرثوذكسية التي يؤمنون بها.

بعد الهزيمة ومع تتالي القرون، نزح الصرب عن كوسوفو، وأخذ مكانهم الألبان المسلمون. ولهذا السبب، كان عدد الصرب في كوسوفو لا يتجاوز العشرة بالمئة من عدد السكان. وانتظر الصرب حتى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٢) حين بدأت صربيا تأخذ شكل بلد مستقل، بينما الحلم الصربي باستعادة كوسوفو يتأجج في الصدور. وكان عليهم أن ينتظروا مئة سنة أخرى، حتى العام ١٩١٢، حين اجتاح الجيش الصربي كوسوفو وأخضعها لحكمه. ويذكر أحد الجنود الصربيين الذين حاربوا لاستعادة كوسوفو، أنه كان يحارب وهو يتصور أنه يستعيد معركة ١٣٨٩، ويقول هذا الجندي إنه كصربي رضع منذ طفولته هذا الحلم، وهو الثأر لهزيمة لازار أمام العثمانيين. لكن استعادة كوسوفو في حملة ١٩١٢، لم تجعل الصرب أكثرية في كوسوفو. وإذ اعتبر الصرب أن ذلك انتصار، اعتبر ألبان كوسوفو، أن ذلك احتلال من قبل شعب من السلاف معادٍ لهم[٢].

وجاء الانتقام من الصرب سريعاً في العام ١٩١٥، وكانت الحرب العالمية الأولى قد وقعت، عندما تراجعت القوات الصربية في كوسوفو أمام جحافل الجيوش النمسوية المجرية والألمانية والبلغارية، تساعدها حركة حرب عصابات ألبانية. وفي العام ١٩١٨ عاد الصرب إلى كوسوفو بنهاية الحرب الكونية، وبدأت عمليات الثأر والثأر المضاد. واستمرت عمليات الثأر مع طموحات ومحاولات كلا الفريقين تصفية الفريق الآخر. حتى دخل الجيش اليوغوسلافي في العام ١٩٤٤ كوسوفو، وكان جيشاً شيوعياً مؤلفاً من عناصر المقاومة بزعامة تيتو. وكان عدد الألبان الذين قاتلوا مع المقاومة الشيوعية قليلاً جداً، بالنسبة إلى الصرب والكروات. وكان المقاومون الألبان من أنصار تيتو يطمحون للانضمام إلى ألبانيا عند نهاية الحرب. ولكن تيتو لم يلبِّ طموحاتهم.

بعد موت تيتو في العام ١٩٨٠، اندلعت التظاهرات في كوسوفو تطالب بمنح الإقليم مرتبة الجمهورية. وكان ذلك يعني نظرياً بموجب الدستور اليوغوسلافي، حقه في الانفصال عن يوغوسلافيا. ومع أن التظاهرات قُمعت، إلاّ أنها أسفرت عن أن زعماء الحركة الألبان بدأوا بتأسيس جيش تحرير كوسوفو. ورافق ذلك عمليات التصفية العنصرية من قبل الصرب والرد الأُعنف الذي قابلهم به الألبان، إلى درجة أن العديد من الصرب سكان كوسوفو بدأوا بالهجرة منها، اقتناعاً منهم أن لا مستقبل لهم في الإقليم. وفي العام ١٩٨٦ صدرت مذكرة حكومية في بلغراد أعلنت بشكل مضخم أن الصرب يتعرضون للتصفية في كوسوفو، وأن من واجب الدولة التصدي للألبان. ووضعت هذه المذكرة المليئة بالمبالغات والأكاذيب، القضية الصربية على طاولة أي بحث

سياسي في البلاد. واستغل ميلوسوفيتش، زعيم الحزب الشيوعي اليوغوسلافي في حينه، هذه القضية وامتطاها للحصول على السلطة التامة، وليصل عبرها إلى رئاسة الجمهورية. وأدت أساليبه الوحشية بإلغاء كيان كوسوفو إلى إطلاق القومية الصربية المتطرفة التي امتدت إلى مختلف أنحاء البلاد، وامتدت معها نيران التعصب الذي أحرق يوغوسلافيا كما تركها تيتو.

□ □ □

هنا لا بد من عودة سريعة إلى التاريخ، للربط بين الأمس واليوم، للتذكر أن هزيمة لازار واستشهاده في هذه المعركة، كانت بالنسبة إلى الصرب بداية أسطورة البطولة في صربيا، التي غزاها خيال أجيال متعاقبة، حتى أصبح ٢٨ حزيران ـ وهو بالصدفة عيد القديس فيتوس، شفيع الصرب ـ العيد الوطني والقومي عندهم. وقد التصق هذا اليوم بالتاريخ السياسي للصرب، حتى أن غافريلو برينسيب، القومي الصربي وعضو جمعية «الكف الأسود» الصربية القومية المتطرفة اغتال الأرشيدوق فرانز فرديناند ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو في البوسنة في ٢٨ حزيران ١٩١٤ برصاصة أشعلت الحرب العالمية الأولى.

واختلطت الميثولوجيا بالتاريخ بالحمّى القومية بالصراع السياسي على الأرض والسلطة، كما اختلط الصراع الديني في البلقان، بين الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمين، بالتطهير العرقي والنزاع الأبدي على حدود لا يعرف أحد منْ أرساها، ضاعت معالمها وخرائطها في غياهب التاريخ لشعوب تتآكل وتتزوّد بالثأر المتجدد من جيل إلى جيل.

لم يكن برينسيب، الصربي الذي أطلق الرصاصة التي قتلت أريشدوق النمسا، وأشعل بها الحرب الكونية في العام ١٩١٤، لوحده. كان واحداً من ثلاثة مكلفين بمهمة الاغتيال. منهم فاسو كوبريلوفيتش، الذي أصبح فيما بعد مؤرخاً معروفاً وعضواً في أكاديمية صربيا للعلوم والآداب والذي كتب في العام ١٩٣٧ عن كوسوفو يقول «إن على يوغوسلافيا أن تطرد أكبر عدد ممكن من الألبان في الإقليم، وإلاّ فإنها ستدفع ثمناً باهظاً فيما بعد لترددها». ويضيف قائلاً: «إن على يوغوسلافيا أن تستعمل القوة العارية والعنف الذي تملكه مؤسسات الدولة، لتصفي حسابها معهم (أي مع الألبان) في غضون عشرين إلى ثلاثين سنة، وعليها أن تتحمل نتائج هذا العمل التحرري الوحدوي المخيف». ويقترح كوبريلوفيتش أن هذا العمل يجب أن يتم عن طريق إحراق القرى الألبانية والأحياء التي يسكنها ألبان في المدن، إنما بسرية تامة أو قدر المستطاع. ويذكّر بأن هذا ما تم بنجاح كبير في العام ١٨٧٨، إلاّ أنه سرعان ما يضيف، أن الفرق بين الأمس واليوم، أن موضوع السرية قد أصبح صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

قبل أكثر من ستين سنة، كان هذا موقف غلاة القوميين الصرب وهو ما زال موقفهم حتى الساعة.

□ □ □

يستغرب الكثير من المراقبين، كيف يمكن لأكثر من مئة ألف متظاهر صربي خرجوا إلى الساحات والشوارع في بلغراد في العام ١٩٩٧ ولمدة ٨٨ يوماً، يطالبون بإسقاط ميلوسوفيتش ونظامه الديكتاتوري، أن يقفوا معه في وجه غارات حلف الأطلسي على بلادهم، معاندين مطالب الولايات المتحدة والغرب؟

يقول بعض الديبلوماسيين في تفسير هذه الظاهرة وغيرها، ما الذي يجعل الصرب يفكرون بهذه الطريقة؟ إن مفتاح النفسية الصربية هو أنهم يتمتعون بنوع من «البارانويا» ليست موجودة عند باقي الشعوب، تعود إلى اقتناعهم أن العالم كله (والغرب خاصة) ضدهم. ويفسرون أحداث العالم من منطلق العداء لهم. ومن منطق الضد دائماً، ويعزون ذلك إلى الهزيمة التي منوا بها على أيدي العثمانيين قبل ستة قرون، والتي يحرصون على أن يتذكروها ويذكّروا الأعداء والأصدقاء بها في كل حين.

ويضيف هؤلاء الديبلوماسيون، أن للكنيسة الأرثوذكسية الصربية دوراً كبيراً في تغذية شعور التعصب عند الصرب، بتضخيم بطولات معركة كوسوفو بوليي. فلمئات السنين ظلت الكنيسة هي الحامية لأساطير الصرب الوطنية الوهمية، مجيّشة العواطف القومية الصربية لتبقيهم رهينة في يدها. فذكريات المذابح والفظاعات التي ارتكبت ضد الصرب خلال حربين عالميتين، وقبلها في حروب القرون التي سبقت، تجد مكاناً رحباً في ذاكرة الصرب جيلاً بعد جيل بتشجيع من الكنيسة. ولا يخلو أي عمل أدبي صربي من ذكر أسطورة من هذه الأساطير أو حدث تاريخي ما، بغض النظر عن صحته. حتى أن أديب الصرب الكبير إيغو أندريتش، الحائز جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٦١ يبدأ إحدى رواياته بكيف كان يحرق العثمانيون الصرب على الخوازيق قبل خمسمئة سنة، وكيف كانت عصابة الكروات المعروفة بـ «أوستاشي» المتعاونة مع قوات الاحتلال النازية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، تقتل الصرب وتملأ السلال من عيونهم المفقوءة وترسلها إلى ضباط هتلر. بهذه الأوصاف المخيفة والخلفية السوداء لكل ما يحيط بهم، عاشت المخيلة الصربية حتى نهاية هذا القرن.

وشعور الصرب بالتحالف الدائم مع عقدة الاضطهاد والشعور بالقدرية المطلقة، الذي غذاه النظام الشيوعي طوال أربعين سنة، جعلهم يستسلمون للأمر الواقع إلى حد كبير. مما جعل المعارضة للنظام في الداخل، وحتى في الخارج، ضعيفة وموزعة ومترددة، إلى درجة الإحساس بأن هناك قناعة بالنظام الحاكم، أياً كان نوعه، وكائناً من كان زعيمه. لذلك فإن أي شكل من أشكال العصيان على ميلوسوفيتش، حتى قبل أن يوحد قصف الأطلسي عواطف الصرب القومية، سيبقى مستبعداً. تبقى نقطة واحدة يكررها كل الصرب عندما يُسألون عن الكراهية التي يشعرون بها ضد الألبان والوحشية التي يمارسونها تجاههم، وهي: «إننا ندفّع الألبان ثمن ما فعله الأتراك بنا». عجباً لأحقاد تعيش هذا الزمن الطويل[٣].

والجدير بالذكر أن الألبان شعب غير سلافي، يشكل المسلمون فيه الأكثرية، والمسيحيون الكاثوليك الأقلية. وهم عرقياً لا يمتون إلى السلاف بصلة. ويعود الألبان بنسبهم إلى الآريين القدماء الذين سكنوا شرق الأدرياتيك. وقد سكنوا كوسوفو منذ أقدم الأزمنة، بينما جاء الصرب إلى كوسوفو في القرن السادس بعد الميلاد.

□ □ □

لا بد هنا من التوقف للحديث عن الفارق الكبير بين ما يحدث اليوم في كوسوفو وبين ما حدث في البوسنة من قبل. وذلك لأهمية هذا الفارق في فهم مشكلة كوسوفو والعلاقة الصربية بها. الأهم عدم الخلط بين مسلمي كوسوفو ومسلمي البوسنة وتاريخهما غير المشترك. وهذا ما يحدث عادة في أذهان العرب والمسلمين. فالألبان إجمالاً، وألبان كوسوفو منهم، هم عرق آري لا ينتمي إلى الشعوب السلافية بصلة. وهم شعب يشكل المسلمون

فيه أغلبية والكاثوليك أقلية، له تاريخ سياسي مختلف كلياً عن تاريخ شعب البوسنة وعلاقته بشعوب الجوار.

في الوقت الذي كانت كرواتيا وصربيا تطوران هويتهما القومية كأمتين ودولتين، واحدة تطمع لأن تصبح كرواتيا الكبرى والأخرى صربيا الكبرى، قبل أن يصبحا داخل يوغوسلافيا أمتين في دولة واحدة، كانت البوسنة منذ القرن الثاني عشر تبحث عن كيان قومي لها عقدته ظروف الانقسام بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية. وزاد في ظروف تعقيدات الانقسام الكنسي في ذلك الحين، أن الكنيسة البوسنية المحلية، اتهمت بالهرطقة من قبل القسطنطينية وروما معاً. وظل الوضع على حاله حتى القرن الرابع عشر، حين بدأت الأمبراطورية الصربية بالانحطاط. في هذه الفترة عاشت البوسنة فترة رفاه ذهبية في عصر إسطفان ترتكو، الذي ترك الكنيسة الصربية وأعلن ولاءه لروما، وعرف باسم ملك صرب البوسنة.

في فترة الاحتلال العثماني للبوسنة (١٤٦٣ - ١٨٧٨) اختفت الكنيسة البوسنية تدريجياً من الوجود، بعد اتهامها بالهرطقة واختيار ملك الصرب البوسنيين الكثلكة. وأدخل الأتراك الإسلام إلى البوسنة، وأخذ الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك من أهل البوسنة، يدخلون في الدين الجديد بدفع من الأتراك، وفي ظل الإغراء بالحفاظ على إقطاعهم وأملاكهم في حماية العثمانيين. وأصبح السلاف المسلمون أرستوقراطية البلاد في ظل الحكم التركي. عندئذ لم يعد للمسلمين السلاف البوسنيين أي شكل من أشكال الاستقلال يتطلعون إليه خلال الفترة العثمانية. وقد نزح خلال هذه الفترة أعداد من البوسنيين إلى المشرق العربي، ويسميهم

العرب (البشناق)، وهم عائلات منتشرة في فلسطين والأردن. فكل البوسنيين المسلمين هم ببساطة صرب أو كروات اعتنقوا الإسلام. وبالتالي لم يستطيعوا أن يكونوا أمة، كالصرب الذين ظلوا على الأرثوذكسة والكروات الذين ظلوا على الكثلكة. لذلك ظل البوسنيون المسلمون يشكلون أمة مصطنعة، تداخل فيها كل السلاف من الصرب والكروات الذين بقوا على دينهم.

وعلى الرغم من ذلك أعطاهم الماريشال تيتو في دستور يوغوسلافيا للعام ١٩٧٤ كيان جمهورية فيدرالية أسوة بالجمهوريات الأخرى. ويقال إن تيتو منحهم ذلك، إرضاءً للدول الإسلامية في حركة عدم الانحياز في ذلك الحين. فمسلمو البوسنة، ليسوا عرقاً أو شعباً مختلفاً عن باقي السلاف، سوى أنهم بظروف تاريخية قبل ستمئة سنة، دخلوا الإسلام ومنحوا امتيازات لقاء ذلك في ظل الوجود العثماني، بعد تشتت كنيستهم. وكان المسلمون يشكلون ٤٤ بالمئة من مجموع سكان البوسنة ـ الهرسك، بينما يشكل الصرب ٣١ بالمئة والكروات ١٧ بالمئة، واليوغوسلاف الخليط ٦ بالمئة. أما مجموع مسلمي البوسنة والهرسك، فيشكلون ٩ بالمئة من مجموع سكان يوغوسلافيا الاتحادية. كان ذلك كله في إحصاء عام ١٩٨١، قبل أن يبدأ التطهير العرقي والمذابح الدينية والإبادة الجماعية. وليس هناك من إحصاء معتمد اليوم للتغيرات الديموغرافية التي تحصل يوماً بعد يوم على الأرض. لذا كان من الضروري فهم هذا الفرق التاريخي والديني بين مسلمي البوسنة وبين الألبان المسلمين.

□ □ □

من الإرث العثماني إلى الإرث التيتوي، ظلت حروب كوسوفو مستمرة. وعلينا أن لا ننسى أن هذه الحروب قامت عند خطوط

التماس بين الأمبراطورية العثمانية والأمبراطورية النمسوية ـ المجرية، وبين الإسلام والمسيحية، وبين القومية الصربية والقومية الألبانية. وعاشت المجموعات الإثنية في البلقان بسلام فترات طويلة، قسراً لا طوعاً عندما كان هذا السلام مفروضاً، إما من قوة خارجية (عثمانية ـ نمسوية ـ ألمانية) أو من قبل زعيم قوي كالماريشال تيتو. فالسلام المفروض إحلاله بعد اليوم، هو سلام سيفرضه حلف الأطلسي وسيكون نوعاً من «السلام الأميركي». وحرب كوسوفو تقع اليوم على خطوط تماس روسيا الجديدة ما بعد الشيوعية والاتحاد السوفياتي مع أوروبا، وروسيا الأخرى الأرثوذكسية مع أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية، ومع بقايا شعوب الإسلام العثماني الأوروبي. وعلى الولايات المتحدة ودول الأطلسي أن لا تستهين بروسيا، مهما أصبحت بفقرها وضعفها الاقتصادي المتردي وارتباكها السياسي، رهينة للغرب. فالعلاقة بين روسيا والصرب، على أهميتها التاريخية، يجب أن يحسب حسابها دائماً وفي أي تسوية. فـ «السلام الروسي» قد يكون أحد الاحتمالات.

إن التهديد الروسي بحرب عالمية ثالثة، لم يكن إلاّ تهديداً لفظياً لخدمة اعتراض الديبلوماسية الروسية مرحلياً، إلاّ أن علينا أن لا ننسى أن البلقان برميل بارود قابل للاشتعال السريع. صحيح أن الحرب العالمية الأولى بدأت في البلقان، لكن ليس نتيجة لصراع إثني بين شعوبها، بل لأن قوى خارجية تدخلت في خلافاتها المحلية. فاغتيال ولي عهد النمسا (إحدى القوى الأمبريالية في ذلك العصر) من قبل قومي صربي، أدى إلى حرب كونية لأن روسيا دعمت صربيا، ودعمت فرنسا روسيا، بينما دعمت ألمانيا النمسا. فالتدخل الخارجي هو الذي أدى إلى الحرب، وليس الحروب العرقية

والتصفيات العنصرية المستمرة من جيل إلى جيل. أما الحرب العالمية الثانية فلم تبدأ في البلقان ولم تكن نتيجة لصراعات المنطقة العرقية.

من هذا المنطلق، يؤخذ على الأميركيين تحديداً عدم فهمهم للمنطق القومي لدى شعوب أوروبا الشرقية إجمالاً ومنها بلاد البلقان، وتطور حركة القوميات فيها، وكيفية استخدامها في السياسة الوطنية للبلدان المختلفة. فالقومية في البلقان هي حالة عقلية وموقف من معظم الأمور السياسية والاقتصادية عندهم ومن الشعوب المحيطة بهم، بينما نجد أن القومية في أوروبا الغربية، هي موقف إيجابي وعصري من البلدان والظروف السياسية المحيطة بها. بالمقابل نجد أن القومية في أوروبا الشرقية متخلفة، تخلط دائماً بين الحاضر وبين الأسطورة المتشبثة بالماضي، وهي عدوانية في مضمونها وطموحة في حركتها التوسعية. من هنا نجد أن المفهوم القومي في البلقان ودول الجوار، يلقي دائماً بظلاله السوداء على المستقبل، مشككاً بديمومة كل ما حوله.

وإذا كان التاريخ حتى الساعة هو سيد المواقف دون أن يعي أحد دروسه أو يستفيد من عبره، فليس هناك بد من الدعوة إلى إطلاق سراح التاريخ من يد الصرب، حتى تعود بعض الأمور إلى نصابها، ومنها أن ليس هناك حروب نظيفة أو حروب مبررة أو حروب عادلة. كل الحروب هي حروب قذرة وغير منصفة. وإلاّ كيف يفسر الناس العاديون أن حلف دول مسيحية غربية بقيادة أكبرها وأحدثها سناً، وأقلها تاريخاً، تشن حرباً على أقدم دولة مسيحية شرقية، كل ذلك دفاعاً عن شعب بلقاني مسلم لم يكن هو البادىء في هذه الحرب ولم يكن له خيار فيها؟ إنه سؤال يحيّر

العالم المسيحي نفسه، قبل العالم الإسلامي الذي لا خيار له إلا السكوت، طاعة وخوفاً.

فإذا كانت البداية من التاريخ، فلنقف عند نهاية حرب كوسوفو، عند مجموعة تساؤلات عديدة وبعضها عربي، قد لا يكون قد حان أوان طرحها. فلننتظر لا لأن الشعوب تتصارع لتأكل بعضها البعض بل لأن الدول البعيدة عن هذه الشعوب، تتدخل لتفرض إرادتها ومفاهيمها. وعندئذٍ تقع الكارثة!

---

(١) «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، تأليف محمد فريد بك المحامي، الطبعة الثامنة ـ دار النفائس، بيروت ١٩٩٨.

(٢) Tim Judah - The Serbs: History, Myth and the Destruction of Yougoslavia - Yale University Press - 1998.

(٣) Stuart Wavell - Natural Born Martyrs - The Sunday Times - 4/4/1999.

من ستالين إلى ميلوسوفيتش

■ «قال ابن المقفع: الملوك ثلاثة. ملك دين وملك حزم وملك هوى.
فأما ملك الدين فإنه إذا أقام لأهل المملكة دينهم وكانوا راضين، كان الساخط فيهم بمنزلة الراضي.
وأما ملك الحزم فيقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والسخط. ولن يضرّ طعن الذليل مع حزم القوي.
وأما ملك الهوى، فلعب ساعة ودمار دهر.»□
«سراج الملوك»
محمد بن الوليد الطرطوشي

كنت أقرأ في كتاب «حدائق الأزهار» لابن عاصم الغرناطي، وأنا أتابع على شاشات التليفزيون أخبار كوسوفو وحرب البلقان، بعد أن وجّهت المحكمة الدولية لجرائم الحرب التي أقامتها الأمم المتحدة (بعد مجازر روندا والبوسنة) إلى رئيس صربيا سلوبودان ميلوسوفيتشس، تهمة «مجرم حرب»، معددة ما يزيد على ٣٥٠ جريمة اعتبر مسؤولاً عنها مباشرة. وتوقفت عند رواية يقول الغرناطي فيها:

«جاء خالد بن صفوان امرأة دلاّلة وطلب منها امرأة فقالت: صفها!

فقال: أريدها بكراً كثيب، أو ثيباً كبكر، حلوة من قريب، ضخمة من بعيد، كانت في نعمة وأصابتها فاقة، فيها أدب النعمة وذلّ الحاجة.

قالت: قد أصبتها لك.

قال: أين؟

قالت: في الجنة فاعمل لها».

وتساءلت ومناظر الحرب أمامي، يا ترى، لو طلبنا من دلّال ما، حاكماً شهماً نبيلاً حازماً رؤوفاً واسع الصدر ديموقراطياً مثقفاً عادلاً (دون أن يكون مستبداً)، فيه أغلب صفات أسماء الله الحسنى، لقال لنا ذلك الدلال: قد وجدته لكم في الجنة، فاعملوا له. ولمّا كانت نيتي أن يجده الدلّال لي في الأرض، تساءلت لماذا تطمح الشعوب دائماً لأن تُحكم من قبل أبطال. لكن أي أبطال؟

هذا سؤال فرضته ظروف حرب البلقان، في اليوم الذي فرض فيه الرئيس الأميركي بيل كلينتون وحليفه رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير، الحرب على صربيا. وكلينتون ـ كذلك بلير ـ ليسا بطلين بأي مقياس أميركي أو إنكليزي أو غيره. لقد انجرّ سلوبودان ميلوسوفيتش، «جزار بلغراد» كما تسميه الصحافة الغربية، إلى هذه الحرب وقد أساء قراءة رد الفعل الأميركي ـ الغربي لسياسة «التطهير العنصري» في كوسوفو، تقوده طموحاته لتحقيق حلم «صربيا الكبرى»؟ ذلك كله دون أن يحسب ردود الفعل الدولية لهذه السياسة الحمقاء، معتمداً على استنتاجاته بعد تجربته «الناجحة» في حرب البوسنة، من أن العالم لن يخوض حرباً ضد صربيا دفاعاً عن بقايا المسلمين في أوروبا، ممثلين بألبان كوسوفو. واتضح لميلوسوفيتش بمرور الأيام وبالممارسة الفعلية على الأرض، أنه إذا «زمط» في البوسنة بـ «اتفاق دايتون»، وبأقل خسائر ممكنة، فإنه من الصعب أن «يزمط» هذه المرة. ففي أقل من سنة، تغيرت صورته من منتصر بالتكتيك إلى مهزوم بالاستراتيجيا.

□ □ □

تواتر هذا السؤال في ذهني، عن علاقة الشعوب بحكامها وسعيها الدائم إلى البطل، رغم أنها تقع في أغلب الأحيان في قبضة الطغاة الأشرار. وإذا بالأشرار يلبسون مسوح الأبطال، فتنجرف الشعوب بوطنيتها وحماستها وزخمها وراءهم، ما يودي بها إلى التهلكة. وليس هناك مثال على ذلك أفدح من المثال المعاصر الذي اسمه ميلوسوفيتش، والذي دخل اسمه في لائحة «مجرمي الحرب»، فالبطل الصربي أصبح في مدى أسابيع من حرب البلقان «مجرم حرب» في نظر هيئة دولية مهمتها اصطياد مَنْ تراه مناسباً لسياسة النظام العالمي الجديد ذي القطب الأميركي الواحد.

وأهمية هذا المثال الحي في طرح السؤال الطاغي عن سر اختيار الشعوب لهذا النوع من «الأبطال»، منوطة بسؤال آخر: لماذا ترضى الشعوب بأبطال طغاة جاءوها طوعاً أو قسراً، فتنصاع إليهم، حتى عندما تتراكم جرائمهم؟ ما يجعل الانتفاضة عليهم عملاً غير وطني في مرحلة سياسية معينة. وتقع الشعوب بين مثلث نيران: نار الدمار الذي يوقعه ذلك «البطل» عليها، ونار التخلص منه، إذا واجه العملية الفشل، ما سيدفع ذلك «البطل» إلى القضاء على حلقات التآمر عليه تحت طائلة تهمة الخيانة. والنار الثالثة الممكنة هي الخوف من أن تقع محاولة التخلص منه في مخطط أعداء البلاد لا أعداء النظام. فتلف النيران البلاد حارقة الشعوب وأبطالها. ويكون الدمار قد حصل والحريق قد التهم الأخضر واليابس. والأعداء ـ الأقوياء عادة ـ لا يأبهون بحصاد هشيمها أو مصيرها أو مستقبلها.

ليس هناك أهم من التاريخ مرجعاً للإجابة على سؤال: لماذا أقدار البشرية يقررها في الغالب أشخاص نحتقرهم، ليسوا من أبطال التاريخ بل من أشراره؟

لعل الجواب البديهي الذي كثيراً ما يشهد عليه التاريخ، أن السلطة تغري «المجانين» في حالات كثيرة. أما في لحظة تفكير ممكنة معينة فإننا نجد الأمر ليس بهذه البساطة، خصوصاً إذا أمعنا في الخيال وتساءلنا عن حوادث روائية نرى فيها الشرير الذكي يسرق المشهد من البطل «الآدمي» الممل. هل هذا من قبيل الصدف؟ وإذا انتقلنا إلى أرض الواقع، فإننا نجد أكثر الزعماء شروراً يقدمون الإغراء الأكبر لأنصارهم، وأن الناس الذين يقعون تحت سحرهم، يلعبون دوراً في استمرارهم في الحكم أو السلطة.

لأكثر من ألفي سنة، والتاريخ ينظر إلى الأمبراطور الروماني نيرون كواحد من الحكّام الطغاة الأشرار، ومثالاً يحتذى لباقي الأباطرة الجدد. لكن الصورة التي يرسمها التاريخ لحاكم ما تبقى ناقصة، بسبب نزوع ديني أو سياسي أو أخلاقي مستجد من ناحية، ولغياب مسرح الأحداث وأبطاله وعناصره في غياهب الزمن من ناحية ثانية. فهذا هو نيرون، الرجل الذي اضطهد المسيحيين وترك الكلاب تنهشهم في المدارج الرومانية والساحات، وفي الأقبية والسجون، وأحرقهم على الصليب وأضاء بجثثهم عتمة الأزقة. نيرون الذي أحرق روما وسوّاها بالأرض أحجاراً من رماد، لا لسبب، إلاّ ليسلي نفسه بهذا المنظر الفظيع. فالأمبراطور الذي قتل المقربين منه وقتل زوجتيه وبقر بطن أمه وهو كان مديناً لهم بكل شيء، حتى بالعرش الذي وصل إليه. هذا الرجل الفظيع كيف كان تقييم الرومان له في ذلك العصر؟

الجواب المذهل، أن الرومان في غالبيتهم كانوا ميالين إليه ومعجبين به إلى حد كبير. إلى درجة، أنه عندما تغيرت الظروف وانقلبت ضد نيرون، وحكم عليه مجلس الشيوخ الروماني بالموت، فكّر في

إثارة الجماهير عن طريق تنظيم شيء شبيه بالانتفاضة الشعبية لصالحه. ولم يكن الرومان محكومين بأي وهم حول شخص الأمبراطور وأخلاقياته. إذ يبدو أنهم كانوا معجبين بأسلوبه في الحكم.

□ □ □

الكثيرون من الأشرار في التاريخ، كانوا شخصيات جامدة، باردة، مغلقة، لا تملك أية عواطف إنسانية، لا رغبة لها بالكلام الخاص، ولا تحب التعاطي مع الناس خارج ضرورات السلطة. نيرون كان مختلفاً جداً عن هذه الصورة التي يرسمها عادة التاريخ لهذا النوع من الأشخاص الطغاة. قد تكون أعماله فظيعة، لكن شخصيته كانت غنية. كان يحب الموسيقى والشعر والرياضة. نظم الشعر وعزف على قيثارته وروما تحترق أمامه. كان يتفرج على مباريات رياضة ذلك العصر، وكثيراً ما شارك فيها. كان يتسابق في عربته ذات الخيول الأربعة، ويغني للجمهور في حلبة المصارعة بين العبيد والأسود. يحب تسلية الجماهير، فيقيم لهم الاستعراضات والمسرحيات والسباقات، حتى ابتدع اليانصيب مقابل جوائز بمثابة «كمبيالات» يستطيعون صرفها على شراء العبيد والمنازل والمجوهرات والخيول.

ولا أعتقد، صدقاً، أن الرومان قد أحبوا هذا الوحش لمجرد أنه كان يقدم لهم باستمرار «سيرك» هنا و«سيرك» هناك، فيسليهم وهو يقتلهم. أظن أن هناك ما هو أكثر وأهم من ذلك. لا شك أن الرومان عثروا في نيرون على شيء من الحكمة وشيء من العقل أكثر مما كان متوافراً عند الأباطرة السابقين. كان نيرون بعيداً عن الاهتمام بواجباته السياسية، أو الالتزام بشرف المنصب، أو بالشؤون

الدستورية، إلاّ أنه ترك الناس يشعرون أنه رجل يشبه باقي الرومان إلى حد كبير. وبالتالي استطاع الالتصاق بطبائعهم وعاداتهم، فتحملوه وتسامحوا طويلاً مع هناته الهينات، كمجموعة الجرائم التي ارتكبها! أحبوه، لأنهم يشبهونه ولأنه يشبههم. لربما لم يكن الرومان راضين على أعمال وتصرفات نيرون، لكنهم كانوا على الأقل متفهمين لها، خصوصاً عند لجوئه إلى استعمال السلطة لإرضاء شهواته الشخصية ونزواته السياسية. فقد كان كل روماني يتمنى لو أتيحت له الفرصة أن يفعل كما فعل نيرون.

هناك مَنْ يقول أو يشعر أن ليس هناك سوى القليل جداً مما يجمع بين غوغاء الرومان وأباطرتهم قبل ألفي سنة، وبين الحكام المعاصرين في ديموقراطيات اليوم ومواطنيهم. ما يجمعهم، أن سياسيي هذا العصر الديموقراطي، يريدون أيضاً أن يُشعروا الناس أنهم يشاركونهم آلامهم وأذواقهم ويطمحون إلى الأحلام نفسها. أي أنهم يشبهون السواد الأعظم منهم. فسياسة السياسيين هي التقرب من الناس، وإشعارهم أنهم مثلهم تماماً. وليس صحيحاً أن ناخبي اليوم، في أي ديموقراطية، يعطون أصواتهم لأي سياسي لا يخدم مصالحهم ولا يحقق أحلامهم. فليس هناك صوت مجاني ولا حب مجاني ولا حاكم قادر على الاستمرار في السلطة، إذا لم تتوافر له قاعدة التلاقي مع الناس.

□ □ □

المعلّم الأكثر والأوسع صيتاً للحكام الطغاة الانتهازيين نيكولو ماكيافيلي، كان يرى في حرمان المحكومين السبب والمبرر معاً للانتهازية السياسية وانعدام الأخلاقية، حسب نصيحته الشهيرة للحكام بأن الغاية تبرر الوسيلة. فعلى عكس الانطباع الشائع، لم

يكن هذا الديبلوماسي الكثير الشكوك والإيطالي من فلورنسا الذي عاش في القرن الخامس عشر، من محبي الاضطهاد ولا من المعجبين بالديكتاتورية، من قبل أن يخلق المفكرون والساسة كلمة «المستبد العادل» من دون تعريف محدد دقيق أو حقيقي لها.

«مطارحات» ماكيافيلي وحدها تكشف مدى عشقه وحنينه لقيم ومبادىء جمهورية روما القديمة. لقد ذكر ماكيافيلي أن المثل العليا للجمهورية لم تمنعها من الانحدار والتفكك اللذين وصلت إليهما أيام حكم نيرون. ولم يرَ ماكيافيلي عيباً في بلاده إيطاليا المجردة من المبادىء، المجزأة والمنقسمة في أيامه، أن حكّام إماراتها يمكنهم الاعتماد على أخلاق مواطنيها. فهو يقول في «المطارحات»: «من الممكن أن نعمم في ما يتعلق بالناس الرجال. فهم عقوقون وكذابون وخداعون. إنهم يهربون من الخطر، وجشعون أمام الأرباح». وإلى الذين يرفضون هكذا تقييم لرفاقهم في الإنسانية، يقول ماكيافيلي: «الناس تخدع نفسها في ما تعتقده أنه من طبائعها أو هو في حقيقتها».

إن تحطيم آمال الناس المثاليين الداعين إلى جمهورية فاضلة، قد أصبح خطوة ضرورية في الطريق إلى خلاص المجتمع. فالطوباويون كان يجب أن يُحجموا، إن لم يقض عليهم. فالحاكم الناجح لا بد من أن يقدر الضعف الأخلاقي لرعاياه، ويتخذ إجراءات مضادة ـ وإن عنى ذلك أن عليه أن يتبنى قيم هؤلاء الرعايا. لهذه الأسباب كان كتاب «الأمير» لماكيافيلي كتاباً سيىء السمعة وبمثابة المرشد ـ الدليل لكيف يجب أن يتصرف الحكام مع رعاياهم. فنصحهم بالكذب والخداع، فقط عندما تكون هذه الأساليب لخدمة الصالح العام. لكن هل كانت بالفعل نصائح كتاب «الأمير» وقواعده،

نصائح معقولة؟ وهل نستطيع أن نهنىء أنفسنا اليوم نحن الرعايا، كوننا أسسنا مجتمعات يستطيع حكامنا الاعتماد فيها على ذكائنا، ونوايانا الطيبة، وقدراتنا على تحمل المسؤوليات؟

كثير من الذين اعتبروا من أبطال التاريخ الأشرار، قد تبنوا كتاب ماكيافيلي بحرفيته، وأخذوا منه ما أعجبهم وناسب هواهم وظروفهم. في الوقت نفسه، عدد كبير من هؤلاء الشخصيات، على عكس نيرون، ظنوا بصدق أن في تبنيهم لمبادىء «الأمير» يعملون من أجل المصلحة العامة. لذلك أقام روبسبيير، بطل الثورة الفرنسية، «عهد الإرهاب». وأصبح ستالين أكبر قاتل في التاريخ. ومشى هتلر في طريق التوسع والعدوان وتصفية اليهود وإقامة المحارق الجماعية. ومن المؤكد أن هتلر قد درس ماكيافيلي، حتى يقال إنه كان يحتفظ بنسخة من كتاب «الأمير» إلى جانب فراشه دائماً. ومن المؤكد أيضاً، أن هذه الرواية، لا تعفي رعايا هتلر من النازيين الألمان وسواهم، من اللوم وتحمل مسؤولية جرائم زعيمهم.

وعلى عكس جنكيز خان، وسواه «من وحوش التاريخ وطغاته»، جاء هتلر إلى الحكم عن طريق الانتخاب الديموقراطي، فقد نال من الأصوات، في انتخابات حرة، أكثر مما نال أي زعيم ألماني قبله. ومع ذلك لم يخفِ هتلر برنامجه السياسي الذي بسببه انتخب، ولم يتسلل إلى الحكم ولم يصل إليه عن طريق الانقلاب العسكري. فكتابه «كفاحي» الصادر عام ١٩٢٥، احتوى على آرائه التي حاول تطبيقها وهو في السلطة. فهل هذا يعني أن الأغلبية الديموقراطية في ألمانيا، اختارت أن تقحم دولة أوروبية حديثة في حرب عالمية ثانية؟ الجواب البديهي قد يكون لا، لكن الجواب الأخطر، هو القصة التي لها علاقة مباشرة بزماننا.

فالمفاجىء في هذه الواقعة، أن الحياة السياسية في ألمانيا في الثلاثينيات كانت تقوم على الانهيار الاقتصادي التي خلفته جمهورية «وايمر» والعداء والكره السافر لليهود وعلى أحلام التوسع والقوة، انتقاماً لهزيمة الحرب العالمية الأولى.

وجاء هتلر إلى حلبة السياسة الألمانية، وقرر أن لا يقف أحد أو شيء بينه وبين السلطة، فقرر استغلال هذا المزاج العام في العداء للسامية وفي الرغبة في بناء ألمانيا قوية. إن القلّة من الناس كانوا مهتمين بالسياسة في حينه، خارج ما يسمى بـ «العزة الوطنية» والعداء لليهود. والقليل من هؤلاء القلة كانوا مستعدين لتحكيم العقل والنظر إلى أبعاد ما جاء في «كفاحي» من آراء. ولم يكن الكثيرون منهم يفهمون الفوارق في مبادىء الأحزاب الديموقراطية المتصارعة في تلك السنوات، وقد ملّوا المناقشات السياسية العقيمة والخطب الجوفاء والتجمعات الحزبية، فذهبوا واختاروا الأوضح والأصرح، من دون أي تفكير في نتائج هذا الاختيار. وجاء هتلر محمولاً على أصوات الغالبية من الألمان، ودخل حلبة السياسة الألمانية على حصان ديموقراطي أبيض.

□ □ □

لقد عمل هتلر وفق مبدأ اعتقد أنه الأكثر إغراء للجماهير، فقدم عروضه لهم بشكل لا يقبل الجدل. قال لهم إنه سيقيم «الرايخ الألماني» لألف سنة، ما سيحمي المواطنين الألمان والشعوب الألمانية الموزعة في أوروبا من الضائقة الاقتصادية وفي إطار عائلة واحدة، يحميها وتحمي بعضها البعض من المصاعب المالية التي كانت تعاني منها أوروبا في الثلاثينيات. وشحن هتلر فكرة «الرايخ» بأعمال سياسية استعراضية لم تكن معروفة في ذلك الزمن، فكان سباقاً

لعصره في إغراء الجماهير بالقوة والاستعراضات العسكرية وبفكرة الحزب الواحد القائد وبالنمو الاقتصادي المضطرد.

ولعل نيرون، لو كان حياً في عصر هتلر، قد رأى في فظائع أعماله الاستعراضية ما يشبه بعض ما قام به في روما. لقد كانت هذه «التوليفة» من الدعوة السياسية الغامضة وحرارة الزعيم في اقترابه من الجماهير، والشطارة السياسية في تسويق الأفكار التي لا مثيل لها ، هي التي جعلت الناس تراكم أصواتها للنازيين. كل ذلك لم يدفع الألمان إلى إعادة قراءة «كفاحي» ومقارنة ما كان يقوم به سياسياً في البلاد، بما جاء في الكتاب. ولم ينظر الألمان إلى أبعد من الرسائل المغرية التي كان يرسلها هتلر في خطاباته وإعلامه، فيسمعهم ما يريدون سماعه، ليس إلاّ.

فدور الشعب الألماني في صعود هتلر إلى السلطة، كان يعزى إلى الكسل العقلي وخداع النفس وتصديق ما لا يصدق، أكثر مما يعزى إلى الجشع أو حب العدوان أو الكره العنصري. قد تكون تلك سقطات عامة، دون سقطات هتلر نفسه التي أثبتت أنها قاتلة. تُرى هل نحن فعلاً اليوم، شعوباً قبل الحكّام، أكثر وعياً وحرية وابتعاداً عن هكذا خطايا، فنتفادى سقوطاً أخطر؟

□ □ □

في حال ستالين كان الوضع مختلفاً، الروس كانوا على استعداد لأن يعطوا تأييدهم لـ «وحش تاريخي» آخر كستالين، وهم الذين قبلوا بحكم «إيفان الرهيب». وكان الممثل الهزلي الشهير شارلي شابلن، الذي قام بتمثيل دور هتلر وتقليده بسخرية في عدة أفلام، يُسأل لماذا يرفض تمثيل دور ستالين، فيقول: «من الصعب جداً

القيام بتمثيل دور رجل من دون أخطاء أو كامل الأوصاف». وكان الكاتب الإيرلندي الشهير جورج برنارد شو ومعه بياتريس وسيدني وِب، مؤسسا الجمعية الفابية الاشتراكية في بريطانيا في الثلاثينيات، عضوين في جمعية المعجبين بـ «أنكل جو»، أو العم يوسف ستالين، التي كانت تضم لسنوات عديدة عدداً كبيراً من نساء ورجال يسار ـ الوسط في الأحزاب البريطانية، الذي كان بالنسبة إليهم جميعاً رجلاً بلا أخطاء. وكانت هذه حالة من التعامي الكسول، بل كانت رفضاً متعمداً للاعتراف بقصور ستالين الشخصي وفشل سياساته المتعددة داخل الاتحاد السوفياتي وخارجه. ذلك كله لأنه في رأي اليساريين البريطانيين، على تنوع مشاربهم، كان ستالين «حامي» العقيدة الاشتراكية.

أما اليوم، فلن نتردد ـ نحن المواطنين الرعايا ـ في أن نُخضِع أقل السياسيين تأثيراً إلى شعور متواصل بالاحتقار. لكن كل اللوم لكل العلل السياسية التي تحيط بنا لا يمكن أن نحمله لهم أو نضعه على أكتافهم. وإذا كان في مناخ الثقافة السياسية التي نعيشها، قد ضاع المضمون الفكري ـ السياسي لأي قضية، في أساليب تسويقها الحديثة، من علاقات عامة وإعلام متشعب الأطراف، فذلك لا يلام عليه السياسيون. فالسياسيون يقدمون لنا، نحن الشعب ـ رعايا ومواطنين ـ ما نحب أن نسمعه وبالطريقة التي تقنعنا وبالأسلوب الذي يرغّبنا بتلك الأفكار. فهم يخيطون الفكرة حسب القياس الذي نعطيهم إياه.

إن الشعب الذي يفشل في الالتفات إلى حقوقه المدنية، مثلاً، لا بد من أن يقع فريسة الحكام والسياسيين الذين لا يريدون هذه الحقوق ولا يعترفون بها. وهذا ما حصل مع سلوبودان ميلوسوفيتش في

يوغوسلافيا الجديدة، (صربيا والجبل الأسود). في هذه الحالة، استطاع الحاكم الالتفاف على قضايا الحريات والديموقراطية، بابتداع قضية قومية، ألهت الشعب عن حقوقه وشحنت الناس بالكراهية والعداء، وحرضت الأعداء بكل سلاح ممكن، وهم مختبئون وراء موقف أخلاقي عقيم، يدافعون عنه بالتكنولوجيا الحديثة. وكل ذلك قد أصبح ممكناً لأنه يعتمد على اللامبالاة الإنسانية والسياسية في الدرجة الأولى، وضعف العمود الفقري لعزيمتنا في مقاومة هذه الانحطاطات التي ابتلينا بها.

قد نتسلى بإلقاء اللوم على أوجاع الإنسانية، على التاريخ، بأشراره وأخياره. بأبطاله الوهميين وأبطاله الحقيقيين. فالجرائم التي يرتكبها الطغاة في التاريخ، ستستمر، ما دمنا نحن الشعوب لا نواجه أدوارنا الدرامية، التي بفضلها أوصلنا حياتنا السياسية ـ الوطنية إلى هذا الطريق المسدود. وستستمر هكذا، ما دامت كفة التاريخ تميل إلى الأبطال الأشرار، وتشيح بوجهها عن الأبطال الأخيار. ويبقى الشرير في الفيلم التاريخي أكثر جاذبية من البطل العاقل.

□ □ □

يبقى سؤال قد لا يجيب عليه التاريخ بالتفصيل، وهو لماذا من السهولة إرهاب الشعوب وتخويفها ومن الصعوبة ألّا يزول الحاكم إلاّ بأحد أمرين: أن تأخذه العناية الإلهية إلى أحضانها، أو أن ينزل السيف على النطع. فلا ملك الدين ولا ملك الحزم، ولا حتى ملك الهوى في منجى من هذا القدر، فدمار الدهر لا ينسيه لعب الساعة. أما خنوع الشعوب، فلا تفسير له إلاّ بحكاية من التاريخ العربي يرويها ابن عبد ربه في «العقد الفريد» أنه:

«لما أمر معاوية بن أبي سفيان بقتل حجر بن الأدبر وأصحابه، بعث إليهم أكفانهم وأمر بأن تفتح قبورهم ويقتلوا عليها. فلما قدّم حجر إلى السيف جزع جزعاً شديداً فقيل له:

ـ أمثلك يجزع من الموت؟

فقال: وكيف لا أجزع وأرى سيفاً مشهوراً وكفناً منشوراً وقبراً محفوراً».

□ □ □

وبانتظار شعوب غير مفتونة بـ«ظل الله على الأرض» نعود لنسأل، أين البطل الذي لا يجزع من السيف ولا يخاف القبر وإن حمل كفنه على كتفيه؟ ونعوذ «برب الفلق من شر ما خلق».

ما أقسى التاريخ إن سخر!

٤ ـ البلقان

القاصر الصربي والمهزوم الألباني!

■ «قال الحجاج لجامع:

- إني والله ما أرى أن أردّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلاّ بالسيف.

فقال:

- أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار.

فقال الحجاج:

- الخيار يومئذٍ لله.

فقال:

- أجل، ولكن لا تدري لمن يجعله الله؟». □

«العقد الفريد»

لابن عبد ربه

في الوقت الذي كان طيران حلف الأطلسي يقصف منزل رئيس صربيا سلوبودان ميلوسوفيتش، وهو البيت الذي أقام فيه زعيم يوغوسلافيا الماريشال تيتو ودفن في حدائقه، بالإضافة إلى مقر الحزب الاشتراكي الحاكم في بلغراد، (وهو أيضاً حزب تيتو الشيوعي سابقاً) ويدعو فيه الرئيس الأميركي بيل كلينتون إلى إسقاط «ديكتاتور الصرب الأوحد»، ميلوسوفيتش وإطاحة نظامه، كان الناس العاديون منشغلين بالأحداث اليومية

بعيداً عن حرب كوسوفو، وعن الظلال الرمادية لدور الدول الكبرى واستراتيجيتها في هذه الحرب المدمرة، وما سيتم بعدها عند التوصل إلى حل سياسي شبه دائم (لأن ليس هناك من حل دائم في البلقان) لمستقبل صربيا وكوسوفو بعد أن تسكت المدافع.

الدولة الكبرى الأساسية صاحبة الظلال الرمادية الأوسع في حرب البلقان كانت روسيا. ولم يكن لها من دور أساسي سوى معارضتها لقصف دول حلف الأطلسي لصربيا. إلاّ أن لروسيا، بالتأكيد، دوراً أساسياً سيحتاج له الغرب وحلف الأطلسي وقد اقتصر دورها، وهو قطعاً أساسي، على أنها الطرف والوسيط الوحيد المقبول من الصرب. ولأنها كذلك، فسيضطر الغرب الأطلسي أن يعطيها «جزرة» لترويض الصرب بها، بعد أن تكون قد أدت «العصا» مهمتها.

بادىء ذي بدء من الحري القول إن تاريخاً مشتركاً لروسيا والصرب يبدأ من أن كليهما شعب من السلاف وينتميان إلى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، كما تشكل صربيا جزءاً من دول البلقان وأوروبا الشرقية الحاضنة لحزام أمن الدول المحيطة بحدود روسيا الجنوبية. ولعل الشيوعية جزء من هذا التاريخ المشترك الذي انقطع. الحزب الشيوعي اليوغوسلافي كان جزءاً من «الكومنتيرن» ومنظومة الدول الشيوعية عندما وقع الخلاف التاريخي الشهير بين الماريشالين ستالين وتيتو في الخمسينيات وتمّ الطلاق السياسي بينهما. لكنه كان يتمتع باستقلالية جعلت منه حزباً شيوعياً كالحزب الشيوعي السوفياتي من دون أن يكون تابعاً له ويأتمر بتوجيهاته، كبقية الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية. وخرج تيتو من دائرة النفوذ السوفياتي، ليشكل حركة عدم الانحياز وينطلق بها

في دول العالم الثالث. ولم ترجع علاقات روسيا بيوغوسلافيا إلى شيء من الوئام إلاّ بعد موت ستالين في العام ١٩٥٣، ومن بعده موت تيتو في العام ١٩٨٠. وما طلب يوغوسلافيا الجديدة، أي صربيا والجبل الأسود، الانضمام إلى منظومة اتحاد كونفيدرالي ما مع روسيا وروسيا البيضاء الذي دعا إليه رسمياً مجلس النواب اليوغوسلافي، إلاّ دليل على الانتماء السلافي ـ الأرثوذكسي، الذي تريد صربيا أن تؤكده وتحتمي به اليوم.

إذاً فدور روسيا لم يبدأ منذ لحظة الغضب التي انفجر فيها رئيس روسيا بوريس يلتسين في ٩ نيسان ١٩٩٩ عندما قال إنه إذا أرسل حلف الأطلسي قوات برية إلى كوسوفو، فإن ذلك سيدفع روسيا إلى التورط في حرب هناك، مهدداً الدول الأوروبية بحرب عالمية ثالثة. ورافق غضبة يلتسين «المضرية» تصريح رئيس الأركان الروسي أنه أمر بتوجيه سلاح روسيا النووي إلى بلدان حلف الأطلسي. لكن سرعان ما كذبت مصادر رسمية روسية هذا الخبر في محاولة للتخفيف من صدمة هذا الكلام على آذان الدول الغربية.

□ □ □

في العودة إلى لغة الحرب الباردة، التي لم يُسْمَع صوتها منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، دليل على مدى الحرج الذي تشعر به روسيا منذ بداية أزمة كوسوفو. وهو شعور «عزيز قوم ذل»، يحمل غضباً عارماً عبر عنه الرئيس يلتسين في مكالمته الهاتفية الطويلة مع الرئيس كلينتون في ١٩ نيسان ١٩٩٩، والتي امتدت ٤٥ دقيقة، وإن لم يحسن التعبير بالتهديد. ويعتبر المراقبون أن عودة روسيا إلى لغة الحرب الباردة، كان فيها شيء من «الانتقام» من الديموقراطية التي

ألزمهم إياها الغرب. وثمة كره للديموقراطية وأعبائها في روسيا وحنين إلى الدولة الشيوعية السوفياتية المركزية. كما أن هناك شعوراً روسياً عارماً بازدراء السياسيين دعاة الديموقراطية الغربية.

وتولد انطباع لدى الروس، أن حلف الأطلسي ليس حلفاً عسكرياً يقوم بالدفاع عن أوروبا، بل حلف ينوي تصدير الديموقراطية بكامل المفهوم الغربي لها إلى دول الجوار. وقد ازداد هذا الشعور بالكراهية لحلف الأطلسي بعد عملية قصف يوغوسلافيا، وازداد معه التساؤل الروسي عما بعد القصف، وهل يصبح ذلك موقفاً سياسياً ـ عسكرياً يفرض فيه حلف الأطلسي مشيئته السياسية على الأنظمة الأوروبية، بما في ذلك مَنْ سيترأس هذا النظام أو ذاك؟

لنفهم وجهة النظر الروسية، علينا أن نذكر أنه منذ نهاية الحقبة السوفياتية قبل حوالى عشر سنين، شهد الروس انهيار الصناعة الثقيلة في بلادهم، وانهيار نظام الضمان الاجتماعي واستشراء الفساد المالي والإداري الذي كان نتيجة سياسة الخصخصة للقطاع العام والتضخم النقدي الكبير، والمشاريع المالية الفاشلة وانتشار الجريمة والمرض والفقر ونمو طفيليات المافيات، حتى أصبح التسول في الشوارع من مظاهر الحياة في المدن الروسية الكبرى. أضف إلى ذلك تفكك القوات المسلحة الروسية وهزيمة الجيش الروسي على أيدي الشيشان. وقد اكتملت الخيبة بانهيار العملة الرسمية الروسية ـ الروبل ـ في آب ١٩٩٨، إلى درجة جعلت روسيا غير قادرة على دفع ديونها، مما رمى بكل الإصلاحات الاقتصادية من النافذة. وجاء ضرب حلف الأطلسي لدولة قريبة لروسيا ـ عرقياً وتاريخياً ودينياً ـ ليكون بمثابة القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير

ودفعت ـ وستدفع ـ روسيا إلى تحديد علاقاتها بالغرب وتوجهها نحو دول العالم، على أسس مختلفة عما سبق.

وسيعبّر الغضب الروسي عن نفسه في عدة اتجاهات:

الاتجاه الأول: أن حلف الأطلسي ـ وهو العدو القديم ولمدة خمسين سنة ـ قد كشف بعملياته العسكرية في يوبيله الذهبي في البلقان، خططه التوسعية السياسية والعسكرية للوصول إلى حدود روسيا الجنوبية.

والاتجاه الثاني: أن دور حلف الأُطلسي الحالي، من دون شرعية دولية، قد حوّل عضوية روسيا الدائمة في مجلس الأمن الدولي وحق النقض الذي تملكه، إلى سلاح أبتر عديم القيمة والفائدة، خصوصاً أن القنابل هذه المرة تسقط على رؤوس الصرب السلاف، لا على رؤوس العراقيين العرب. فكان لذلك وقع صعب جداً على الروس، سيصعب التكيّف معه وسيحز مجدداً في أنفسهم، بل ويدفع بهم إلى البكاء على أمبراطوريتهم الضائعة.

وقد أثبتت الأيام عجز روسيا الكامل عن عمل أي شيء سوى احتمال ارتكاب عمل أحمق (بالمفهوم الدولي الحالي) في حال قررت التدخل إلى جانب الصرب بالسلاح أو الرجال. فإرسال سفن حربية روسية إلى بحر الأدرياتيك للقيام بأعمال استطلاع وتنصت على تحركات حلف الأطلسي العسكرية في البلقان، لم يكن إلاّ محاولة رمزية لإعلان تضامنها مع الصرب. يحدوها الأمل بأن تحركها المحدود هذا، قد يدفع حلف الأطلسي إلى مناداتها لإنقاذ الوضع من ورطة جنتها براقش الأطلسية ذاتها.

أما الوجه العملي لهذه المحاولة، فقد تمثل بالزيارة التي قام بها إلى

بلغراد فيكتور تشيرنومردين رئيس وزراء روسيا السابق والمبعوث الشخصي للرئيس يلتسين، في محاولة لوقف الحرب والخروج باتفاق مع ميلوسوفيتش يعلن فيه قبوله «بشروط معدلة» لما يطالب به الغرب (على أمل أن تكون قد أنهكته الضربات)، تكسب فيها روسيا معركة إحلال السلام في البلقان على حساب كل الأطراف المعنية، ولا يكسب فيها ميلوسوفيتش إلا بجدع أنفه. غير أن وساطة تشيرنومردين كانت تفتقد كسر رأس الرئيس الصربي اليابس.

□ □ □

وسط هذا الإطار النفسي الذي عاشته روسيا، كان هناك شعور لدى أكثر المراقبين أن دول الأطلسي، وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض الدول الأوروبية الغربية المشاركة، تقوم «بتدفيش» روسيا، وعدم إقامة أي اعتبار أو وزن لها. و«تدفيش» روسيا ليس في مصلحة أميركا ولا حلف الأطلسي، لأن هذا «التدفيش» لن يؤدي إلى تطفيشها أو إخراجها من الجغرافيا المحيطة بها أو من حركة التاريخ الفاعلة فيه. صحيح أن بوريس يلتسين كان المرض قد نال منه وتقلّص دوره، إلاّ أنه كرئيس وطني لكل الروسيا، كان مضطراً في الحقيقة لاتخاذ مواقف تعبر عن حقيقة عواطف عموم الروس كي يمنع مزايدة السياسيين والأحزاب عليه. خصوصاً أنه في الأزمة الأخيرة برز دور رئيس الوزراء يفجيني بريماكوف، كرجل روسيا القوي.

فبريماكوف سياسي يملك حاسة السوفياتي القديم الحذر الذي يعرف ويقدّر مكامن القوة والحاجة إلى الغرب. في الوقت نفسه أيضاً، هو إصلاحي حذر في الداخل. والحذر هي صفته الدائمة.

فقد وقف منسجماً مع مزاج البلاد في معارضته لقصف حلف الأطلسي وعبّر عن غضب الأمة بلغة سياسية معتدلة. ويقول بعض المراقبين، إنه لو كان هناك انتخابات رئاسية غداً في روسيا، لفاز بريماكوف بالرئاسة حتماً.

وأميركا تخاف بريماكوف وتراعيه في الوقت عينه، وتصفه دائماً بأنه «معلم الجاسوسية الأول»، مذكرة بدوره عندما كان رئيساً لسنوات لل «ك.جي.بي» المخابرات السوفياتية إبان عز الاتحاد السوفياتي في أيام الحرب الباردة، وكأن في دوره السابق وخبرته الاستخبارية مذمة أو خطراً ماثلاً. وتنسى أميركا أن رئيسها السابق جورج بوش، كان رئيساً أيضاً لسنوات لل «سي.آي.إي»، وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية دون أن ينتقص هذا المنصب من مؤهلاته كرئيس للولايات المتحدة، وصانع بدايات «النظام العالمي الجديد». وبريماكوف يشبه بوش في علاقاته المتعددة بالأطراف السياسية في بلاده. فله علاقات جيدة مع الشيوعيين الذين يسيطرون على أغلبية مجلس النواب الروسي (الدوما)، وله علاقات جيدة مع السياسيين القوميين المتطرفين، ومع الأحزاب الليبيرالية. وهو يريد أن تبقى روسيا في منأى عن الحرب في البلقان وأن تحافظ على علاقتها مع الغرب.

فالرجل الذي قطع رحلته إلى واشنطن وهو في الجو، وعاد إلى موسكو، عندما بدأ القصف على يوغوسلافيا، مضحياً بالاجتماع مع الإدارة الأميركية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، على الرغم من حاجة بلاده الماسة إلى مساعدات أميركا الاقتصادية، ثم الذي ذهب إلى بلغراد في أول محاولة ديبلوماسية فاشلة مع ميلوسوفيتش، يعرف أن الميوعة في المواقف الديبلوماسية لا تخدم

طلب المعونات الاقتصادية. هذا الرجل يعرف مدى تقلص حجم بلاده الاقتصادي الذي أصبح بحجم بلد كبلجيكا اليوم، ويعرف أيضاً أن بلاده تملك أسلحة الدمار الشامل، وبالتالي فهو يحتاج إلى حياكة علاقة صداقة مع الغرب، وإن كان هذا الغرب غير مرحب به ولا مرغوب بسياسته داخل روسيا.

□ □ □

وقد وجّه بريماكوف لميلوسوفيتش عندما زار بلغراد برفقة رئيس الاستخبارات الخارجية الروسية ومعه أيضاً رئيس الاستخبارات العسكرية الروسية، رسالة واضحة تقول ما معناه «إن كل جواسيسنا في مقر حلف الأطلسي في بروكسل، كذلك في واشنطن ولندن وباريس وروما وألبانيا ومقدونيا، هم تحت تصرفك حتى الرجل الأخير». فالاستخبارات كانت المجال الأساسي الذي تستطيع روسيا ـ ضمن المعطيات السياسية الحالية في أوروبا اليوم ـ أن تخدم الصرب فيه. فهناك أكوام من المعلومات ذات القيمة الاستخباراتية التي تجمعها روسيا يومياً، ولم يعد عندها القدرة على تحليلها والاستفادة منها منذ انهيار الاتحاد السوفياتي. وبوضع هذه الجبال من المعلومات أمام صربيا التي سوف تنتقي منها ما يفيد معركتها مع الغرب، تكون روسيا قد أدت بعض واجباتها بالمساعدة.

إضافة إلى إعارة موسكو جواسيسها لبلغراد، كان باستطاعة روسيا أن تضع تحت تصرف ميلوسوفيتش وحكومته كل المعلومات الهامة التي تلتقطها الأجهزة الإلكترونية وتوفرها التكنولوجيا الحديثة المتخصصة بالتنصت والمراقبة من الفضاء، والتي يتولاها ثالث أجهزة الاستخبارات الروسية (بعد الخارجية والعسكرية) وتعرف

بـ«فابسي» المنوط بها متابعة حركة الأقمار الاصطناعية وأجهزة الكومبيوتر والراديو والتليفونات، وكل أدوات وأجهزة الاتصالات اللاسلكية.

إن الخدمات الاستخباراتية هي واحدة من عدة خدمات كان يمكن لروسيا أن تقدمها إلى صربيا. والأوساط الدولية مليئة بالشائعات عن أنواع الأسلحة التي يقال إن روسيا هربتها سراً إلى بلغراد بواسطة «شركات خاصة». وتحدثت هذه الأوساط عن احتمال كبير، أنه لو تقدم ميلوسوفيتش بطلب رسمي وعلني إلى روسيا لتزويده بالسلاح، مما سيحرجها قطعاً، لاضطرت روسيا إلى كسر حظر تصدير السلاح علناً. ذلك لأن المدن الروسية كانت تجتاحها حمى الحماسة للصرب، حتى تم فتح مراكز تطوع للروس للقتال إلى جانب الصرب ضد قوات حلف الأطلسي. فإذا رفضت روسيا طلب يوغوسلافيا الرسمي، في حال حصوله، لوقعت في أزمة داخلية شعبية. وكان من الصعب تصور إرسال متطوعين مدنيين روس إلى الحرب في كوسوفو أو البلقان، وإن كان هناك عسكريون روس كثر ممن سُرّحوا من القوات المسلحة السوفياتية السابقة، كانوا عاطلين عن العمل وقتها. لكن لو طالت الحرب، لم يكن من المستبعد أن يصل متطوعون روس من أصحاب الخبرة السابقة في حرب الشيشان.

لكن مهما حدث، فإن روسيا من دون شك لم تكن لتستعمل سلاحها الثقيل ضد حلف الأطلسي، لأنها غير قادرة على التضحية بمليارات الدولارات من المساعدات الغربية (الأميركية في أغلبها) وأطنان من الأطعمة والأغذية من دول الاتحاد الأوروبي والتي لولاها للحقت بها انهيارات أكبر. وعلى الرغم من ذلك ازدادت

وتيرة اللهجة العقائدية القومية المتوترة والمعادية للغرب، وكثر معها استعمال مفردات الحرب الباردة، مع ازدياد العداء لحلف الأطلسي ولأميركا وللغرب عموماً. فهناك نخبة في البلاد من المسماة بـ «التوتاليريين الجدد» لم تهضم بعد زوال الاتحاد السوفياتي، وضياع مكانة روسيا كدولة عظمى، تعتقد أنه لا يمكن استعادة الأمجاد الضائعة إلاّ بالعودة إلى الأسلوب السوفياتي في الحكم، إنما بطبعة منقحة. وخصوصاً عندما ترى حولها الجمهوريات السوفياتية السابقة وبعض دول أوروبا الشرقية، وهي تناضل لوقف الانهيار الاقتصادي والسياسي بعد خروجها عن طاعة الأمبراطورية الروسية ـ سوفياتية. ونتيجة لموقف روسيا المعارض لتوسع حلف الأطلسي الذي لولا ضعفها لما كان قادراً على ذلك، تحلم هذه «النخبة» بخلق تحالفات جديدة لروسيا، خارج إطار العالم الغربي، تدخل فيها إيران والهند والعراق، وحتى إذا أمكن، الصين. وبما أنه لم يكن لروسيا من حليف سوى صربيا، لذلك كان الخيار بتأييد ميلوسوفيتش.

غير أن العلاقة الروسية ـ الصربية تاريخياً، لم تكن دائماً لبناً وعسلاً. فالعلاقة التاريخية بين موسكو وبلغراد، أيام يوغوسلافيا الشيوعية التي تأسست خلال الحرب العالمية الثانية والمقاومة للنازية، لم تدم أكثر من ست سنوات. ففي العام ١٩٤٨، غضب الماريشال تيتو من معاملة جوزف ستالين له، وكأنه أحد الجلاوزة الصغار الذين وزعهم على حكم بلدان أوروبا الشرقية، ورفض الانصياع لأوامر وتعليمات موسكو. والصداقة الروسية ـ الصربية التقليدية والدافئة اليوم، لم تكن موجودة في حينه. وبالمناسبة، لم يكن هناك أية علاقة، بين الكنيسة الروسية والكنيسة الصربية كما ظهر بعد

انهيار الاتحاد السوفياتي ومن بعده جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية الفيديرالية. فالزيارة التي قام بها في ٢٠ نيسان ١٩٩٩، ألكسي الثاني بطريرك موسكو وكل الروسيا إلى بلغراد للقاء نظيره الصربي البطريرك بافل بطريرك بلغراد وعموم صربيا، وإقامة قداس مشترك في باحة كاتدرائية القديس سافا الصربي، كانت مبادرة لا سابق لها في تاريخ العلاقة بين الكنيستين، وقداساً غير مسبوق لرأسي الكنيستين. فالشبه بين البلدين يمتد إلى الماضي، حيث خسرا سريعاً ما كانا يسيطران عليه من بلدان في الجوار القريب (روسيا خسرت الجمهوريات الآسيوية الإسلامية، وجمهوريات البلطيق وغيرها من البلدان التي كانت تشكل الاتحاد السوفياتي، وصربيا خسرت كرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا والبوسنة ـ الهرسك). كذلك كانا يُحكمان من قبل حزب أوحد هو الحزب الشيوعي، ويملكان جيشين جرارين وأجهزة مخابرات كثيرة العدد والتخصصات.

وفشل البلدان أيضاً في إقامة اقتصاد السوق الحرة. وكلاهما يحاولان بعد خروجهما من الشيوعية، «اختراع» عقيدة بديلة هي مزيج من القومية المتعصبة والاشتراكية البدائية. وكل من بريماكوف وميلوسوفيتش خريجا مدرسة واحدة، عَمِلا في مختلف أجهزة الحزب ومناصبه وتسلقا إلى السلطة بالطريقة ذاتها. وهناك مَنْ يتندر في البلقان، أن هذا التشابه بين البلدين قد وضع حداً نهائياً بعد خمسين سنة، لخلاف تيتو وستالين. فإذا استطاعت روسيا أن تنقذ صربيا من هجمات الغرب، فسيكون لها قصب السبق في ادعاء صداقة الشعوب الضعيفة والصغيرة. لكن إلى أن يتحقق ذلك، فسيستمر الدعم الروسي السياسي والديبلوماسي

والاستخباراتي والدعائي الإعلامي لصربيا ميلوسوفيتش إلى زمن طويل قادم. بعدها لكل حادث حديث.

□ □ □

نعود إلى السؤال بعد كل ذلك، مَنْ هو سلوبودان ميلوسوفيتش؟ ولماذا قرر الرئيس كلينتون إسقاط هذا «الطاغية»؟ ما هي الصورة التي يرسمها العالم له ـ والغرب تحديداً؟ هل هو صدام حسين آخر من البلقان أم هتلر آخر من أوروبا؟ الأسئلة عن ميلوسوفيتش أكثر من الأجوبة عن تلك الشخصية الصعبة.

بعض هذه الأجوبة يقول، إن هناك بعض الظلم في تشبيهه بهتلر الذي قاد أقوى أمة في أوروبا، بينما يبدو ميلوسوفيتش وبلاده صربيا، بالمقارنة، قزماً عسكرياً واقتصادياً، يتورط في حرب أهلية. أو كما وصفه هنري كيسنجر بأنه مجرد «قبضاي بلقاني». وليس لهذا «القبضاي» أية أحلام أمبراطورية واسعة، تتعدى حلم «صربيا الكبرى». وهو أيضاً ليس الزعيم البلقاني الوحيد المتورط بحكم مسؤوليته عن آلاف القتلى وتهجير مئات الآلاف من السكان. لكن الشبه مع هتلر يلح في نواحٍ أخرى، وخاصة في احتقاره للقانون وازدرائه القيم الإنسانية وعدم احترامه للوعود التي يقطعها والتي يتراجع عنها بعد ساعات أو أيام. ولعل آخر الأمثلة على ذلك، الوعد الذي التزم به في خريف ١٩٩٨ بالانسحاب من كوسوفو.

بالتأكيد ليست هذه هي الصورة الكاملة لميلوسوفيتش. فهناك الرجل المرح المحب للحياة، للموسيقى والغناء، ولكأس الويسكي أو الفودكا بين حين وآخر. وهو في حبه للترف وامتلاك الكماليات،

ولو على حساب نهب بلاده، يذكّر بزعماء جمهوريات الموز وجنرالات «التنك» في أميركا اللاتينية. ويقال إنه جمع ملايين الدولارات تحسباً لهربه ولجوئه إلى اليونان، حيث يذكر أنه دفع مقدماً ٨٠٠ ألف دولار من حساب يخت يزن عشرة أطنان.

وأما ابنه ماركو، الذي يسكن معه، فهو شاب لعوب، تعرفه علب الليل في العاصمة اليوغوسلافية، إلى جانب كونه سائق سيارات سباق فاشلاً. وبحكم ميول الابن ماركو الاجتماعية، فقد كان يدير أحد أكبر أندية بلغراد الليلية. ويقال أيضاً إن ماركو أقنع زوجته بالقيام بعملية تجميل لصدرها، تجعلها أقرب إلى الشبه من الممثلة السينمائية بريجيت نيلسون.

لكن هل ميلوسوفيتش، زعيم الحزب الشيوعي السابق والاشتراكي الحالي، الذي قبل بالتعددية الحزبية، هو في داخله وقلبه فعلاً رجل ماركسي شيوعي؟ الجواب لا.

عندما كان ميلوسوفيتش شاباً في الثامنة عشرة من عمره، في عهد الماريشال تيتو، كان يقدم نفسه كشاب شيوعي متحمس، حتى أصبح اسمه الذي يتندر به رفاقه: «لينين الصغير». لكن هذا الشيوعي المتعصب لم يكن أكثر من حزبي طموح يؤدي مهامه الحزبية على أدق وجه، سعياً وراء السلطة. إلا أن تقدمه في السلم الحزبي والسلطوي، كان يعتمد على الرجل الذي كان مقرباً منه والذي كان يدعمه وهو إيفان ستامبوليتش، الذي أصبح رئيساً ليوغوسلافيا في العام ١٩٨٥. حتى قيل إن ميلوسوفيتش لم يكن يجرؤ على الجلوس في حضرة ستامبوليتش إلاّ إذا أذن له الأخير بذلك. وكان كلما تخلى ستامبوليتش عن منصب من مناصبه، وهي عدة منها: رئيس الدولة، صاحب شركة للغاز، مدير أكبر

بنك في يوغوسلافيا، زعيم الحزب الشيوعي.. حلَّ محله ميلوسوفيتش. وكانت الغلطة المميتة التي ارتكبها ستامبوليتش، أنه أرسله كمساعد له إلى كوسوفو في العام ١٩٨٧، حيث بدأ بإثارة النعرات القومية والإثنية والدينية في الإقليم، وركب موجة القومية الصربية، فقام بحملة تطهير في الحزب الشيوعي اليوغوسلافي، ما أدى إلى الإطاحة لاحقاً بستامبوليتش حيث خلفه ميلوسوفيتش في رئاسة صربيا.

لكن هل ميلوسوفتيش قومي صربي بالمعنى العقائدي الصحيح؟

لقد كانت القومية الصربية عقيدة مناسبة للانتهازية السياسية التي يتمتع بها. فقد أقام، أول ما أقام، حلفاً مع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية، ودخل في حرب البوسنة بتشجيع الصرب البوسنيين باحتلال أكبر مساحة ممكنة من أراضي المسلمين في البوسنة، مع استمراره في نفي صفة القومي الصربي عن نفسه. ويقول مؤلف كتاب «سيرة حياة ميلوسوفيتش» سلافوليوب ديوكيتش، أن لا ولاء عنده لأية عقيدة أو شخص، ما عدا زوجته.

* * *

مَنْ هي زوجة ميلوسوفيتش؟

تعرف ميرا ماركوفيتش بـ «الساحرة الحمراء». وهي أستاذة علوم الماركسية في جامعة بلغراد، ورئيسة «حزب اليسار المتحد» الذي أسسته والذي يجمع في عضويته الأغنياء من رجال الأعمال، الذين وظّفت أعداداً منهم بطريقة فوقية في مناصب حكومية وعسكرية كبيرة. وميرا، هي ابنة مقاوم شيوعي حارب مع تيتو (وهناك إشاعة منتشرة أنها هي ابنة تيتو) تعرفت إلى ميلوسوفيتش

ووقعت في غرامه عندما كانا طالبين في جامعة بلغراد في الستينيات. ولم يفترق الزوجان منذ ذلك الحين. ويقال إن ميرا هي القوة الدافعة وراء نهم زوجها إلى السلطة. فكانت هي التي أقنعته بأن يتخذ القصر الملكي القديم في بلغراد مركزاً للرئاسة في صربيا، معيدة إصلاحه وترميمه وفرشه بلونها المفضل، وهو الزهري. وكانت هي صاحبة النفوذ الأقوى والمباشر على سياسة زوجها في البوسنة وبعد ذلك في كوسوفو.

قد يوحي هذا الوصف لزوجته أنه رجل ضعيف. ولكن هذا انطباع مخالف للحقيقة من وجهة نظر وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. فالصورة التي يرسمها جيرالد بروست المحلل النفسي في الوكالة، أن الديكتاتور الصربي شخصية خطرة لا حسابات أخلاقية لديها، مع الوقوع بين وقت وآخر، في حالات من الهبوط والإحباط. ويعزو المحلل النفسي الأميركي ذلك إلى أنه ورث حالات الإحباط من والديه. فقد ترك والده أمه وغادر المنزل ولم يعد، عندما كان ميلوسوفيتش طفلاً. وسرعان ما انتحر الأب فيما بعد. أما الأم فهي معلمة مدرسة متعصبة للأمور الأخلاقية، ومتشددة في معاملتها للبنات في المدرسة، حتى أنها كانت تكسر المرايا حتى لا تتطلع المراهقات فيها إلى وجوههن أو أجسامهن. وانتحرت الأم أيضاً عندما اكتشفت أنها مريضة بالسرطان. ويعتبر بروست، أن طفولة ميلوسوفيتش وانتحار والديه، هما وراء شراسة شخصيته واستقلاليتها وعدم ثقته بالآخرين، إلى درجة يصعب فيها عليه الشعور بآلام الآخرين وعذاباتهم.

في عودة إلى التساؤل السياسي، هل في شخصية ميلوسوفيتش ما يشير إلى أسباب مواجهته لدول حلف الأطلسي، وهل ارتكب

خطأً كبيراً في هذه الناحية؟ يقول المحللون عكس ذلك، إن ميلوسوفيتش كان يعرف تماماً ماذا يفعل. ولعله حسب في رفضه لشروط اتفاق رامبوييه للسلام (في ضواحي باريس)، أن ذلك سيدفع حلف الأطلسي لتنفيذ تهديداته وقصف صربيا ـ كما حدث ـ مما سيتيح له الهجوم على كوسوفو في حملة تطهير عرقي ضد الألبان، ثم يُدخل الروس في المشكلة كوسطاء سلام مما يعطيه على الأقل جزءاً مما يريده في كوسوفو.

محللون آخرون يقولون إن حلف الأطلسي كان مصمماً على ضرب ميلوسوفيتش وصربيا، لأن دول الحلف كانت قد قررت أن تختار تأييد جيش تحرير كوسوفو المتطرف مقابل الفرقاء الألبان المعتدلين. وهذا ما اتضح في محادثات رامبوييه، مما لم يترك للصرب خياراً. لكن الذي أصبح واضحاً هو أن ميلوسوفيتش بلعبه ورقة الصرب القومية قد استطاع دفع المعارضة الصربية له في الداخل، إلى تأييده ودعم سياسته في كوسوفو.

□ □ □

وسط هذا الجو المكفهر المفعم بالمأساة الإنسانية، لا أحد يعرف حقيقة موقف الصرب وعنادهم في تأييد ذلك «القبضاي الصربي». ولعله ليس هناك من خيار لأهالي يوغوسلافيا إلاّ قيام صربي من بينهم يقول قول ذلك الرجل (نقلاً عن «حدائق الأزهار» لابن عاصم الغرناطي) الذي سمع الخليفة المنصور يقول لأهل الشام:

«ألا تحمدون الله الذي رفع عنكم الطاعون منذ ولينا أمركم؟

فقال له رجل:

ـ الله أعدل من أن يجمعك والطاعون علينا».

ألا يكفي أهالي صربيا وكوسوفو، ما أنزل زعيمهم من مجازر على البلقان حتى ارتوت أرضهم دماءً بعد دماء على مدى ستة قرون؟ حتى باتوا يفرون إلى عدالة الله من إرث بلوى عظيمة إلى نقمة سلطة مقيمة؟


حكاية
الإسلام السياسي

١ ـ الشيشان

أسامة: أمير الظلمات!

■ «قيل لرجل في الحرب:
ـ لا تهرب، فإن الأمير يغضب عليك.
فقال: غضبه عليّ وأنا حي خير من رضاه عني وأنا ميت».□

«حدائق الأزاهر»
لابن عاصم الغرناطي

عزيزي أسامة،

عذراً لرفع الكلفة في مخاطبتك، ونحن لا نعرف بعضنا البعض. فالكتابة إليك ـ أو عنك ـ أمر محفوف بالمخاطر بالنسبة إلى كاتب عربي، في عصر العولمة «الأميركية ـ الخليجية» للصحافة العربية، التي فرضت الكتابة بقلم واحد ومداد واحد.

أولى هذه المخاطر بروتوكولية الشكل، حيث لا أستطيع أن أخاطبك بلقب العلامة أو الشيخ أو الداعية أو الفقيه أو الدكتور، فأنت لست واحداً من هؤلاء. كذلك ليس من الممكن أن أخاطبك بلقب «الإرهابي» كما يحب الأميركيون أن يسموك، أو «المنشق» (عن ماذا) كما يحب أبناء بلادك أن يدعوك، وأنت ـ في رأيي ـ لست أيضاً واحداً من هؤلاء. فإذا كانت ألقاب العلم متفقاً عليها، فإن تهم الإرهاب وألقاب الانشقاق مختلف عليها. لذا وجدت من

اللائق أن أبدأ حديثي معك بألفاظ المودة التي تعارف عليها الناس، وإن اختلفوا في الرأي والتوجه. فكنت العزيز أسامة.

أكتب إليك هذه الرسالة المفتوحة، بتحريض مباشر من صراع الإسلاميين مع الليبيراليين في الكويت لوأد الرأي الآخر ومنع الاجتهاد، وكذلك من أخبار حرب الروس على الشيشان ومأساة الدمار في القوقاز الشمالي وما يُقال عن دورك في كل ما يجري هناك، مما يعطيك ـ إذا صحت هذه الاتهامات ـ دوراً كبيراً ما تصورت أنه لك أو أنك قادر عليه.

غير أن الدافع الأساسي للكتابة هو خوفي عليك، وقد تضافرت القوى المعادية لك للمساومة على رأسك. وقد تتساءل لماذا أنا خائف عليك، فأقول لأنك أصبحت تمثل رمزاً بالمطلق لبعض الناس دون تحديد متفق عليه لهذا الرمز. أصبحت رمزاً للإرهاب، ورمزاً للحرب على الأميركيين والروس، ورمزاً للأصولية والدعوة الوهابية، ورمزاً للإعلام المسلح والمقاتل. ولأنك كذلك فستبقى مطارداً طوال حياتك حتى تُقتل، فأنت لست من طينة «سجناء الرأي» أو «معتقلي الإرهاب». وإذا كان لا بد من الموت، فمن الضروري، كي تبقى ذلك الرمز للمناضل الذي يقول لا، أن تموت واقفاً! لذا رغبت بحوار معك في قضايا عدة، بعضها يمسّك مباشرة، والبعض الآخر يعنيك من قبل العلم بالشيء. فإذا لم أستطع أن أعرف رأيك، فعلى الأقل أسمِعُك رأيي.

□ □ □

بدأ خوفي عليك عندما فرض مجلس الأمن في الأمم المتحدة، في ١٥ تشرين الأول ١٩٩٩ عقوبات مالية واقتصادية على زعماء

حركة طالبان الحاكمة في أفغانستان، أو أن يسلموك (لبلد ثالث على الأقل) لمحاكمتك بتهم التدبير لتفجير سفارتين أميركيتين في شرق أفريقيا في العام ١٩٩٨. وأيّد كل أعضاء مجلس الأمن الخمسة عشر مشروع القرار هذا الذي تبنته الولايات المتحدة. على أن تسري العقوبات على أفغانستان اعتباراً من ١٤ تشرين الثاني ١٩٩٩، ما لم يتم تسليمك في الموعد المحدد.

فإلى جانب العقوبات المالية، نص قرار مجلس الأمن على حظر رحلات الطائرات التي تملكها شركة الطيران الأفغانية «أريانا» والتي لها رحلة دولية واحدة في الأسبوع إلى دبي. كما دعا القرار كل الدول إلى تجميد الحسابات المصرفية والممتلكات الخاصة التي تملكها أو تديرها حركة طالبان، وهي في معظمها حسابات الدولة الأفغانية. ولم يُستثن من هذا الحظر الجوي سوى رحلات الحجاج الموسمية إلى السعودية، وكأن هناك حرصاً أميركياً على أن لا يفوت المسلمين فرض من فرائض الإسلام الخمسة، خصوصاً الحج. وقرار الحصار الجوي هذا على أفغانستان له مضاعفات خطيرة على البلاد، لأنها لا تملك بحراً ولا نهراً ولا مطلاً على شاطىء.

وأفغانستان محاصرة اليوم بسببك في الدرجة الأولى، أكثر مما هي محاصرة بسبب حكم أو سياسة الطالبان. فأنت العذر القابل للاستعمال أميركياً، وأنت الضحية التي ستكونها عندما ينتفي هذا العذر. فالطالبان أبدت استعدادها العلني لواشنطن للدخول في محادثات غير مشروطة من أي جهة، للحد من الإرهاب الذي تتهمها الإدارة الأميركية برعايته، أي تسليمك جسدياً كزعيم ورمز إرهابي. فالطالبان لا تمارس «إرهاباً» من أي نوع خارج حدود أفغانستان. وهذا ما لا يعني أميركا.

وذهبت أميركا إلى أبعد من ذلك عندما طلب وزير الدفاع الأميركي وليم كوهين في جولته الخليجية الأخيرة في تشرين الأول ١٩٩٩، خلال وجوده في أبو ظبي من دولة الإمارات العربية المتحدة أن تقوم بتجميد ما لأسامة بن لادن من أموال في البلاد وبتتبع المعاملات المصرفية والمالية التي يعتقد أنه يقوم وأنصاره بها في المصارف المحلية. وذهب وزير الدفاع الأميركي إلى الطلب من أبو ظبي أن تجمد علاقاتها الديبلوماسية مع كابول، لأن الإمارات هي الدولة العربية الوحيدة التي لها علاقات مع حركة الطالبان وقد لجأت إلى الاعتراف بشرعيتها في أفغانستان. وكانت السعودية هي الدولة العربية الأخرى التي اعترفت بالطالبان وأقامت علاقات ديبلوماسية معها. لكن سرعان ما قطعت هذه العلاقة بناء على رغبة أميركية بعد اتهام أسامة بن لادن بتفجيرات كينيا وتانزانيا، والحملة الأميركية الهادفة إلى مطاردته.

ولم تكتف أميركا بالطلب من دولة الإمارات تجميد أموال أسامة بن لادن إن وجدت في مصارفها، إذ ما إن غادر وزير الدفاع الأميركي وليم كوهين أبو ظبي، حتى وصل إليها وزير الدولة للشؤون الخارجية البريطاني بيتر هين، ليبحث مع المسؤولين الإماراتيين قضية بن لادن، ويجدد الضغوط من أجل تعقب الحسابات المصرفية المحتملة له في الإمارات. وبالغت بريطانيا (التي هي حليف تاريخي للإمارات والدولة الأكثر نفوذاً وصداقات فيها) في الحماسة وتطوعت بإرسال وزير دولة في حكومتها إلى العاصمة الإماراتية للبحث في موضوع بن لادن (ضمن مواضيع أخرى بالطبع) دعماً للرغبة الأميركية بالتهويل على أبو ظبي، في الوقت الذي كان وزير خارجية بريطانيا روبين كوك يزور إسرائيل ويعتمر

القلنسوة اليهودية خلال زيارته لنصب ضحايا المحرقة النازية. في هذا المناخ المحموم من صيد الأيائل والأرانب البرية على الطريقة الغربية، يبدو أن أحداً لن يقرأ الفاتحة على روح بن لادن فيما لو أحرقه الأميركيون أو الروس أو من يهمه الأمر.

□ □ □

لكن لا أخفيك أيها العزيز أسامة، أن الذي أخافني هو رد زعيم الطالبان الملا محمد عمر على الطلب الأميركي بتسليمك، بقوله «إن بن لادن مسلم مجاهد في أفغانستان ضد الشيوعيين وتسليمه بالنسبة إلينا صعب جداً، كصعوبة تركنا ركناً من أركان ديننا». فعندما يضعك زعيم الطالبان بهذا المصاف، أخشى أن يكون ذلك تمهيداً للتضحية بك، لإنقاذ أركان الإسلام الخمسة الباقية. في الوقت نفسه يذهب زعيم الطالبان إلى القول إن أسامة بن لادن كان موجوداً في أفغانستان قبل مجيء الطالبان، ولا يعتبر وجوده «يمنع العالم من الاعتراف بنا» («الحياة» ١٨/١٠/١٩٩٩). لذلك أعاد الملّا عمر الدعوة إلى إجراء حوار من أجل حل المسألة (أن تكون أو لا تكون) طارحاً «تشكيل لجنة من علماء أفغانستان والمملكة العربية السعودية للنظر في قضيته».

ومما يزيد في خوفي تغيير النظام في باكستان، وتأييد حركة طالبان وزعيمها للانقلابيين الباكستانيين، بعد أن ساءت العلاقات بين الطالبان ونظام نواز شريف السابق الذي نتيجة لضغوط أميركية عليه، طالب بتسليم أسامة بن لادن إلى باكستان بناء إلى رغبة واشنطن بتسليمه إلى بلد ثالث، تمهيداً لمحاكمته. لذلك تأمل حركة الطالبان من العسكريين الجدد في باكستان، أن يكونوا أكثر مقاومة للضغوط والمطالب الأميركية في رفض حصار أفغانستان، ورفض

التعاطي مع قضية بن لادن، أي شكل اتخذت. وكانت حكومة نواز شريف قد اتهمت الطالبان بتدريب «إرهابيين» في ما أسمته «مدارس خاصة للإرهاب» في قندهار، للقيام بأعمال تخريب في كراتشي والبنجاب، وأنهم يقفون وراء عمليات القتل الطائفية التي اجتاحت مناطق باكستان وتكرر حدوثها خلال حكم نواز شريف.

وفي الوقت الذي تضيّق الولايات المتحدة الخناق عليك، وتطالب بك حياً أو ميتاً، عبر نفوذها في كل المنظمات الدولية، تبدي بلادك عدم اهتمام بمصيرك. فقد أكد الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي أن المملكة غير معنية بموضوعك إذ دعا مجلس الأمن في قراره حركة طالبان إلى تسليمك وإلا يطبق الحصار والحظر على أفغانستان. واللافت في كلام الأمير نايف أنه قال: «لا يعنينا أسامة بن لادن. الذي يعنينا المواطن السعودي، وهو ليس سعودياً» (الشرق الأوسط ٢٥/١٠/١٩٩٩).

كل هذا في الوقت الذي كان يعرب فيه عبد الحكيم مجاهد مندوب حركة طالبان في نيويورك عن الأمل في أن تحل مشكلة بن لادن بين الحكومة الأميركية وطالبان، ودياً، بعد أن اجتمع مجاهد مع كارل اندر فورث مساعد وزير الخارجية الأميركية لشؤون جنوب آسيا، في ٢٠ تشرين الأول ١٩٩٩، وردّت الإدارة الأميركية بلا مبالاة على عرض وزير الإعلام الطالباني أمير خان متقي الذي دعا إلى التفاوض مع واشنطن بشأن بن لادن، بعيداً عن التهديد والترهيب والضغط، ومما قالته الخارجية الأميركية أن المطلوب من طالبان «ليس الكلام وإنما الأفعال. أي تسليم بن لادن لدولة تكون قادرة على إحالته إلى العدالة».

□ □ □

منذ اليوم الأول الذي ذهبت فيه يا أسامة إلى أفغانستان وأنت في الثانية والعشرين من عمرك، مجاهداً ضد «القوات السوفياتية الملحدة» التي احتلت بلداً إسلامياً، إلى اليوم الثاني (بعد عشر سنين) الذي عدت فيه إلى بلادك السعودية قبل حرب تحرير الكويت، إلى اليوم الثالث الذي اضطررت فيه لمغادرة السعودية إلى السودان، حتى اليوم الرابع الذي أعادك إلى أفغانستان بعد تضييق الحصار عليك وطردك من السودان. في غضون هذه الأيام الأربعة التي امتدت حوالى عشرين سنة، وصلت إلى اليوم الخامس، ولعله الحاسم، وهو دورك وما يقال عنه، في حرب الشيشان والروس. هل صحيح أنك المموّل والمحرض على أحداث داغستان (بداية) والشيشان (تتمة) وتفجيرات موسكو (متابعة) وإعلان استقلال دول الإسلام القوقازي (نهاية)؟ ولماذا؟ أما إذا كان ذلك صحيحاً؟ فهل أنت صاحب نظرية إسلامية قومية جديدة في هذه الجغرافيا السياسية المعقدة؟

هل كنت فعلاً المحرض على ما يجري في القوقاز، لا هدف له إلاّ الانتقام مما فعله الروس السوفيات في أفغانستان بعد حوالى عشر سنين من انسحابهم من هناك وبعد انهيار الأمبراطورية السوفياتية. أم أنك اعتبرت أن مقاومة الشيوعيين السوفيات إبان احتلالهم لأفغانستان كان الجهاد الأصغر، وأن مقاومة الروس في عقر تخوم حدودهم الإسلامية في القوقاز، هو الجهاد الأكبر. ولكن هل ما حدث هناك هو بالفعل جهاد، صغيراً كان أم كبيراً؟

أنت متهم يا أسامة من قبل الروس، وقد أقنعهم الأميركيون بذلك استناداً إلى تقرير من وزارة الخارجية الأميركية إلى الكونغرس، يقول إنك تقف وراء ثوار القوقاز. ويتهمك التقرير الأميركي نفسه

بأنك على علاقات بصدام حسين، وأن الرئيس العراقي ومخابراته يستعينون بك لقضاء بعض حاجاتهم ذات المصالح المشتركة. ولكل منكما الأعداء ذاتهم في واشنطن والغرب. ويزيد الخبراء الغربيون في الشؤون الروسية، بأن هناك أدلة، على أنك وإن لم تشترك مباشرة في عمليات التفجير في المدن الروسية، قدمت أموالاً للذين ارتكبوا هذه العمليات. ويؤكدون أن هناك مجموعة من المقاتلين يعملون تحت إمرتك اشتركوا ويشتركون حالياً في القتال ضد الروس في الداغستان والشيشان. («الإيكونوميست» ـ ٩/ ١٠/١٩٩٩).

ما هي قضيتك اليوم يا أسامة؟

هل هي الإسلام في القوقاز، أم هي السياسة في داغستان والشيشان، أم المواجهة الثانية مع روسيا، وهي العدو الأساسي لك، بعد أن أنهيت علاقتك مع أميركا ـ وهي حليفتك السابقة في أفغانستان ـ بعمل ضوضائي صارخ هو نسف السفارتين الأميركيتين في نيروبي ودار السلام ووصل عدد ضحاياهما إلى أكثر من مئتي قتيل.

قبل ذلك، مَنْ أنت يا أسامة وماذا تريد؟

هل أنت بطل وطني، يقاوم الاحتلال الأجنبي الغربي لبلاده والدول الإسلامية الأخرى؟ أم أنت مجاهد إسلامي يحارب بسيف الإسلام المسلول أعداء الإسلام في كل مكان. أم أنت داعية أصولي تملك فكراً إسلامياً مغايراً لما هو سائد في الساحة الإسلامية الفكرية من دعوات ومذاهب. أم أنك وهابي مجدد لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تريد أن تعيد الإسلام إلى أصوله. فأنا من

الذين لا يصدقون بأنك إرهابي في سبيل الإرهاب، بالمعنى الغربي المتعارف عليه للكلمة، والمعنى الإسلامي الممارس في مصر والجزائر. لذلك يجد الكثيرون ممن يعجبون بصلابتك أنك مناضل من غير قضية عملية، لا تستطيع بأموالك أن تغيّر العالم ولا أن تدمره. فالدفاع عن حرمة الأراضي العربية والإسلامية المقدسة من تدنيس المستعمرين الجدد، مبدأ نبيل شرط أن لا يستبدل طغياناً أجنبياً بطغيان إسلامي.

ولا داعي يا أسامة، أن ألفت نظرك، إلى الخبر الذي أذاعته وزارة الدفاع الأميركية عن الاتفاق مع حكومة الكويت على خطة توسيع وتطوير ثلاث قواعد جوية وقاعدة للمشاة تستخدمها القوات الأميركية في الكويت، وذلك أثناء زيارة وزير الدفاع الأميركي وليم كوهين للكويت في ٢٣ تشرين الأول ١٩٩٩. وبالتالي فإن زيادة رقعة الأراضي العربية التي تحتاج إلى تحرير من المستعمرين الجدد، تستحق منك التفرغ لها، دون أن تتلهى بجبهات بعيدة عن وطنك، أكانت في القوقاز أو في القرن الأفريقي، مهما كانت دنيا الإسلام واسعة.

□ □ □

لو قدّر لي أن أجتمع بك اليوم، لحدثتك عن خوفي منك ومن امتداداتك الإسلامية الأصولية وسألتك عن الصراع بين الإسلاميين والليبيراليين في الكويت، وعن انتخابات الأونسكو. ولاستوضحتك عن رأيك تحديداً في قضيتين كويتيتين لهما علاقة بالتسلط الذي يمارسه الإسلاميون على مواضيع الفكر وحرية الاجتهاد والتحليل في تاريخ الإسلام والسياسة الإسلامية.

لسألتك عن رأيك في الذي قاله الدكتور شملان العيسى وقبله الدكتور أحمد البغدادي، وكلاهما أستاذان مرموقان في جامعة الكويت. الأول قال إنه لا يريد أن تحكم الكويت بواسطة الشريعة الإسلامية على طريقة أصحابك الطالبان في أفغانستان. والثاني اجتهد في أسباب الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، ومدى نجاحها وفشلها. وحلت الكارثة عندما نبش الإسلاميون من بطون المجلات والصحف ما قاله الرجلان قبل سنوات.

الدكتور شملان العيسى، أستاذ للعلوم السياسية في جامعة الكويت، سبق أن التقيته وعرفته في عدة ندوات ومؤتمرات سياسية وفكرية جمعتنا في بريطانيا والمغرب وبيروت، لفت نظري بحيويته وجرأته واندفاعه، وخصوصاً في الفترة التي تلت حرب الخليج الثانية، والتي صبغت معظم المثقفين الكويتيين تحديداً والخليجيين عامة، بطابع «الضد» لكل ما هو صاحب رأي مغاير لتصورات دولهم ومقولات حكوماتهم وتصريحات شيوخهم وأمرائهم ووزرائهم. وما أثار انتباهي في آراء الدكتور شملان العيسى المعلنة داخل الندوات أو خارجها في الأروقة، تحررها من المسلمات المحافظة ودعوتها إلى الديموقراطية وممارستها. ومرت فترات لم ألتقِ بالدكتور العيسى، إما لأنني لم أعد أدعى إلى ندوات أو مؤتمرات، أو لأنه لم يعد هو يحضر ـ أو ربما يدعى ـ لحضور ندوات من النوع الذي كان يجمعنا.

إلى أن حصلت قضية الدكتور أحمد البغدادي، الأستاذ الكويتي الذي حُكِم في الكويت بالسجن لمدة شهر بتهمة الإساءة إلى الإسلام، والذي أفرج عنه بعفو من أمير الكويت بعد أن قضى نصف مدة العقوبة في السجن. والبغدادي (الذي لم أتشرف

بمعرفته) رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة الكويت، حكم بالسجن بسبب مقالة كتبها عام ١٩٩٦ انتقد فيها النبي محمد لفشله خلال ١٣ سنة في إقناع وجهاء مكة بالانضواء تحت لواء الإسلام قبل هجرته إلى المدينة، مما اعتبر من قبل «الإسلاميين» في الكويت أنه كلام يتضمن تطاولاً على الرسول، خصوصاً القول إنه لم ينجح في نشر الدعوة في مكة، ولكنه نجح في المدينة المنورة. وكانت آراء البغدادي قد نشرت في مجلة جامعية محدودة الانتشار باسم «الشعلة» تصدرها رابطة العلوم الإدارية لطلبة جامعة الكويت وقد قضى البغدادي بنتيجة الشكوى التي رفعتها المجموعات الإسلامية أربعة عشر يوماً في السجن لكلام قيل في حديث لمجلة صغيرة قبل أربع سنوات، وكأن قراءته بحاجة إلى هذه المدة الطويلة كي تفعل فعلها فيبزغ ضوء النهار من وراء حجاب الليل الكثيف!

□ □ □

نتيجة لمضاعفات عملية اعتقال البغدادي و«المواجهة» التي أسفرت عنها بين الإسلاميين والليبيراليين في الكويت تحركت النيابة العامة الكويتية بضغط من هؤلاء الإسلاميين لتفتح تحقيقاً مع الدكتور شملان العيسى لأنه كتب مقالاً في مجلة «مرآة الأمة» الصادرة عن دار جريدة «الوطن» (٤ أيلول ١٩٩٩) رفض فيه فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية في الكويت. ومما قاله العيسى في هذا المقال: «أتمنى أن لا أرى تطبيق الشريعة كما تريدها جماعات الإسلام السياسي، وأرى الشريعة لا تطبق إلاّ عندما تكون الأرضية مهيأة لها كما كان الأمر في المجتمع الإسلامي الأول. أما في المجتمعات الحديثة التي نعيش فيها فالأرضية غير مهيأة لتطبيقها». وزاد أن

«الشريعة كثيراً ما كانت تطبق على الصغار من دون الكبار ولا نريد أن تكون الكويت دولة «طالبان» ثانية».

وكانت النيابة العامة الكويتية قد حققت مع العيسى بناء على دعوى رفعها ضده مواطن كويتي اسمه عبد العزيز علي السلطان، الذي قال عنه العيسى إنه لا يعرفه ولم يكتب عنه، ولا يفهم «كيف يحق لشخص لم يتضرر مما كتبته أن يشكوني إلى القضاء. لا أدري منذ متى كانت محاكمنا في الكويت تأخذ بنظام الحسبة الإسلامي»! في اليوم الثاني ونتيجة لهذا التصريح، أقامت مجموعة من الإسلاميين شكوى قضائية ثانية ضد العيسى لما اعتبره الإسلاميون «رفضاً صريحاً للنظام الإسلامي للحكم». وتقول هذه المجموعة إن العيسى في تصريح له لإحدى المجلات يقول «إن النظام الإسلامي لم يُخلِّف إلاّ الفساد في الدولة الإسلامية»، وفي هذا طعن مباشر بالدين. وأشار الأمين العام للحركة السلفية في الكويت الشيخ حامد العلي، إلى تزايد نشر ما يسيء إلى الإسلام في الكويت، مما يوحي بأن دوائر أجنبية معادية للإسلام تقف وراءه وتحركه لأهداف سياسية.

هذه هي صورة «الصراع الإسلامي» الجديد في مشرقنا العربي، يا عزيزنا أسامة، إذا كنت لا تقرأ وأنت في كهفك أو معسكرك في أفغانستان الصحافة العربية أو الكويتية. بقي شيء واحد لفت نظري في موضوع المواجهة الفكرية في الكويت، جدير بأن يلفت نظرك ولو عن بعد. وهو ما صرّح به الدكتور بغدادي قبل دخوله السجن في الكويت، أو ربما بعد خروجه، أنه ينوي ترك بلاده الكويت والرحيل عنها للإقامة في لبنان. وأتمنى على الدكتور بغدادي أن يكون تصريحه هذا من قبيل ردة الفعل الغاضبة على

سجنه، ولسمعة لبنان التقليدية كبلد الحريات. لذا أتمنى عليك يا أسامة، أن تدعو الدكتور بغدادي إلى أفغانستان أو إلى داغستان أو بلاد الشيشان، فتنقذ سمعة لبنان، حتى لا يأتي لعندنا فيخيب ظنه ويسقط في يده عندما يكتشف أن سمعة حريات الكتابة والتأليف والمسرح والغناء والإبداع بمجملها ما هي إلاّ من قبيل «الترويج السياحي» ذي الادعاء الثقافي. وما يحدث في لبنان، لولا بعض الهنات الهينات، ليس بعيداً عما يحدث في الكويت.

□ □ □

وما دمنا في سياق الحديث عن الكويت، وعن الإرهاب الفكري الذي يدور في العالم العربي يا عزيزنا أسامة، وأنت «الإرهابي» المسلم الأكثر تألقاً اليوم في العالم، قد يهمك الاطلاع على معركة الأونسكو وفشل مرشح جامعة الدول العربية ومنظمة العالم الإسلامي، أي ما كان يمكن أن يكون أول مدير عام عربي للمنظمة الدولية الأولى والأكثر أهمية وثقلاً في عالم الثقافة والعلوم والفنون والآداب والحريات. ما أريد نقله إليك وأنت بعيد في مجاهل أفغانستان، أن هذه الخسارة غير المشرفة لنا كعرب لا تعود إلى كفاءة أو عدم كفاءة المرشحين، إنما تعود إلى قصورنا في فهم معارك من هذا النوع التي لا تحسمها «ديبلوماسية الشيكات» ولا المصالح الاقتصادية بين الدول، ولا حملات العلاقات العامة ومقالات التملق والنفاق لمرشح ما ومقالات القدح والذم والسخرية لمرشح آخر. الذي يحسمها هو صورة البلد الذي يمثله ذلك المرشح، مهما تمتع بالمواصفات المطلوبة.

وصورة البلد المطلوب رئاسته لـ الأونسكو، لا تنطبق على أي بلد عربي على الإطلاق بما فيه لبنان. لأن الوصول إلى ذلك المنصب

يتطلب من ذلك البلد تاريخاً طويلاً من الديموقراطية والنضال من أجل الحريات واحترام حقوق الإنسان. لذا فشلت ولاية مختار أمبو (المسلم) في رئاسة الأونسكو طوال السبعينيات والثمانينيات، لا لعدم كفاءته الإدارية وسياسته الثقافية التي تسببت بانسحاب عدد من الدول الغربية من المنظمة الدولية ومقاطعتها مثل أميركا وبريطانيا، بل لأن بلاده السينغال لا تملك التقاليد الديموقراطية في الحريات، ولم يستطع ممثلها إلاّ أن ينقل جزءاً من شخصية بلاده الأفريقية غير الديموقراطية في التعامل الثقافي والسياسي إلى المنظمة. وبالتالي، فإن أي عربي ليس بقادر أن يمارس أي دور في حماية الثقافة والدفاع عنها في بلده لا يستطيع أن يدافع عنها في منبر عالمي. وهو إذا كان كاتباً أو مؤلفاً ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ لا يستطيع أن يقنع الرقابة في بلاده أن تفسح لكتاب من تأليفه ولا يستطيع أن يقنع دولته أن رقابة المطبوعات والمصنفات الفكرية أمر عفا عنه الزمن، خصوصاً في عصر التقنيات الإلكترونية المتقدمة في مطلع القرن الواحد والعشرين، ومن لا يستطيع ذلك لن يستطيع أن يقنع العالم بحريات أبسط.

مهما كان سجل المرشح العربي ـ أو غيره ـ ناصعاً، فإن الأهم أن يكون سجل بلاده وحكومتها أفضل من سجله. وليس صحيحاً أن خسارتنا لمعركة الأونسكو كانت نتيجة للصراع السعودي ـ المصري على المنصب، إنما هي تعود لتنطحنا إلى مناصب نحن أهل لها كأفراد، ولكن لسنا أهلاً لها كدول وأقاليم وقبائل وعشائر وطوائف، مهما أغرتنا رعونة السلطة وأعمتنا طفرة المال. ربما نطمح مستقبلاً إلى هكذا منصب عندما نصبح دولاً ديموقراطية تحترم الحريات وتشجع الإبداع وتقيم المؤسسات الثقافية وتؤمن بسيادة

القانون والفصل بين السلطات، ليس فيها رقابات ولا وزارات إعلام وثقافة، لا مهمة لها إلاّ استنباط قوانين للحجر الفكري الإعلامي والثقافي، على كل عمل إبداعي جريء.

إن الحديث عن هذه المسألة تحديداً يا عزيزنا أسامة، هو من قبيل الإضاءة على «معركة» شغل العرب بها منذ مطلع العام ١٩٩٩، وصرفوا عليها الأموال الطائلة والجهد القليل، دون أن يدركوا أن هناك معارك أهم كانت تستحق الجهد الكبير والمال القليل، وهي بناء الديموقراطية وتغذية الحريات، لمنع التصحر عن التربة العربية. كل هذا في الوقت الذي كنت تفتح جبهة جديدة في القوقاز، وتغلق جبهة قديمة في أفغانستان، وتنتظر فرصة جبهة عربية - إسلامية ما، تعيد لك المبرر كرجل الساحة الإسلامية الأول الذي تحاربه أكبر وأقوى دولتين في العالم، وكأن داوود وجوليات قد بعثا من غياهب التوراة، إلى التاريخ المعاصر من جديد.

□ □ □

الحديث معك وعنك، يا عزيزنا أسامة، حديث ذو شجون، يطول فيه التساؤل والشرح عن ألف قضية وقضية، لا يتسع لنا المجال الآن للخوض فيها. ربما لأن القضية الطاغية وهي حرب القوقاز وحدها وتفرعاتها الكثيرة، تحتاج إلى وقفة أخرى، لست أنت «البطل» فيها، ولا أنا المحاور. يكفي أنك لم تهرب من الحرب، على الرغم من غضب الأمير الأميركي عليك، مما يذكرني بما رواه ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد». «أن عبدالله بن الزبير دخل على أمه أسماء ابنة أبي بكر ذات النطاقين، وهي عمياء وقد بلغت مئة سنة، فقال: يا أماه، ماذا ترين؟ خذلني الناس وخذلني أهل بيتي!

فقالت: لا يلعبنّ بك صبيان بني أمية، إن ضربة سيف في عزٍ خيرٌ من لطمةٍ في ذلّ. عش كريماً ومت كريماً».

٢ ـ الشيشان

خطّاب: العربي الغامض!

■ «وقد قيل: أحزم الملوك من لم يلتمس الأمر بالقتال، وهو جر إلى غير القتال سبيلاً. لأن النفقة في القتال من الأنفس. وسائر الأشياء إنما النفقة فيها من الأموال.»□

«التنبيه والإشراف»
للمسعودي

عزيزي خطّاب،

حرت في رسالتي إلى أسامة بن لادن في (١/١١/ ١٩٩٩)، كيف أخاطبه. وكانت حيرتي نابعة من كونه رجلاً من عائلة معروفة كريمة وغنية في السعودية، له تاريخ من «الجهاد» في أفغانستان وما بعده من «نضال» ضد من يعتبرهم أعداء الإسلام من سوفيات بداية إلى أميركيين فيما بعد إلى روس حالياً، إنما ليس له لقب رسمي ولا يملك درجة علمية. لذا لن أخاطبك بأكثر من العزيز خطّاب، وأنت الوهابي السعودي الآخر (على الأرجح) الذي لا صلة له بالألقاب الرسمية والدرجات «العلمية»، لكنك تستقطب الأضواء حالياً في حرب الداغستان والشيشان مع روسيا، ورفيق أسامة بن لادن وزميله في الجهاد الحالي لنصرة الإسلام في شمال القوقاز وعموم الروسيا.

وإذا كان العالم قد أصبح يعرف الكثير عن أسامة بن لادن، فهو لا يعرف إلاّ النذر اليسير عنك. ولعلك نجحت في تخفّيك وتكتمك

بإثارة مخيلة الناس وشكوك الأجهزة والحكومات. فأنت في الوصف الروسي: «المحرك الرئيسي وراء العمليات العسكرية الدائرة حالياً في القوقاز ضد القوات الروسية والتي تستهدف طرد الروس منها وإقامة دولة إسلامية فيها». وقد بدأت تأخذ سمعة «القائد العسكري» بينما استقرت سمعة زميلك أسامة على لقب «الزعيم الإرهابي»، في الوقت الذي تتضافر جهود العالم كله بقيادة أميركا وتعاون روسيا على القبض عليه لتصفيته تحت ستار محاكمته.

في سياق ذلك، يبدو أن مصيرك يا خطّاب لا يعني أحداً، حتى الروس الذين تقاتلهم. وبالتأكيد لا يعني الأميركيين الذين لم يظهروا أي عداء علني لك حتى الآن، ولم يلصقوا بك صفة «الإرهاب»، حتى بعد تفجيرات موسكو في آب/ أيلول ١٩٩٩. وهذه الاعتبارات تضيف الكثير إلى حالة الغموض التي تعيش في ثناياها وتُرضي تخفّيك بقدر ما تُرضي حشرية الناس.

□ □ □

علامات الاستفهام التي تحيط بك كثيرة يا خطّاب. ولكنني قبل التباسط في الحديث معك عن قضايا عدة أريد أن أقول إن أسامة بن لادن مازال أقرب إلى قلوب وعقول الناس منك. ليس لأنه أكثر شهرة، أو أن له صورة أصبحت معروفة ومتداولة في العالم، إنما لأنه أكثر «إنسانية» في إطلالته وتوجهاته، مما أنت عليه اليوم. فما توقعته لأسامة في رسالتي إليه وما خفت عليه منه قد وقع. ومما قلته أن حكومة طالبان في أفغانستان ستسلمه إلى الأميركان تحت أي ذريعة، بما في ذلك جميع ذرائع وفتاوى الدين الإسلامي. كل ذلك قبل أن يمر الوقت ويطبق قرار مجلس الأمن الدولي بإعلان الحصار على أفغانستان الذي قضى بعقوبات اقتصادية منها تجميد

أرصدتها المالية في الخارج قبل ١٤ تشرين الثاني ١٩٩٩، إذا لم تسلّم حكومة الطالبان أسامة إلى أميركا (أو بلد ثالث تمون عليه أميركا لمحاكمته).

ولما أدرك أسامة بن لادن أن وجوده في أفغانستان قد أصبح مُهدداً ولم يعد له فائدة لحركة طالبان، بل أصبح محرجاً لها، وقد بدأت المساومات على رأسه بين أعضائها، وهو ما زال «ضيفاً» عليها، أدرك ذلك الحالم الثوري، أن جلده قد بيع بعشرين من الفضة قبل سلخه. لذلك خرج أسامة بن لادن إلى العلن (٣٠ تشرين الأول ١٩٩٩) ليعلن في رسالة وجهها إلى زعيم طالبان الملاّ محمد عمر عن استعداده لمغادرة أفغانستان مقابل شرطين، هما: أن تسهل حركة طالبان وصوله إلى وجهته الجديدة، وألا يعلم بمكان إقامته الجديد سوى زعيم طالبان شخصياً وشخص آخر معه في الحركة. ومما قاله أسامة في الرسالة: «أستطيع الكشف عن اسم المكان الذي سأقصده إلى شخص أو شخصين يتعين عليهما عدم إفشاء هذا السر إلى أي شخص آخر».

وسرعان ما أعلنت حركة طالبان على لسان زعيمها الملاّ محمد عمر قبولها لعرض أسامة بمغادرة أفغانستان سراً. وفي محاولة لإنقاذ ماء وجهها والإبقاء على مصداقية سمعتها كحركة إسلامية تختلف عن الجماعات الإسلامية الأخرى، قال الملاّ محمد عمر: «إذا ما أكد لنا أسامة بن لادن ذلك (أي رغبته في مغادرة أفغانستان) فإننا لن نقف في وجه رغباته وسندرس سبيل ترتيب مغادرته». وتعهد الملاّ عمر بعدم استسلام طالبان لأي ضغط وعدم تسليم بن لادن إلى القضاء. وعلى الرغم من ذلك، كانت طالبان قد عرضت على أميركا، بواسطة مندوبها في نيويورك، ترتيب

محاكمة لـ بن لادن في إيران (كيف، وهي في حالة عداء واحتراب مع إيران؟) إلاّ أن واشنطن رفضت هذا العرض لعدم جديته.

قد يكون من السهل على بن لادن أن يغادر أفغانستان، إلاّ أن من الصعب عليه أن يفرض شرطه على حركة طالبان بالتكتم على مكانه الجديد، خصوصاً وأن السر إذا جاوز الإثنين شاع، ومن السذاجة الاعتقاد عكس ذلك. لذلك تشكك أوساط أفغانية وغيرها، في أن يغادر أسامة بن لادن أفغانستان إلى أي مكان إلا جثة هامدة، لأن ليس هناك من مكان آخر في الدنيا يأويه. فالمسألة - في رأيي - لا تعدو مناورة مشتركة بين طالبان وبن لادن، للالتفاف حول قرار مجلس الأمن الذي تهدد أميركا بتنفيذه. وقد سبق أن أعلن عن اختفاء بن لادن داخل أفغانستان، إثر اشتداد الضغوط الأميركية على طالبان وتصاعد التهديدات بضرب وقصف مواقع للحركة في داخل البلاد. وأولى بديهيات المناورة أن أميركا ستصر على معرفة المكان الذي سيتوجه إليه بن لادن، وأن لا الملاّ عمر ولا زملاؤه في حركة طالبان وأمراء أفغانستان، قادرون (ولو أرادوا) على إخفاء مكان بن لادن الجديد. وبين المناورة والمؤامرة، تؤكد مصادر غربية أنه تمّ التوصل إلى صفقة بين حكومة طالبان الجديدة والحكومة الأميركية بتسليم بن لادن لدولة ثالثة لمحاكمته. وبالتالي فهو لن يذهب بعيداً.

وترجيحاً لنظرية المؤامرة، أعلنت واشنطن (١٩٩٩/١١/٢) عن إرسال عناصر من وكالة الاستخبارات المركزية (سي .آي.إي) ومكتب التحقيقات الفيديرالي (أف .بي .آي) ووزارة العدل، إلى منطقة الشرق الأوسط (دون تحديد للمكان) ضمن فريق مهمات

خاصة، لاعتقال أسامة بن لادن، عندما يغادر أفغانستان. وأكدت مصادر رسمية في العاصمة الأميركية، أن عناصر الأجهزة الثلاثة المذكورة قد تشكلت كفريق للقبض على بن لادن «إذا ما عدلت طالبان عن موقفها السابق الرافض لتسليم بن لادن إلى الولايات المتحدة». ويتضح من الصياغة البارعة لهذه الجملة، أن موقف طالبان يحتمل الوجهين. العودة عن قرار رفض التسليم، أو تسهيل مهمة الفريق الأميركي في إلقاء القبض على بن لادن عند وصوله إلى البلد الثالث «الآمن».

لكن، كما يبدو، تجري الرياح الأفغانية بما لا تشتهي السفن الأميركية في بحر الطالبان، بإعلان الملاّ عمر أن المفاوضات مع واشنطن قد وصلت إلى طريق مسدود، إثر إصرار الولايات المتحدة على تسليم بن لادن لمحاكمته. والموقف الأميركي هذا يخيف الطالبان تحسباً لدور روسي ناشط وجديد وبمباركة أميركية في أفغانستان، يدعم المعارضة الأفغانية، مما يهدد سيطرة حركة الطالبان على الحكم في البلاد. وسيزيد من تحريض روسيا على التدخل في أفغانستان، دور بن لادن الذي يقال أنه يلعبه في حرب القوقاز. وكانت طالبان قد نفت أنها عرضت على الإدارة الأميركية إبقاء بن لادن في أفغانستان تحت رقابة دولية، دون أي توضيح ماذا يعني هذا العرض عملياً. كذلك نفت واشنطن أنها تلقت أي عرض بهذا المعنى، وأن العرض الوحيد المقبول لديها هو تسليم بن لادن إلى دولة ثالثة لمحاكمته.

وكان «الغضب» قد وصل بأمير «إمارة أفغانستان الإسلامية» ـ وهو الاسم الرسمي للبلاد في عهد الطالبان ـ إلى رفض الحوار مع واشنطن مادام موقفها من موضوع بن لادن لم يتغيّر، مما أدى إلى

وصف الموقف الأميركي بأنه «يشكل تحدياً خطيراً للإسلام والمسلمين» متضرعاً إلى الله «أن يُشغل الأميركيون بأنفسهم ويصيبهم الهم والغم». («الحياة» ١٩٩٩/١١/٣).

ولعل التحول الذي طرأ يا خطّاب في موضوع «الرفيق أسامة»، هو موقف بلاده وبلادك الجديد من موضوع خروجه من أفغانستان. فبعد أن أعلن الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي أن موضوع بن لادن لا يهم السعودية ولا يعنيها لأنه مواطن غير سعودي («الشرق الأوسط» ١٩٩٩/١٠/٢٥) أعلن الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء السعودي ووزير الدفاع والطيران أنه لن يبحث أثناء زيارته الحالية إلى واشنطن مع المسؤولين الأميركيين في موضوع بن لادن (١٩٩٩/١١/١).

لكن سرعان ما عاد الأمير سلطان في اليوم التالي وأعلن «أن أسامة بن لادن ليس سعودياً، وقد سحبت منه الجنسية السعودية نهائياً، ويعتبر خائناً لدينه ووطنه. وإذا سلمته حركة طالبان إلى أي دولة لإقامة العدل ومحاكمته سواء في الولايات المتحدة أو في غيرها من الدول، فنحن نعتقد أن العدالة ستأخذ مجراها (...) ومن وجهة نظري أن بقاء بن لادن لدى الطالبان ليس من مصلحة أفغانستان» («الحياة» ١٩٩٩/١١/٣). وشكر الأمير سلطان، بمناسبة زيارته الرسمية لواشنطن، الولايات المتحدة على تسليم السعودي (الذي لم تسحب جنسيته بعد) هاني الصايغ المشتبه فيه بتفجير الخُبر في السعودية، قائلاً إنه سيحاكم حسب الشريعة الإسلامية. وكانت المقارنة بين الصايغ وبن لادن حاضرة في أروقة الاجتماعات بين الأميركيين والسعوديين. وقد أثار المسؤولون الأميركيون في

المحادثات مع الأمير سلطان مسألة تحويل بعض الأثرياء السعوديين الأموال لـ بن لادن. («النهار» ١٩٩٩/١١/٤).

وأصبح أسامة بن لادن، يا عزيزي خطّاب، «مَكْسَر عصا»، لكل من يريد حلاً للغز يعجز عنه، حتى أصبح الوضع مضحكاً وبائساً معاً. وقد أكد ذلك خبراء الأمن المصريون عندما وجهوا أصابع الاتهام، فوراً وقبل انتهاء التحقيق في قضية سقوط طائرة الركاب المصرية قبالة السواحل الأميركية الشرقية في تشرين الثاني ١٩٩٩ إلى بن لادن «إذا أثبتت االتحقيقات أنها تعرضت لعملية تفجير». أين أنت يا خطّاب من هذا «السوبرمان» العربي الذي يؤدي معجزات السينما الأميركية وهو في مكان قصي من العالم، بما يناسب الصورة التي ترسمها له واشنطن وتلصقها بكل حادث تفجير لا تعرف فك رموزه. ولأن أسامة قد أصبح الرجل المناسب (لأميركا) في المكان البعيد المناسب (أفغانستان)، فإن منسق عمليات مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية الأميركية مايكل شيهان، أعلن «أن واشنطن تحاول قطع جميع الطرق على بن لادن للحؤول دون هروبه إلى بلد آخر». فإذا فر العصفور العربي من القفص الأفغاني، فلن تعرف أميركا ـ لزمن طويل ـ أين سيحط.

□ □ □

عزيزي:

مَنْ أنت يا خطّاب أو ابن الخطّاب، «قائد المجاهدين العرب في بلاد القوقاز»، كما تصف نفسك في القليل من الأحاديث الصحافية التي أدليت بها حتى الآن؟

هل أنت رفيق أسامة بن لادن؟ هل أنت وريثه أو منافسه أو بديله؟

مَنْ أنت أيها العربي صاحب الاسم الواحد، الذي أظهره الصراع الإسلامي الأصولي في حرب الداغستان والشيشان ضد روسيا، كأحد زعيمي الحرب الإسلاميين مع شامل باساييف، في مواجهة الروس؟ ماذا يقولون عنك؟

[يقولون لم يعرف حتى الآن الكثير عن الخطّاب، لأنه هو شخصياً يحيط نفسه بكثير من الغموض وبضبابية مضللة، كجزء من أسلوب الحماية لشخصه. حتى اسمه الخطّاب (أو ابن الخطّاب كما يحب أن يسميه الإعلام الغربي تشبهاً بابن لادن وتقريباً من الرمز السياسي «الإرهابي» الأكثر شهرة في العالم منه)، هو اسم مستعار. وعندما يُسأل عن اسمه الحقيقي وجنسيته يجيب بأنه: «مسلم من بلاد المسلمين». فقد عُرف في بعض دول آسيا الوسطى، عندما ظهر هناك قبل انتقاله إلى داغستان، باسم حبيب صادق عبد الرحمن. ولم تظهر له صور كثيرة حتى الآن. ويقال إن له وجهاً مدوّراً ولحية كثة سوداء وشعراً أسود أجعد طويلاً، يخفيه تحت قبعة (بيريه) وندباً عميقاً في ذراعه اليسرى. له من العمر حوالى ٣٤ سنة. ولد من أب سعودي من عشيرة تعيش على الحدود بين السعودية والأردن وأم أردنية. لذلك فهو يُنسب للسعوديين أحياناً وللأردنيين أحياناً أخرى. إلاّ أن من المؤكد أنه ينتسب إلى عائلة سعودية غنية. ويعيش في الشيشان وله زوجتان.

ولأنه من عائلة سعودية ميسورة، يقال إن أهله أرسلوه إلى الولايات المتحدة للدراسة وهو في سن التاسعة عشرة. لكن من غير المؤكد أن الخطّاب قد ذهب أبداً للدراسة هناك، أو أنه وطىء أرضاً أميركية على الإطلاق. ولم يظهر الخطّاب إلاّ حوالى العام ١٩٨٣ - ١٩٨٤ في أفغانستان في عداد كتيبة المتطوعين العرب

الإسلاميين لقتال الشيوعيين والسوفيات هناك. ويعتقد البعض أنه في تلك السنة وكان له من العمر تسعة عشر عاماً، توجه إلى أفغانستان للجهاد من جملة مَنْ توجه من العرب، ومن غير علم أهله، بدل الذهاب إلى أميركا للدراسة. ومن هنا نشأ التضليل بين رواية الأهل وبين حقيقة مكان الابن.

في العام ١٩٩٢، وكانت أمبراطورية الاتحاد السوفياتي قد انهارت وفرط عقد جمهورياته الإسلامية وانسحبت جيوشه من أفغانستان، انتقل الخطّاب من أفغانستان إلى طاجكستان للقتال إلى جانب الإسلاميين ضد بقايا النظام الشيوعي الذي ما زال ممسكاً بالسلطة في دوشانبه. وبعد حوالى السنة من القتال في جبال طاجكستان، انتقل مع مجموعة من «العرب الأفغان» كانت تقاتل معه هناك، إلى الشيشان في العام ١٩٩٣. وبدأ هناك بتدريب مجموعة من الإسلاميين الشيشان على الحرب، وكان قد اكتسب خبرة «جهادية» صار عمرها أكثر من عشر سنين.

وقد أثبت الخطّاب قدرته في تدريب وتنظيم الشيشانيين عندما تمّ التصدي بنجاح لقوافل القوات الروسية المدرعة، في الحرب الشيشانية ـ الروسية الأولى في العام ١٩٩٥. وقد أدت شجاعته وتعلق الشيشانيين به إلى تقربه من الزعيم الشيشاني شامل باساييف، مما أدى الى تعاون وتحالف بين الرجلين، أصبح بموجبه الخطّاب قائداً للقوات الداغستانية الإسلامية في صراعها مع روسيا من أجل قيام دولة إسلامية مستقلة كلياً عن روسيا، في الشيشان. وتقول مصادر غربية إن مصورين تليفزيونيين يرافقون الخطّاب في كل معاركه، حيث يقومون بتصويرها. ويتم فيما بعد عرضها على المقاتلين في المخيم، ليتم استخلاص التجارب والعبر منها، بعد أن

يقوم الخطّاب بشرحها وتفسيرها. ويرسل نسخاً من الفيديو إلى مؤيديه في دول الخليج، لحضهم على التبرع وليريهم طريقة صرف المال الذي يتبرعون به.

□ □ □

ويدير الخطّاب مخيماً لتدريب المقاتلين في منطقة سيرزن ـ يورث في الشيشان. ويقال إنه ـ إلى جانب الإسلاميين الشيشانيين ـ يقوم بتدريب مجموعة إسلامية من دول أخرى، يقال إن بعضها عربي. وكما كان الوضع في أفغانستان في الثمانينيات فإن الخطّاب وباسايف ما هما إلا زعيمان بين زعماء عدة لفصائل مختلفة من المقاتلين في الداغستان والشيشان كثيراً ما يختلفون ويتنازعون السلطة والمواقع. فإلى جانب الخلافات الشخصية، هناك الخلافات المذهبية والعقائدية الدينية. ويقال إن الخطّاب قد نجا من ثلاث محاولات لاغتياله كان آخرها في العام ١٩٩٨. وفي السابع من شهر آب ١٩٩٩ قاد الخطّاب حوالى ألفي مقاتل من قواعده في الشيشان لـ «الجهاد» في داغستان حيث احتل عدة قرى معلناً الجمهورية الإسلامية فيها، إلا أن القوات الروسية سرعان ما ردت هؤلاء «المجاهدين» إلى الأراضي الشيشانية. لكن الخطّاب عاد واخترق بمقاتليه القوات الروسية ورجع إلى داغستان في الخامس من أيلول ١٩٩٩ الذي تزامن مع بداية التفجيرات في موسكو.

ويعتبر الخطّاب من دعاة الحركة الوهابية، مما يؤكد انتماءه السعودي أكثر من الأردني. وقد استطاعت الحركة الوهابية في آسيا الوسطى أن تتخطى، إن لم تقضِ على حركة الجهاد الإسلامي التي كان قد دعا إليها وقام بنشرها في أفغانستان الداعية الفلسطيني الإسلامي المرحوم الدكتور عبد الله عزام. ويعتبر عزام المرشد

الروحي الأول لأسامة بن لادن (الوهابي الانتماء)، في بداياته عندما التقى الاثنان في أفغانستان في مطلع الثمانينيات. والخطّاب كأسامة بن لادن، ليس برجل أو داعية إسلامي أو فقيه أو كاتب أيديولوجي، على عكس الكثيرين من قادة «الحركات» السياسية الإسلامية المشابهة، فهو يعتبر مجرد شاب «مجاهد» وهابي متحمس للإسلام.

وقد ردد كثيراً الإعلام الروسي بعد تفجيرات موسكو، الكلام على علاقة أسامة بن لادن والخطّاب بهذه التفجيرات، والدعم المالي واللوجيستي بالسلاح والرجال الذي يقدمانه لثوار الشيشان وداغستان. ويدّعي مسؤولون روس أن مساعدات مالية من السعودية والكويت وقطر، تصل إلى الثوار. كما تصلهم مساعدات من منظمات إسلامية متعددة في باكستان وتركيا. وقد بلغ الهلع بعد التفجيرات ببعض المسؤولين الروس، أنهم اتهموا جورجيا وأذربيجان بتزويد الثوار المسلمين بالسلاح والعتاد. وإلى جانب الغموض الذي يحيط بعلاقة الخطّاب بـ بن لادن التي يقال أنها علاقات لا تتسم بالود كثيراً، هناك عدة قضايا أخرى غامضة تحيط بتصرفاته وحياته، منها مصادر تمويله. كذلك الكم الهائل من المعلومات المغلوطة والمضللة التي ينشرها الخطّاب إعلامياً حوله كجزء من سياسة التمويه لحركته ودوره.

والذي عزز من الغموض المحيط بالخطّاب، وأدى إلى إقلاق الروس، أن مجموعة من رجال خطّاب جاءوا إلى موسكو (حسب ما روته جريدة «أزفستيا» في ١٥ حزيران ١٩٩٩) قبل شهرين من وقوع الانفجارات، لشراء ملابس عسكرية حاملين أذونات رسمية للشراء من وزارة الداخلية ووزارة الأمن الفيديرالي ووزارة الطاقة. مما دفع

مصادر في وزارة الداخلية الروسية إلى التساؤل فيما بعد، عما إذا كان لـ خطّاب نفوذ أو «عملاء» داخل المؤسسات الروسية، يساعدونه ويسهلون من تسلله إلى أجهزة الحكم في روسيا.

وليس سراً الخلافات الدائرة في أوساط الحكومة الروسية حول الحرب ضد الإسلاميين في الشيشان. بالإضافة إلى وجود رجال أعمال روس لهم مصالح مالية وتجارية مع الشيشان، يمكن أن يقوموا بتمويل إسلاميي الشيشان (ضد أي فريق كان) حماية لهذه المصالح.

□ □ □

وسعى الإعلام الروسي بمختلف الوسائل المتوافرة لديه إلى ربط الخطّاب مباشرة بتفجيرات موسكو. حتى إن الأسبوعية الروسية «نوفايا غازيتا»، نشرت في تشرين الأول ١٩٩٩، «أن ابن الخطّاب قد أقسم على القرآن أنه سيدفع لكل مَنْ شارك في عمليات التفجير في موسكو ٥٠ ألف دولار». وادعى كاتب المقال ومحرر الجريدة المذكورة فياتشيسلاف إسماعيلوف أن الخطّاب قد درّب وضمّ مجموعة من المواطنين السلاف الروس (ومن بينهم عدد من العسكريين السابقين في الجيش السوفياتي) إلى «مجموعاته الإرهابية»، التي وزعها بين موسكو وبطرسبورغ وروستوف. في الوقت نفسه كان وزير الداخلية الروسي فلادمير رشايلو قد ادعى رسمياً في حديث تليفوني مع لويس فراي مدير مكتب التحقيقات الفيديرالي الأميركي في ٩ أيلول ١٩٩٩، أن أسامة بن لادن هو المسؤول عن الانفجارات في موسكو. لكن هدف هذا الكلام، كان على الأغلب، تحريض وتشجيع الأميركيين على تقصي

المعلومات عن بن لادن الذي يتهمه الأميركيون أنه وراء أي عمل تخريبي في العالم.

وكان قد نسب لـ خطّاب حديث أدلى به إلى «الأسوشيتدبرس» الأميركية (١٤ أيلول ١٩٩٩)، قال فيه إنه «من الآن وصاعداً سوف يتلقى الروس انفجاراتنا في كل مكان. فلينتظروا لعنة الانفجارات في كل مدنهم». لكن الخطّاب عاد ونفى هذا الحديث ونفى أي صلة له بانفجارات موسكو، قائلاً: «لو كنا قد قمنا بهذا العمل، لكنا مثل هؤلاء الذين يقتلون المدنيين العزّل وهم نائمون في منازلهم»، في إشارة واضحة إلى القصف الروسي للمدنيين في داغستان وغروزني. ومن الملاحظ أن الخطّاب وشريكه شامل باساييف يتحدثان فقط عن الصراع ضد روسيا من أجل إقامة دولة إسلامية في الداغستان، تعيد أمجاد الدولة الإسلامية الداغستانية التي قامت في القرن العاشر. ولم يتطرقا في أي حديث لهما إلى الصراع بين الإسلام والغرب وأميركا واليهود. ولم يستعملا لغة أسامة بن لادن ومفرداته الأكثر تطرفاً وعنفاً في الدعوة إلى ثورة إسلامية ضد كل ما هو غربي في العالم. وهذا مما يؤكد أن صلاتهما «العقائدية» ضعيفة مع بن لادن وصلاتهما «المالية» ضعيفة أيضاً مع مصادر الدعم الوهابي في السعودية ودول الخليج.

والجدير جداً بالملاحظة أن اسم الخطاب لم يرد في التحقيقات الأميركية حول شبكة بن لادن ونشاطاتها التي تسربت بعد حادث تفجيرات السفارتين الأميركيتين في شرق أفريقيا في آب ١٩٩٩. لكن بن لادن كان قد أعلن مراراً عن دعمه المطلق للصراع الشيشاني ضد الروس. كما أعلن عن زيارتين قام بهما إلى بلاد الشيشان في العام ١٩٩٩. لكن السؤال الذي لم يحسم مصدر

الجواب عليه: هل دعم بن لادن لحرب القوقاز ضد روسيا هو دعم شفهي أو مالي، أم أكثر من ذلك؟ فليس هناك حتى الآن أي دليل يثبت تورط بن لادن في الحرب الشيشانية ـ الروسية.

□ □ □

هناك مواضيع كثيرة تفرّق بين ابن الخطاب وبن لادن، ولكن هناك أشياء أساسية تجمعهما.

لكن الخطّاب كان واضحاً في وصف علاقته بـ بن لادن عندما قال عنه إنه: «لم يموّل عمليات الجهاد في داغستان لأن المسافة بيننا شاسعة، وليست هناك أية اتصالات بيننا حالياً. حتى في سنوات القتال في أفغانستان فإن تمويلاً بهذا الحجم (قيل ٢٥ مليون دولار) لم ينفق. والمجاهدون في العادة يعتمدون على وسائل قليلة وأسلحة أقل». («الشرق الأوسط» ١٩٩٩/١٠/٥). ومن الواضح أن ما يجمعهما كونهما ينتميان إلى أسرة غنية. وكلاهما ينتمي إلى المذهب الوهابي. وكلاهما ذهب في مطلع الثمانينيات وهو شاب يافع للجهاد في أفغانستان ضد القوات السوفياتية هناك. وكذلك هما يتشابهان في التهم التي توجهها إليهما السلطات الروسية. فنائب رئيس المخابرات الروسية في داغستان، غسان خان إبراهيموف، يقول إن تمويل بن لادن لحرب الداغستان ـ الشيشان قد وصل إلى مليوني دولار حتى آب/ أيلول ١٩٩٩].

يا عزيزي خطّاب،

أنت تعرف كم هو تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد القوقاز وآسيا الوسطى، تاريخ مليء بالشرذمة المذهبية والطائفية الأصولية والتمرد الدائم والتحالف المؤقت مع السلطة الحاكمة، من أيام القيصر

الروسي إلى أيام الكوميسار الشيوعي، ومن كاثرين الثانية إلى لينين وستالين. وعندما وصل هذا التاريخ إلى عهد بوريس يلتسين، كنت أنت ومن معك ورثة أجزاء من هذا التاريخ، شئنا أم أبينا. لذلك اتهمت موسكو مواطنين عرباً في التورط بشؤون القوقاز، عبر الإشراف على قواعد لإعداد الدعاة الإسلاميين بهدف إرسالهم إلى مختلف أنحاء الحدود الإسلامية للأمبراطورية الروسية. حتى أن الاستخبارات الروسية نشرت معلومات عن وجود قاعدتين للدعاة في أذربيجان عند ضواحي العاصمة باكو. واحدة يديرها سعودي باسم محمد سالم عبد الحميد وأخرى يديرها يمنيان هما عارف عبدالله وقائد عبد الرحمن. وهناك في قواعد الدعاة مجموعات عربية مؤلفة من سعوديين ويمنيين وعراقيين وصوماليين، مهمتها «نشر الإسلام الوهابي في القوقاز الروسي» («الحياة» ١٠/٨/ ١٩٩٩). وأنه يتم تمويل هذه القواعد وهؤلاء الدعاة عن طريق بنك في لبنان، كما تذكر مصادر الاستخبارات الروسية.

وأنت تعرف يا خطّاب، أن التاريخ يعيد نفسه (ولم يكن الحدث بعيداً جداً عن بلاد الشيشان). ويروي هذا التاريخ في بلاد فارس، أن الحسن بن الصبّاح، الداعية الإسماعيلي الأكثر شهرة في عالم «الإرهاب»، اشتهر بدماثته ومرونته وبعد نظره. وقد وصفه المؤرخون بالشجاعة والإقدام والمغامرة. وكان سريع التنقل من مكان إلى آخر يحيط أعماله بالكتمان الشديد. وإليه يعود الفضل بتنظيم الفرق الفدائية التي أدخلت الرعب في قلوب الدول المجاورة. وإذا أمعنت النظر في تاريخ ابن الصباح وحركة الدعوة الإسماعيلية لوجدت أوجه شبه كثيرة بين تصرفاته وتصرفاتك مع الفارق في المذهب بينك وبينه، والفرق في المكان والزمان. ولعلك

تردد في حمأة الحرب في الشيشان وداغستان ما كان الحسن بن الصبّاح يردده في معاركه:

«لا بد أن ينبلج هذا الفجر قريباً، ويمنحنا تورده وزخرفة طلعته الحياة الجديدة في هذه البلاد. فهذا الفجر بدأ يتنفس، وسوف نستظل نحن الذين سنرث هذه الأرض التي رويناها بدماء شهدائنا، وغداً سنكون أحراراً فيها، كهذا النسيم العذب. واعلموا أن المجد الذي نخطط له أصبح يمشي في موكب من العزة والجلال فوق الرؤوس والعصور البعيدة والمستقبل، ومن وراء هذه الشمس الغاربة» (عن عارف تامر ـ تاريخ الإسماعيلية).

فإذا كان كلام من هذا المستوى، هو لسان حالك أيها الخطّاب، فلا خوف عليك لأنك لا تقلق الأمبراطوريات، ولا خوف منك لأنك لا تهدد الدول!

وإلى لقاء!

٣ ـ الشيشان

متصوفون أم إرهابيون؟

■ «قال الخليفة المنتصر: لذة العفو أطيب من لذّة التشفي، لأن لذة العفو يتبعها الحمد، ولذة التشفّي يعقبها الندم.»□

من كتاب «الأغاني»
لأبي الفرج الأصبهاني

ليس مهماً أن تسقط غروزني عسكرياً، المهم أن لا تسقط حركات الاستقلال والتمرد الإسلامية في مطلع القرن الواحد العشرين وهي حركات عمرها حوالى أربعة قرون، منذ أن دخل الإسلام إلى آسيا الوسطى وبلاد القوقاز وجنوب روسيا. وللإسلام في تلك الأصقاع التي أصبحت روسيا ـ قيصرية ثم روسية ـ سوفياتية ثم لا روسية ولا مستقلة، للإسلام هناك حكايات تاريخية تستحق أن تروى. وفي تاريخ الإسلام السياسي في تخوم روسيا الآسيوية ما يمكن أن يشكل للعرب ـ لو قرأوا ـ مادة للمقارنة، تؤكد كم هو مختلف الإسلام العربي عن الإسلام الآسيوي، وكم هو بعيد عن التأثير عليه، وكم يمكن الاستفادة من تجارب الإسلام القوقازي في كثير من المواقف النضالية للدعوات الإسلامية العربية.

□ □ □

منذ منتصف القرن السادس عشر، وتحديداً العام ١٥٥٢، يوم

غزت جيوش القيصر الروسي إيفان الرهيب مدينة قازان، أخذت جيوش القياصرة الروس تتوغل في عمق أراضي الأمبراطورية الآهلة بالسكان المسلمين في سهوب القازاخ وجنوب روسيا وسيبيريا من جهة وفي بلاد القوقاز وآسيا الوسطى من جهة ثانية. وكلما توغل الروس في هذه الديار الإسلامية، كلما أصبحت أبعد عن اهتمامات العالم الإسلامي المترامي الأطراف، وأكثر بعداً عن أوروبا وقضاياها. وكادت روسيا تنساها، لولا التورط العسكري الروسي في تلك الأصقاع بين حين وآخر. ومنذ ذلك التاريخ تلاشت تلك البلاد في غياهب النسيان في الذاكرة الإسلامية والعالمية.

وقبل التغني بأمجاد الإسلام الذي انتشر في تخوم الأمبراطورية القيصرية الروسية، وبعدها في الأمبراطورية السوفياتية، وظل إلى اليوم في الدول التي انبثقت إثر انهيار الشيوعية والاتحاد السوفياتي، قبل هذا التغني، هناك النسيان الذي غلّف دنيا شاسعة منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن العشرين. هذا النسيان الذي تدفع روسيا اليوم، والعالم ـ المتعاطف وغير المتعاطف معها ـ ثمنه كضريبة إهمال للذاكرة التاريخية. فلم يبق من ذلك الإسلام سوى عناصر فولكلورية، تبدأ بالرقص الشعبي القوقازي وتنتهي بطبخ الدجاج على الطريقة الشركسية، والراحة، بعد ذلك بافتراش السجادة القوقازية. ولم يعد في كل الروسيا مَنْ يهتم بالمسلمين فيها إلاّ المبشرون الأرثوذكس وشرطة «الأورخانا» القيصرية عندما تفتحت عيونهم على الأمر ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر. وخلف جدران النسيان هذه انفجرت الثورات في بلاد القوقاز وآسيا الوسطى ضد الروس «الكفّار». لكنها في الواقع كانت

ثورات ضد الحياة القاسية والبؤس الاجتماعي الذي كان يعيشه المسلمون في تلك البلاد منذ ذلك الزمن.

وبدأ انخراط المسلمين بالسياسة عن طريق مجموعة من علماء الدين الذين درسوا في البلاد العربية وانشأوا المدارس القرآنية في داغستان (أول الأمر) وأخذوا يدرّسون لغة القرآن في جميع أنحاء العالم الإسلامي. ومع ازدياد الوعي الفكري والديني، بازدياد الاضطهاد الروسي، شهد مطلع القرن العشرين بداية حركات فكرية رائدة، أهمها «حركة التجدد التتري»، التي اتخذت من المدن الإسلامية في روسيا، مثل قازان وبقجة سراي وسواها، مراكز لحركة فكرية كانت الأكثر تقدماً والأشد تقدمية، لا نظير لها في العالم الإسلامي كله. إلى أن وقعت ثورة البلاشفة في شباط ١٩١٧ التي أتاحت لمسلمي روسيا العمل العلني. ولكن بعد أقل من عشر سنين، هبط ستار حديدي عليهم في العام ١٩٢٤، وعزلهم مجدداً عن بقية المسلمين والعالم.

أحاط الصمت بمسلمي آسيا وروسيا السوفياتية، ودخلوا في العهد اللينيني القصير ومن بعده الستاليني الطويل في مرحلة «السَّفْيتة» ـ أي أصبحوا شيوعيين سوفيات ـ وأصبح الإسلام في حياتهم مهمشاً، حتى قيل إن نخبة الأنتليجنسيا المسلمة أصبحت ماركسية والجماهير صارت ملحدة أو كافرة. وتلاشت الحياة الإسلامية بعد قرون من توالي السلالات الإسلامية التاريخية والتراكم الحضاري الإسلامي.

إن للإسلام في آسيا الوسطى وبلاد القوقاز وروسيا الجنوبية تقاليد وتاريخاً، هما اللذان حددا لشعوب تلك الأمصار موقفها من النظام القيصري الأول ثم من النظام السوفياتي ومن الانهيار الروسي الذي

حدث بعده. كذلك حددا علاقتها مع العالم العربي بالدرجة الأولى ومن ثم العالم الإسلامي الآخر. وهي علاقة تركت بصماتها على التوجهات السياسية لتلك الشعوب وما آلت إليه.

□ □ □

من الضروري التأكيد أن تاريخ الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز الشمالي ليس كله تاريخاً عربياً. إنه تاريخ يشترك فيه الفرس والأتراك الشرقيون والعثمانيون والقوقازيون الذين رسخوا الإسلام بطرق مختلفة في الأقاليم الواسعة الممتدة من القوقاز حتى حدود الصين، ومن قازان حتى حدود إيران وأفغانستان. غير أن أهمية الدور العربي كانت تكمن في استطاعة العرب التوغل إلى وراء نهر آمو ـ داريا (أو جيحون) وقدرة جيوشهم الفاتحة على التحرك حيث استطاعوا أن يفتحوا بين العامين ٧٠٦ و٧١٦ كل الأقاليم الواقعة جنوب نهر سير ـ داريا، إلى أن سقطت مدينة باكو (عاصمة أذربيجان اليوم) إثر حصار طويل لها بدأ في العام ٦٧٦.

لقد أدخل العرب الإسلام إلى آسيا الوسطى والقوقاز عن طريق الفتح العسكري، لكن سرعان ما استبدل به خلفاء الدولة العباسية في بغداد، خصوصاً في الفترة الشعوبية المتأخرة، النشاط الديبلوماسي الذي تولاه من بعدهم خلفاء بني عثمان في أمبراطوريتهم العثمانية المترامية الأطراف، لكن الفضل الأساسي في انتشار الإسلام واستمراريته يعود إلى نشاط التجار المسلمين، من عرب وفرس وأتراك، الذين أتاح لهم الفتح العربي التجول في آسيا الوسطى وجنوب روسيا. ومع هؤلاء التجار، دخل عدد من أصحاب الطرق الصوفية، الذين شكلوا جماعات في الداخل، لعبت دوراً مهماً في تأصيل الإسلام والمحافظة عليه. وفي منتصف

القرن العاشر كان الإسلام قد سيطر بلا منازع على المنطقة التي أصبحت أحد المراكز الحضارية والثقافية الأهم والأروع في العالم الإسلامي، وظلت على تفاعلها الحيوي وانفتاحها حتى نهاية القرن السادس عشر. وفي منتصف القرن الثامن، كان دور الفاتح العربي قتيبة بن مسلم وقواده من العرب قد انتهى بعد أن انضوى معظم آسيا الوسطى تحت راية الإسلام.

□ □ □

ومن اللافت في خريطة انتشار الإسلام في تلك المناطق، أن الإسلام الذي نشده العرب في آسيا الوسطى كما نعرفها اليوم وعبر بلاد القوقاز، كان إسلاماً تقليدياً احتفظ بطابعه المحافظ إلى اليوم. أما الإسلام الذي دخل المناطق على يد التجار أو بواسطة ديبلوماسية الأمبراطورية العثمانية إبان إزدهارها، فكان إسلاماً ذا أفكار تحررية منفتحاً على شيء من المعاصرة. بينما الإسلام الذي دخل شمال القوقاز وشرقها، كان الإسلام الصوفي المتعصب دينياً والمتصلب قومياً.

وقد انتشر الإسلام سلماً بامتداد طرق التجارة الدولية. وكان هناك طريقان، طريق من الجنوب إلى الشمال بامتداد نهر الفولغا وهو «طريق الفراء». وطريق من الغرب إلى الشرق الممتد من البحر الأسود إلى الصين وهو «طريق الحرير». وكان التجار والسفراء العرب قد حملوا الإسلام، من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر إلى مملكة بلغار الفولغا التي هي إقليم التتر الحديث اليوم. وفي مطلع القرن الثالث عشر حدث الغزو المغولي لآسيا الوسطى. واتخذ هذا الغزو اتجاهاً صليبياً معادياً للإسلام، إذ كان بين المغول عدد كبير من البوذيين والمسيحيين النسطوريين. غير أن نشاط

الجماعات الصوفية أنقذ الإسلام وأضفى عليه طابعاً أكثر شعبية وعمّق جذوره أكثر بين الطبقات الفلاحية. ولم يعد الإسلام دين الطبقات الحاكمة، إذ أصبح فقط دين الشعب في غضون قرابة قرن.

ولم يوقف الغزو الروسي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتشار الإسلام. ففي منتصف القرن الثامن عشر أيام حكم الأمبراطورة كاترين الثانية شهد الأخير تقدماً ملحوظاً. إذ كانت كاترين الثانية شخصياً محبذة للدين الإسلامي وتجده معقولاً وأكثر قابلية من المسيحية الأرثوذكسية «لتمدين الشعوب البدوية المتوحشة». فانتهجت سياسة التسامح الديني إلى حد كبير. وتراكمت الأحداث مع تراكم الحركة القومية الإسلامية قبل الثورة البلشفية وبعدها.

□ □ □

ظهرت الحركة القومية الإسلامية لأول مرة في نهاية القرن التاسع عشر في بلاد التتر أولاً ثم انتشرت بسرعة في الأقاليم الإسلامية الأخرى. كانت حركة أهلية محلية تولدت عفوياً من الشروط النوعية لمسلمي روسيا. لكنها كانت تستوحي أيضاً أيديولوجيات أجنبية عديدة، مثل الرومانتيكية الألمانية، والتحررية البريطانية، والحركة الصقلبية، وأيديولوجية الثورة الفرنسية، والتنظيمات التركية، وأيديولوجية تركيا الفتاة، والحركة الدستورية الإيرانية.

لم تكن الحركة القومية الإسلامية في روسيا تختلف كثيراً في أهدافها وتنظيمها وطرق عملها عن الحركات المماثلة لها في البلدان الإسلامية الأخرى، مثل الأمبراطورية العثمانية والهند

وأندونيسيا وإيران والبلدان العربية. بيد أن تلك الحركة اتخذت في الأمبراطورية الروسية طابعاً مزدوجاً بسبب الخلفيات التاريخية المختلفة تبعاً للمناطق.

سبق الحركة القومية إصلاح ديني كان محاولة للتخلص من التقاليد المحافظة ومنح الإسلام القدرة على الحياة في عالم تقني حديث. كان الباعثون لهذا الإسلام وطليعته علماء الدين التتر، الذين عكفوا على دراسة مشكلة تخلف المسلمين الفكري وجهدوا في معالجتها بالعودة إلى التحرر العقلي.

لقد انصب جهدهم الرئيسي على تعرية فكرة التسليم بلا تمحيص إلى جانب إعاقة التقدم وانتشار المعارف وإدانة الطاعة العمياء للسلطات التقليدية. وكانوا بين أوائل المفكرين المسلمين المعاصرين الذين أعلنوا أن لكل مؤمن الحق في أن يبحث في القرآن الكريم والحديث الشريف ليجيد الرد على الأسئلة السياسية والاجتماعية والدينية كافة. وكان تأثيرهم على تنمية الحركة القومية استثنائياً. وبفضل عملهم، الذي لا يعرف الغرب عنه شيئاً ويجهله المؤرخون المسلمون أنفسهم، لم يعد الدين الإسلامي عائقاً أمام التقدم، ومُهِّدت الطريق للإصلاحات في حقول أخرى كاللغة والثقافة والتربية والتنظيم السياسي.

□ □ □

جعل الإصلاح الديني المرحلة الثانية من الحركة القومية ممكنة، فكانت هذه المرحلة محاولة لإصلاح جذري للثقافة الإسلامية التقليدية. لقد بدأت بإصلاح اللغات الأدبية التي يستخدمها المسلمون في الأمبراطورية الروسية. كان مسلمو روسيا، حتى

منتصف القرن التاسع عشر، يستخدمون العربية والفارسية، إلى جانب لغة معقدة ومصطنعة كانت خليطاً من اللغة التشاغاتائية وتترية قازان. وكانت نخبة من الأدباء فقط على صلة بهذه اللغات. كان الإصلاح إذاً يعتمد على وضع الثقافة في متناول الجماهير بإحداث لغات أدبية جديدة مبنية على لغات حية يتوصل إليها الجميع.

كان ظهور لغات أدبية حديثة خطوة واسعة إلى الأمام انبثق عنها في الأعوام الأولى من القرن العشرين أدب إسلامي حديث حلّ محل الأدب التقليدي. كان هذا الأدب الإسلامي الحديث ملتزماً بصدق ويلبي طموحات وحاجات الشبيبة المثقفة التجديدية ويكافح في سبيل الحرية الدينية والإصلاحات الاجتماعية والمساواة في الحقوق مع الروس وتحرير المرأة المسلمة، كما أخذ ينادي منذ عام ١٩٠٥ بالاستقلال الذاتي أو الاستقلال السياسي التام.

جرت محاولة غريبة عام ١٨٨٠ لإحداث لغة أدبية، كقاسم مشترك للرابطة التركية، تفهمها جميع الشعوب التركية في روسيا، والشعوب التركية في العالم كافة، وذلك لتجنب خطر انشقاق المجتمع الإسلامي نهائياً. ولقد ركّبت هذه اللغة المبسطة والمعتمدة على التركية العثمانية (المصفاة) بقدر المستطاع من الكلمات الواردة من العربية والفارسية.

تسنّى للغة الرابطة التركية أن يستخدمها الأتراك (من البلقان حتى سينكيانغ). وأصبحت لغة الصحيفة التي صدرت عام ١٨٨٣ حتى عام ١٩١٤ في بقجة سراي (في القرم)، وهي صحيفة (الترجمان) الشهيرة، وكانت إحدى أكبر الصحف الدورية الإسلامية في كل تلك الأزمنة.

اتخذت لغة (الترجمان) نموذجاً ـ مع شيء من التغييرات المحلية ـ للصحف الدورية الإسلامية كلها تقريباً التي ظهرت في روسيا من عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩١٧ وقامت بدور أساسي بنشر الأيديولوجية الموحدة للرابطة التركية.

□ □ □

يعود العداء بين الروس والشيشانيين الى الحروب في شمال القوقاز في القرن التاسع عشر عندما أمضت قوات القيصر أكثر من خمسين سنة قبل إخضاع بلاد الشيشان تحت سيطرتها، ولعل ما أبقى على العلاقات بين الشيشانيين وشعوب القوقاز الشمالية الأخرى، لم تكن الروابط العائلية فحسب بل الصوفية، ذلك المذهب الأسطوري في الدين الإسلامي.

إذ بينما ترتبط الصوفية بحياة التأمل فإنها بين قبائل الشيشان وداغستان تنطوي على عداء شديد للروس، وكان الشيوخ المتصوّفون ورجال الدين يعظون الناس بأن المسلم الحقيقي لا يرضى بحكم الكفّار. وهناك نوعان مقبولان من الجهاد عندهم: أن يكون المسلم محارباً في سبيل الله أو فقيهاً. فأصبح الشيشانيون مشهورين بيأسهم في القتال والداغستانيون بتعمّقهم في علوم القرآن.

في العام ١٩١٧ وعدت الثورة البلشفية بتحرير جميع شعوب الأمبراطورية القيصرية. ولما لاح شبح الحرب الأهلية دعا لينين وستالين بخبث، المسلمين لتأييدهما. كما وعدا بإقامة دول إسلامية شبه مستقلة في روسيا وفي آسيا الوسطى.

بالطبع كانت حقيقة الحكم السوفياتي مختلفة تماماً وتفاوتت بين فترات من القمع وفترات من التسامح وإنْ غلب القمعُ عليها في

جميع الأحوال. في العام ١٩٤٤ جرى تهجير الشيشانيين (وسبع أقليات عرقية أخرى) بالقوة إلى كازاخستان ضمن سياسة ستالين في معاقبة الأقليات العِرقية غير المخلصة. غير أن تراث الشيشان وتقاليدها صمدا في وجه السياسة الستالينية. ومع قدوم الثمانينيات كان عدد المسلمين في الاتحاد السوفياتي قد وصل إلى ٥٠ مليون نسمة، واعتبر جميعهم أن حكم السوفيات يترك طابعاً علمانيّاً على المجتمع. إلاّ أن إغلاق المساجد ـ سوى عدد ضئيل ـ وإلغاء تعليم الدين في المدارس قضيا تقريباً على معرفة الإسلام في أذهان الناس.

ولعل من الأماكن القليلة في الاتحاد السوفياتي التي استمر فيها الإسلام قوياً المنطقة الشمالية من جبال القوقاز. واستطاعت الطريقة الصوفية أن تبقى في ظروف شبه سريّة، وحتى بدون المساجد. واستمر الشيشانيون في توقير رجال الدين وممارسة الرقصات والأغاني الدينية التقليدية. وكانت الاستخبارات السوفياتية على دراية بأن من الصعب التغلب على «الأخوة المتصوفين وأن الصوفية ذات جذور عميقة تصعب إزالتها».

مع انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١ واجهت الصوفية تحديات من نوع جديد. فقد تدفّق على بلاد القوقاز وآسيا الوسطى الرُسلُ من البلدان العربية، خصوصاً المملكة العربية السعودية الذين وجدوا فرصة في هذه البقاع الفقيرة روحياً واقتصادياً. وبتمويل من دولارات النفط بدأ هؤلاء الدعاة بالتبشير بشكل جديد من أشكال الإسلام عُرف (ربما للتبسيط) باسم الوهابية، أي أسلوب التقشف في الإسلام والمتّبع في الغالب في المملكة العربية السعودية. ويحرص أتباع هذا المذهب على التقيّد قدر الإمكان بالجذور التي نمت قبل ١٤٠٠ سنة. فهم يعارضون أسلوب الحياة العلماني

الروسي وتتجاوز رسالتهم الحدود العِرقية واللغوية ولا تتعايش مع الصوفية المحلية الغامضة.

كثيرون من الشيشانيين والداغستانيين يجدون الإسلام الجديد غريباً وغير مقبول ويلجأ بعضهم لمعارضته علناً. فقد تسبب هذا الشكل الجديد من الدين بالخلافات والعنف فيما بين العائلات. غير أن الوهابيين، من خلال بناء المساجد وتقديم المنح الدراسية، نجحوا في إقامة أتباع لهم، خصوصاً بين الشباب الذين سئموا فساد المؤسسة الدينية التي هي من مخلّفات الحكم السوفياتي. أضف إلى هذا أنه مع الفوضى التي عمّت في روسيا بعد انهيار الحكم السوفياتي استطاع الدين الجديد منح العاطلين من العمل المال والسلاح والأمل في مستقبل محدّد المعالم.

وجد المحرومون من المسلمين في الشيشان وداغستان في الوهابية ملاذاً روحياً. في البداية كان الوهابيون يتصرّفون بشكل سلمي وسيطروا على عدد من القرى في داغستان وأقاموا جاليات اتّبعت تعاليمهم المتزمتة في تفسير الإسلام. وشيئاً فشيئاً بدأوا يحملون السلاح وينشئون الجيوب المستقلة ذاتياً والتي طبّقوا فيها حكم الشريعة.

وادّعوْا أنهم بحاجة لحمل السلاح دفاعاً عن أنفسهم من مضايقات رجال الشرطة والسلطة المحلية. لكن السلطات المحلية أيقنت أنهم متعصبون مدعومون من الخارج ويشكّلون خطراً كبيراً. وفي العام ١٩٩٧ حظرت داغستان الحركة الوهابية وألقت القبض على عدد من زعمائها. وفرّ بعضهم برفقة أتباعهم إلى الشيشان المجاورة والتي بفضل خبرتها الطويلة في القتال أصبحت القاعدة العسكرية «للإسلام الجديد» وبات شامل باساييف قائدها العسكري.

□ □ □

اشترك شامل باساييف، الرجل القوي والذي قام بعمليات الخطف وأخذ الرهائن، اشترك في الحرب الروسية ضد جورجيا عام ١٩٩٢/ ١٩٩٣ ثم حارب ضد روسيا بضراوة إلى جانب الشيشان بين ١٩٩٤/ ١٩٩٦. ويقول باساييف الذي تدرّب في الجيش الروسي إن مهمته في الحياة باتت محاربة الروس والانتقام للجرائم التي ارتكبوها ضد شعبه. وباساييف ليس من الوهابيين ولا يشاركهم تزمتهم المتطرّف لكنه اكتشف أن الدين الجديد يصلح لتجنيد الشباب للجهاد.

وشامل باساييف مسلم وشيشاني، وهما صفتان لا تنفصلان. لكن رغم لحيته الكثّة وحديثه عن الجهاد إلاّ أن شخصيته تختلف عن الأصولي المتفرّد برأيه. فهو يعتبر غاريبالدي (الإيطالي) وأبراهام لينكولن (الأميركي) من الشخصيات التي يُحتذى بها.

ووجود مجموعة من «الأفغان العرب» تقدر بـ ١٥٠٠ مقاتل في داغستان والشيشان يفسّر سبب تخوّف روسيا من الإسلاميين واعتبارها أنهم أعداء خلقهم الغرب وأصدقاؤه في السعودية وباكستان. كما أن الحلقة الأفغانية تفسّر اتفاق الرأي بين روسيا وإيران تجاه العنف الإسلامي. فبقدر ما يكره الأفغانيون الغرب وأفعاله ـ وهم من المسلمين السُنّة ـ فإنهم يبغضون المذهب الشيعي الرائج في إيران. وتعتبر إيران الأفغانيين وحركة طالبان التي تسيطر على معظم أفغانستان قوى سنّية أصولية أوجدتها الولايات المتحدة وأصدقاؤها. وكانت إيران دائماً معارضة للعلاقات بين الولايات المتحدة من جهة والمملكة العربية السعودية وباكستان من جهة أخرى رغم تحسّن علاقاتها أخيراً مع هذين البلدين.

وتتعاطف روسيا مع هذا الموقف الإيراني، بينما تشكك الولايات

المتحدة كثيراً في علاقة الصداقة بين روسيا وإيران. إن روسيا وأميركا والعالم الإسلامي لا تشكل مثلثاً واضح المعالم، ذلك لأن لكل من روسيا وأميركا صداقات في مناطق مختلفة من هذا العالم وتشعر كل منهما بالشكوك تجاه تحالفات الطرف الآخر. وبالرغم من أن روسيا كانت دائماً لبقة في تعاملها مع الانقسامات الجيوبوليتيكية في العالم الإسلامي، إلاّ أن هناك احتمالاً قوياً أن يتسبب تخبّطها وبطشها الدموي بخلق عدو مسلم داخل حدودها إضافة إلى استعداء المسلمين في الخارج. فبسبب اليد الحديدية التي يستخدمها الكرملين في الوقت الحاضر تجمّع الشيشانيون لحشد قواهم صوب حرب جديدة ضد روسيا. وقد ينجرّ إلى هذه الحرب الشعب الإنغوشي، ذو القرابة مع الشعب الشيشاني، والذي تغاضى إلى الآن عن السيطرة الروسية. هذا إلى جانب أربعة أو خمسة شعوب أخرى في شمال القوقاز سكتوا حتى الآن عن قيام روسيا بإدارة شؤونهم.

وفيما لو وجدت روسيا نفسها في حرب مع شعوب شمال القوقاز فإن التبعات سوف تمتد إلى تتارستان. إلى الآن سار زعيم بلاد التتار شيمييف بحذر شديد متعاوناً من جهة مع الكرملين ومؤيداً من جهة أخرى المشاعر التتارية والمسلمة الوطنية المحلية ضد السلافيين. وفي الأيام الماضية أعلن شيمييف أنه لن يسمح لأي مواطن من جمهورية تتارستان بالقتال إلى جانب روسيا في شمال القوقاز.

□ □ □

وفي حال ظهرت فعلاً جبهة مسلمة مشتركة ضد روسيا فإن الكراهية لموسكو سوف تكون العامل الموحّد والوحيد لهذه الجبهة.

فالمسلمون في القوقاز، كما في ديار أخرى، مشتتون. بل لا توجد في الحقيقة حركة وهابية واحدة أو متناغمة. كما لا توجد وحدة طبيعية بين الشيشان وداغستان. فالشيشان تتمتّع بانسجام اجتماعي في حين يوجد في داغستان ٣٤ جالية عرقية مختلفة. ويختلف البلدان في موقفهما من روسيا. ففي الوقت الذي ما زال الشيشانيون يعانون جروح الحرب الأخيرة مع روسيا فإن الرغبة في الانفصال أقوى فيها مما في داغستان التي لا تشعر بوحدة قومية وتعتمد كلياً في اقتصادها على روسيا.

كذلك ليس هناك ما يضمن أن التعصّب الإسلامي في القوقاز سوف يوحّد تلك الشعوب. فالحرب في القوقاز ليست دليلاً على انتشار الإسلام السياسي بقدر ما هي مؤشر على وجود إسلام في أشكال مختلفة. وفي الشرق الأوسط، قلب الحركة الإسلامية، يبدو أن التطرف الإسلامي في تراجع. ففي بداية الثمانينيات وبعد الثورة الإيرانية أحسّت الدول العربية وتركيا بخطر الإسلام السياسي. أما في الوقت الحاضر فقد خفّت حدّة هذه المخاوف وصمدت مصر وتونس والسعودية ـ وجميعها واجهت معارضة إسلامية خطيرة ـ رغم الرضوض التي لحقت بها. حتى الجزائر التي اتخذ فيها الإسلام أشد أشكال العنف وتعرّض لأبشع أنواع القمع، تدخل اليوم عهداً مبشراً بالأمل.

إن هذه المخاوف بدأت تتلاشى من وسط الشرق الأوسط إلى أطراف العالم الإسلامي. ففي الشرق الأوسط، قلب الإسلام السياسي، وحيث وقعت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ استغرقت الحركات الإسلامية التي ظهرت وقلدت تجربة إيران عشرين سنة حتى انطفأت. ووصل الإسلام السياسي إلى بلاد القوقاز ووسط

آسيا كما في يوغسلافيا السابقة بعد الشرق الأوسط بعشر سنين نتيجة انهيار الشيوعية، أي أن الحركات الإسلامية هناك ما زالت شابة وفي حالة تطوّر. ربما كانت قوية وقادرة على زعزعة الاستقرار ولكنها لن تكون أكثر حظاً من سابقتها في منطقة الشرق الأوسط والتي لم تتمكن من الوصول للسلطة.

هناك نوع من الإسلام على أطراف العالم المسلم يستدعي السياسيين في روسيا أن يقفوا ويتأملوا. إنها القوة العجيبة للعقيدة الإسلامية، والتي تصاحبها أحياناً الراديكالية السياسية التي نشاهدها في مدن غربية على بعد آلاف الأميال من مهد الإسلام. فمن مدينة في أميركا إلى مدينة أخرى في فرنسا يكتشف الشباب المسلم عقيدته وهويته ـ غالباً كردود فعل ضد الفقر والعنصرية والمجتمع العلماني العقيم الذي يعيشون فيه. وهذه الظاهرة لا علاقة لها بأي حسابات جيوبوليتيكية أو أي سياسات حكومية، لا في الشرق الأوسط ولا في الغرب، كما لا يمكن لأي حكومة أن تضبطها. فإذا أمكن أن ينتعش الإسلام الراديكالي في مدن أوروبا الغربية فلِمَ لا يجري الأمر نفسه في موسكو خصوصاً عندما تشنّ الحكومة الروسية حرباً وحشية لا جدوى منها في الطرف الآخر من البلاد.

فكرة القومية الإسلامية

■ «حكي أن فيثاغورس مرّ يوماً بقروي عليه ثياب فاخرة وهو يتكلم فيلحن في كلامه، فقال له:
ـ يا هذا، إما أن تتكلم كلاماً يشبه لباسك، أو تلبس لباساً يشبه كلامك».□

«العقد الفريد»
لابن عبد ربه

ولدت فكرة القومية السياسية لدى المسلمين في روسيا، مثلما ولدت في أماكن أخرى من العالم الإسلامي، انطلاقاً من رغبة العثور على السلطة المفقودة والتوصل إلى المساواة في الحقوق الفردية مع الأوروبيين والحصول فيما بعد على الاستقلال الذاتي أو الاستقلال التام. كان للمسلمين في روسيا قاعدة مزدوجة: دينية وعرقية، إسلامية وتركية. بيد أنه خلافاً للوضع الذي كنا نجده في تركيا والبلدان العربية، لم يكن في روسيا نزاع بين الفكر الديني والعرقي الذي كان يشمل جميع الأتراك المسلمين والمسلمين غير الأتراك أيضاً،ففي روسيا كانت الأغلبية تتسم إلى حد عميق بالثقافة واللغات التركية، مثل الطاجيك والداغستانيين والقوقازيين الشماليين.

وكانت الحركات السياسية بين مسلمي روسيا، تنقسم إلى حركتين أساسيتين:

حركة الرابطة الإسلامية المشتركة، والحركات السياسية المحلية الأخرى.

□ □ □

بورجوازية تتر الفولغا هي أول من أنشأ حركة سياسية. لكن التتر في كفاحهم لتوحيد المجتمع الإسلامي في أمبراطورية القياصرة وجعله أمة واحدة، كانوا معنيين بإعطاء كفاحهم صورة رابطة إسلامية. كانت الأيديولوجية التي تلهم حركتهم ليبيرالية، معتدلة الأهداف والطرق. فقد عرف التتر أن الإسلام لا يزال ضعيفاً فلا يمكنه أن يخوض حرباً معلنة ضد أمبراطورية القياصرة. كان زعماء الحركة، إسماعيل غاسبرالي القرمي، والتتريون صبري مقصودي ويوسف أقتشورا أوغلو وعبد الراشد إبراهيموف، ومردان طوبجي باشا الآزيري، قد ظلوا، حتى عام ١٩٠٥ على الأقل، معتدلين ومخلصين للدولة الروسية. لم تكن مطالبهم تتجاوز المساواة في الحقوق الشخصية مع الروس. ويتصورون أن انفصالهم عن أمبراطورية القياصرة مضر حتماً بالمسلمين، وعوضاً عن ذلك، فإن تعاوناً مخلصاً ومستمراً بين روسيا والعالم الإسلامي سوف يكون مفيداً للإسلام.

لكن اندحار روسيا عام ١٩٠٥ على يد اليابان غيّر الوضع إلى حد مأسوي. لقد أوقع انتصار اليابان ـ الدولة الآسيوية ـ صدمة نفسية فادحة في الأمبراطورية كلها: إن روسيا واهنة ويمكن قهرها. لقد أهاج الأمل بالانتقام والتحرر الشعوب الخاضعة للأمبراطورية كلها، بما فيها الشعوب المسلمة. وهكذا سجّل عام ١٩٠٥ البداية الحقيقية للحياة السياسية لدى مسلمي روسيا، وظهور مطالب قومية جماعية لأول مرة، وإن تكن متواضعة.

وفي آب ١٩٠٥، عقد في نيجني ـ نوفغورود أول مؤتمر سري إسلامي اشترك فيه قرابة مئة مندوب تتري، قدمت فيه مطالب بالحقوق المدنية الفردية والمساواة المدنية مع الروس وعَرْضٌ بالتعاون مع الأحزاب الليبيرالية الروسية. ولقد قرر المؤتمر تأسيس (اتحاد المسلمين)، وكان مفتوحاً لجميع المسلمين في الأمبراطورية.

وعقد مؤتمر إسلامي ثانٍ سري أيضاً في ١٣ شباط ١٩٠٦ في سان بطرسبورغ حضره قرابة مئة مندوب تتري وقرمي وقوقازي وقازاخي وقليل من التركستانيين. ولقد أقر عرضاً بالتعاون السياسي مع حزب الدستوريين ـ الديموقراطيين.

ونظم مؤتمر ثالث في آب ١٩٠٦ في نيجني توفغورود وكان رسمياً في هذه المرة، اشترك فيه مئتا مندوب. ولقد قدمت فيه مطالب بالحرية الدينية وحرية التعليم. وتقرر أيضاً أن يكون حزب (اتحاد المسلمين) حزباً سياسياً. لكن وحدة الأمة تصدعت لأول مرة بظهور يسار إسلامي.

كان إنشاء حزب (اتحاد المسلمين) المحاولة الوحيدة لتوحيد جميع الشعوب المسلمة في روسيا تحت رعاية التتر. ولقد كان نجاح (اتحاد المسلمين) رهناً بتعاون البورجوازية المسلمة مع البورجوازية الليبيرالية الروسية الممثلة بحزب الدستوريين الديموقراطيين. بيد أن الليبيراليين الروس لم يستجيبوا قط لعروض المسلمين وسرعان ما أفل الاتحاد فكان أفوله كارثة. إذ لم يؤخذ بعين الاعتبار أي من المطالب التي تقدم بها ممثلوه إلى مجلس الدوما (المجلس النيابي في العهد القيصري والعهد الحالي المابعد السوفياتي)، فقررت اللجنة المركزية للاتحاد في عام ١٩٠٨ حل الحزب. حينئذٍ تخلى أيضاً الزعماء المسلمون المعتدلون عن كل أمل بالتعاون مع الجناح الليبيرالي

الروسي بعد اقتناعهم باستحالة الحصول على الإصلاحات بالطرق المشروعة في إطار نظام قيصري.

بعد عام ١٩٠٨، هاجر العديد من الزعماء المعتدلين إلى تركيا وداخل روسيا، فانتقلت قيادة الكتل السياسية إلى أيدي عناصر أكثر شباباً وأشد عداءً أصلاً لروسيا والروسيين، وتستخدم أيضاً التعابير الاشتراكية. غير أن الحلم بحركة إسلامية موحدة للرابطة الإسلامية والرابطة التركية لم يتخل عنه أحد نهائياً، فلقد عاد هذا الحلم إلى الظهور عام ١٩١٧ بعد سقوط الملكية.

□ □ □

يوم ثورة شباط ١٩١٧ كانت حركة الرابطة الإسلامية المشتركة بقيادة تتر الفولغا قد فقدت هيبتها وأهميتها منذ عام ١٩٠٨، لكنها استعادت نفوذها فجأة بعد سقوط الملكية. فبدأت حياة جديدة وظهرت بجانبية مختلفة ثورية أشد راديكالية من سابقتها عام ١٩٠٥. وظلت متعلقة بالإسلام الصحيح جداً، بيد أن برنامجها الاجتماعي كان اشتراكياً تقريباً وكان زعماؤها يفكرون بإمكانية التعاون مع البلشفيك. ولقد فسر هذا الانعطاف الجديد إلى اليسار بما أثارته الآمال التي علقت على (فرضيات نيسان) التي أطلقها لينين، ثم بالموقف المناهض للأقلية الذي اتخذه الليبيراليون الروس (حزب الدستوريين الديموقراطيين) والاشتراكيون اليمينيون (المنشفيك).

لقد استقبل سقوط الملكية بحماسة كفاتحة عصر جديد، فانتعشت عفوياً الوحدة النفسية للمجتمع الإسلامي.

في الأول من أيار ١٩١٧، عقد في موسكو مؤتمر إسلامي كبير

حضره تسعمئة مندوب من جميع الأقاليم الإسلامية، ولقد عبَّر عن التصالح بين الإسلام والاشتراكية. وتأكدت فيه بقوة وحدة الأمة الإسلامية في روسيا، كما عرضت لأول مرة مشكلة تنظيمها الإداري الحقيقي، بيد أن معسكر المسلمين الموحد قبلاً قد انشق بهذه المناسبة شقين: فمن ناحية، هناك أنصار الاستقلال الذاتي الثقافي الإقليمي البحت لمسلمي روسيا داخل دولة روسية موحدة، وفي مقدمتهم التتر الذين رفضوا فكرة دولة إسلامية مستقلة ذاتياً؛ ومن ناحية ثانية، هناك المدافعون عن (اتحاد فيديرالي لدول إسلامية)، وهم الآزيريون والتركستانيون. غير أن انشقاقاً حقيقياً لم يحدث. فبالرغم من انتصار (الفيديراليين)، جرى إعداد إدارة مركزية مكلفة بتنسيق شؤون الأمة الإسلامية مع مجلس إسلامي (مجلس الشورى) ولجنة تنفيذية إسلامية.

وفي تموز ١٩١٧ عقد في قازان المؤتمر الإسلامي الثاني ولم يحضره في هذه المرة غير التتر والبشكيريين والقرميين. لم يستطع الآزيريون والتركمان، أو لم يشاؤوا، حضور المؤتمر بسبب الفوضى التي كانت تسود البلاد.

أسقط مؤتمر قازان قرارات الأول من أيار ورفض فكرة الاتحاد الفيديرالي ونادى بالوحدة الثقافية والسياسية لمسلمي روسيا. كانت خطب المندوبين ثورية بكل صراحة وفي الوقت ذاته أشد دعوة للرابطة الإسلامية. ولقد تدعمت الإدارة الإسلامية المركزية بإحداث (مجلس عسكري) ومقره في قازان. فبدأ هذا المجلس منذ تموز ١٩١٧ بتجنيد جيش إسلامي بقيادة ضباط تتريين وبشكيريين. وأنشئت أيضاً إدارة قومية إسلامية مقرها في أوفا، كلفت بالإعداد للدعوة إلى اجتماع مجلس وطني يعقد في أوفا

في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٧، عليه أن يقرر بدوره المصير المقبل لمسلمي روسيا.

وهكذا أخفقت التجربة الثانية للرابطة الإسلامية عشية ثورة أكتوبر. وتحولت الحركة القومية الكبرى المشتركة إلى حركة تترية بشكيرية صرفة، بسبب المصالح المتباينة لكل إقليم إسلامي محيطي، مثل القوقاز وتركستان. وحين انفجرت الثورة استقبلها المجتمع الإسلامي في روسيا على نحو مشتت.

□ □ □

ظهرت كتل سياسية بعد عام ١٩٠٤ في جميع الأقاليم الإسلامية في روسيا تقريباً. وكانت تنتمي إلى فئتين:

■ ١ ـ فئة الحركة الليبيرالية وكانت تتبع تقريباً الخط الذي اختطه حزب الاتحاد الإسلامي، لكنها تدافع عن المصالح المحلية.

■ ٢ ـ فئة الحركات التقدمية وكانت مخالفة للبرنامج المعتدل لحزب الاتحاد الإسلامي، لكن الجميع تقريباً كانوا متأثرين بأيديولوجيات ماركسية مختلفة.

اتبعت الحركة القومية حركة خاصة بها في كل إقليم من الأقاليم الإسلامية. وكان لجميع هذه الحركات شيء من السمات المشتركة، هو التصميم على الحصول على حرية جماعية أوسع والمحافظة على القاعدة الدينية للمجتمع الإسلامي. بيد أن أهدافها كانت متغيرة، تنطلق من الاستقلال الذاتي والسياسي المحدود داخل دولة روسية موحدة، ليبيرالية واشتراكية، إلى الاستقلال التام.

ومن ناحية ثانية، كانت الحركات الإقليمية المختلفة تتباعد فيما بينها لدى التطرق إلى الموضوع الأكبر، وهو اختيار الحليف الروسي.

فبعضها كان يعتقد بأن الليبيراليين والاشتراكيين، وحتى المحافظين، سوف يكونون الأنسب لقضيتها، بينما اختار غيرها البلشفيك منذ ربيع ١٩١٧.

وكانت للأحزاب السياسية الإقليمية أشكال تنظيمية مختلفة، عدد منها يعتبر أن الإسلام يجب أن يكون أساس حركتها، إن بشكله الأشد محافظة، كما في داغستان، أو بشكله الليبيرالي التجديدي، كما في تركستان. والعدد الآخر يتبنى برنامجاً سياسياً علمانياً، وحتى ماركسيا، لكنه لا يستهدف تدمير الإسلام.

ولقد قامت الحركات الإسلامية الإقليمية بدور هام في ثلاثة أقاليم، بين شباط وأكتوبر ١٩١٧.

□ □ □

في بلاد التتر ظهرت ثلاثة أحزاب سياسية. كانت هذه الأحزاب الثلاثة أكثر راديكالية من حزب الاتحاد الإسلامي وتتأثر بالماركسية الروسية إلى حد شديد:

- **حزب الوحدة (بيريك)** وقد تأسس في ربيع عام ١٩٠٦ في قازان، وقد صفته الشرطة جسدياً في خريف العام نفسه. وكانت زعامة الحزب بقيادة المثقفين والمشايخ الثوريين. وكان جميع التتر تقريباً من الماركسيين في ذلك الوقت يتعاونون مع حزب بيريك، من أمثال حسين يماشيف وغفور غلامتوف وعبد الله أبناي. كانت أيديولوجيتهم السياسية قومية فيها لون قوي من الماركسية، وكانت مزيجاً من الاشتراكية الديموقراطية ذات النزعة البلشفية وحركة الإصلاح الزراعي الشعبية للأحزاب الاشتراكية الثورية.
- **حزب تنغتشلر (نجمة الصباح)**، وقد تأسس في ربيع عام

١٩٠٦ في قازان. لكن الشرطة بددت شمله عام ١٩٠٧. وكانت زعامته بقيادة شباب مثقفين من أصل بورجوازي من أمثال أياز إسحاقي وفؤاد توكتر وعبد الله دولتشن. وكانت أيديولوجيته منبثقة عن أيديولوجية الاشتراكيين الثوريين الروس، أي شعبوية راديكالية فيها تيار فوضوي قوي جداً. وكانت المشكلة الفلاحية الشاغل الرئيسي للحزب.

- **حزب أورالتشلر (الأوراليون)**، وقد تأسس في كانون الثاني ١٩٠٧ في أورنبورغ، لكن الشرطة شتتت شمله في نيسان ١٩٠٧. وكانت زعامته بقيادة مثقفين من أصل بورجوازي، بينهم حسين ياماشيف وغفور غلامتوف وعمر ترغولوف. وكان يتبنى الأيديولوجية السياسية للحزب البلشفي. وكان التكتل الوحيد الماركسي حقيقة بين مسلمي روسيا والمعادي للقومية وحتى ضد رجال الدين وإنما مع شيء من الحذر.

منذ نيسان ١٩١٧، انفصل الجناح اليساري الثوري عن الحركة القومية التترية وأسس في قازان اللجنة الاشتراكية الإسلامية التي أصبح لديها فيما بعد فروع في جميع مدن الفولغا الأوسط والأورال. كان مؤسساها مير سعيد غالييف وملا نور وحيدوف، اللذان أصبحا فيما بعد زعيمي الشيوعية الوطنية الإسلامية، يتبعان بأمانة تقريباً البرنامج السياسي للحزب البلشفي، لكنهما ظلا في الوقت نفسه مخلصين للفكر القومي الراديكالي والرابطة الإسلامية الثورية الذي يعتمد على الوحدة السياسية والثقافية لجميع الشعوب الإسلامية في روسيا، والحذر المتشدد من الاستعمار الروسي، ورفض الصراع الطبقي في المجتمع الإسلامي وشجب الإلحاد

بالدين الذي نادى به البلاشفة الروس، ورفض التخلي عن الإسلام كأساس للمجتمع.

لم تحدث في بلاد التتر غير محاولة وحيدة قصيرة الأجل للحصول على الاستقلال الذاتي، بإعلان (جمهورية عبر البولاق)؛ من ٢١ إلى ٢٨ شباط ١٩١٨. كان بعض الزعماء الوطنيين قد شكلوا في أرباض قازان التترية (في حي عبر البولاق، حيث جاء اسم الجمهورية) إدارة مستقلة ذاتياً مناهضة لسوفيات قازان الذين يسيطر عليهم الروس كلية. لكن هذه الحركة لم تساندها الجماهير التترية ولا الوحدات العسكرية التابعة للمجلس الحربي. وبالعكس، قاتل إلى جانب الجيش الأحمر الشيوعيون التتريون، وكانوا قبلاً زعماء اللجنة الاشتراكية، وجماعة صوفية من الطريقة الويسية، وهي فرع منشق عن النقشبندية. وتبددت أخيراً جمهورية عبر البولاق على يد فصيل من بحارة كرونستادت.

□ □ □

في أذربيجان كانت الحياة السياسية أشد تعقيداً مما هي عليه في بقية المناطق الإسلامية الأخرى، فلقد كان هذا الإقليم بعيداً عن الأمبراطورية ومنعزلاً عن الأقاليم التترية، ويخضع لمؤشرات أجنبية، تركية وإيرانية، وتسيطر عليه المنازعات بين المسلمين والأرمن. ولقد كان التأثير الماركسي يظهر فيه أشد قوة، متمثلاً بكتل سياسية روسية وجورجية وأرمنية. وكانت الأحزاب السياسية فيه تتألف من:

- **حزب هِمَّتْ**، وقد تأسس عام ١٩٠٤ في باكو بشكل حلقة للدراسات الماركسية ثم أصبح حزباً عام ١٩٠٦. ولقد ظل

شبه سري من عام ١٩٠٧ حتى عام ١٩١٧. وكانت زعامته بقيادة مثقفين من أصل بورجوازي وأرستقراطي (مع عدد قليل من العمال)، من بينهم س .م. أفنديف وعيسى عاشوربيكلي، وهو تاجر ثري جداً، ود .بنية زادة، وناريمان ناريمانوف، وم .عزيز بيكوف، وم .إي. رسول زادة الذي أصبح فيما بعد زعيم القوميين. كانت أيديولوجية حزب هِمَّتْ تنبع من أيديولوجية البلشفيك وكان يلتحم عضوياً بالبلشفيك ويلتصق عضوياً بالحزب الاشتراكي الديموقراطي العمالي الروسي.

- **حزب مساواة**، وقد تأسس في إليزافتبول (قنجه، كيروفوباد) عام ١٩١١، ثم انتقل بعد وقت طويل إلى باكو. كانت زعامة الحزب بقيادة مثقفين من أصل بورجوازي وأوتوقراطي (وهم أنفسهم الذين نجدهم في مقدمة حزب هِمَّتْ) من أمثال طوبجي باشي ورسول زادة. كان في بدايته اشتراكياً معتدلاً منشفي النزعة، ثم أصبح محافظاً فيما بعد. وبعد عام ١٩١٧ أصبح الناطق الرسمي باسم القومية الآزيرية.

كان البلشفيك عبر القوقاز الشرقي أقلية حتى تشرين الأول ١٩١٧، ولم يحاولوا الاستيلاء على السلطة في باكو إلاّ في آذار ١٩١٨. فبعد ثلاثة أيام من المعارك والمجازر قتل أثناءها قرابة ثلاثة آلاف مسلم، وبمساعدة الاشتراكيين الثوريين الروس ومتطوعة من الأرمن من حزب طاشناق تسوتون وبعض أنصار حزب (هِمَّتْ)، نجحوا في القضاء على خصومهم المسلمين وتأليف حكومة (كومون باكو).

كان معظم القادة المسلمين الوطنيين من حزب (مساواة)، فهربوا

إلى مدينة غنجة (وتسمى الآن كيروفوباد) حيث ألفوا حكومة (المجلس الوطني الأذربيجاني)، فكانت نداً لكومون باكو.

أطيح بكومون باكو في تموز ١٩١٨ بعد أن تحالف ضده الاشتراكيون المعتدلون الروس والأرمن الطاشناق. لم يشترك المسلمون في هذا الانقلاب الجديد ورفضوا الاشتراك في حكومة روسية ـ أرمنية قامت في باكو.

في أيلول ١٩١٨، احتلت وحدات من الجيش التركي أذربيجان ثم تبعتها فصائل آزيرية ألفها حزب مساواة في مدينة غنجة. أعقب ذلك مجزرة كبيرة حلت بالأرمن. ظل حزب مساواة في السلطة حين انسحب الأتراك في تشرين الثاني ١٩١٨، وكان البريطانيون قد قدموا من إيران واحتلوا مدينة باكو. وفي آب ١٩١٩ أخلى البريطانيون أذربيجان، فعاشت هذه المنطقة جمهورية مستقلة ذات سيادة إلى أن غزاها الجيش الأحمر في نيسان ١٩٢٠.

ظل حزب هِمَّتْ، الموالي للبلشفيك، شبه سري طوال تلك الفترة، ولم يشترك في الحكومة، ولم يحظر عليه حزب مساواة. كانت تلك هي تجربة المسلمين الوحيدة في سبيل استقلالهم الحقيقي، تجربة وحيدة تركت أيضاً ميراثاً فيه شيء من الأهمية. ولربما لذلك السبب أصبح الحزب الشيوعي الآزيري ـ الوريث المباشر لحزب هِمَّت ـ يتمتع باستقلاليته أكثر من جميع الأحزاب الشيوعية المحلية، ولقد ظل فيما بعد، أو بالأحرى حاول أن يظل، بعيداً عن موسكو.

□ □ □

في القرم، بعد عام ١٩٠٥ امتص حزب (الاتحاد الإسلامي) الحركة

القومية التحررية. وكانت عناصر أكثر راديكالية قد أسست حزب (مللي فرقة ـ الحزب القومي) في تموز ١٩١٧. كانت زعامة الحزب بقيادة شباب مثقفين تعلموا وتثقفوا في تركيا أو أوروبا الغربية من أمثال حسن صبري عيواظ، وآ .أوزن باشلي، وأ .بودانينسكي، ووفي إبراهيموف. وكان برنامجه مزيجاً من القومية الراديكالية والاشتراكية المعتدلة والفوضوية. ولم يكن الحزب القومي منضوياً في أي حزب روسي.

أصبح القرم (ولم يعد المسلمون يشكلون فيه غير ٢٥٪ من السكان فقط) في خضم الصراع الدائر بين البيض والجيش الأحمر. فلم تتمكن الحركة القومية الإسلامية من النمو فيه أبداً.

قام المسلمون في تشرين الثاني ١٩١٧ بتشكيل حكومة وطنية إسلامية في مدينة سمفيروبول، يحكمها أعضاء من المجلس الوطني.

وفي كانون الثاني ١٩١٨، هاجمت وحدات من بحرية البحر الأسود، التابعة للسوفيات البلشفيك في ميناء سيباستبول، مدينة سمفيروبول واستولت عليها وشتتت شمل الحكومة التترية، وأعدم البلشفيك رئيسها تشلبييف عام ١٩١٨.

واحتل الجيش الألماني القرم في نيسان ١٩١٨. وشكلت القيادة الألمانية حكومة تترية كان أعضاؤها من الجناح اليميني من مجلس الإدارة الوطنية (مللي فرقة). وتشتت هذا المجلس على يد دينيكين في حزيران ١٩١٩. وحُظر عليه فأصبح سرياً وأسهم بقسط فعال إلى جانب البلشفيك في مقاومتهم دينيكين وفرانغل.

في تشرين الأول ١٩٢٠ احتل البلشفيك القرم نهائياً. وعاد المجلس إلى الظهور علانية وانضم أعضاؤه إلى الحزب الشيوعي الروسي.

أما الحياة السياسية فقد بدأت في سهوب القازاخ عام ١٩٠٥ بتأثير تتر الفولغا. كان برنامج أوائل الزعماء القوميين يتبع الطريق الذي اختطه زعماء النهضة الثقافية القازاخية في القرن التاسع عشر، والذي يدعو إلى التعاون مع الروس، والتغريب [أي جعل الحياة كلها وفقاً للنموذج الأوروبي الغربي من ثقافة وأخلاق إلخ...] ومناصبة الإسلام المحافظ العداء.

وفي عام ١٩١٢ تأسست جماعة (ألاش أوردا) التي تحولت إلى حزب سياسي في آذار ١٩١٧. كانت زعامته بقيادة مثقفين هم أفراد من النبالة الإقطاعية البدوية من أمثال علي بوكي خانوف وأحمد بايتورسن ومير يعقوب دولتوف. كانت أيديولوجية جماعة (ألاش أوردا) ليبيرالية في الأصل، قريبة من أيديولوجية الديموقراطيين الروس، ثم مالت إلى اليسار وتقربت من أيديولوجية المنشفيك والاشتراكيين الثوريين. كان حزب ألاش أوردا غير مبالٍ بالإسلام وأفكار الرابطة التركية. ولقد ظل هذا الحزب، حتى الثورة، يدافع عن مبدأ التعاون مع الاشتراكيين المعتدلين الروس ويدعو إلى تمدين البدو ويطالب بوقف الاستعمار الروسي للأرياف.

وعام ١٩١٣ تأسس في منطقة سيرداريا (الجزء الجنوبي من قازاخستان) حزب (أوتش جوز ـ العشائر الثلاث)، وكان خصماً لألاش أوردا. كان زعماؤه مثقفين أصلهم من البورجوازية الصغيرة ورجال الدين الذين تعلموا في بخارى. كان برنامجه السياسي ينادي في بدايته بالرابطة الإسلامية، ويعادي الروس بشدة بتأثير

البخاريين. وعام ١٩١٦، أعلن حزب أوتش جوز، كغيره من التجمعات السياسية الإسلامية، انعطافه نحو اليسار مع تمسكه بالرابطة الإسلامية، ومعاداته للروس والتتر. ثم قبل زعماؤه ببرنامج البلشفيك وانضموا إلى الحزب الشيوعي الروسي عام ١٩١٧.

انفجرت عام ١٩١٦ الثورة الكبرى التي أعلنتها القبائل البدوية ضد اغتصاب المستعمرين الروس أجزاء من ملكياتهم، ولمواجهة خطر التعبئة في كتائب العمل. ولكنها قمعت بوحشية قلما تحدث، إذ ذبحت قبائل بأكملها وهرب غيرها إلى الصين وغرقت البلاد في فوضى شاملة. حينئذٍ اضطر حزب ألاش أوردا، المعتدل وصديق الروس، لأن يغير تماماً برنامجه السياسي ويتبنى بعد آذار ١٩١٧ برنامجاً أكثر راديكالية، قريباً إلى برنامج الاشتراكيين الثوريين، يطالب بطرد الروس، كما طالب، بعد تموز ١٩١٧، بقيام جمهورية قازاخية مستقلة ذاتياً. كانت الحكومة المؤقتة ترغب بإعادة شيء من النظام إلى السهوب التي عمتها الفوضى، فعهدت إلى زعماء ألاش أوردا مسؤولية المناطق الوسطى والشرقية من السهوب القازاخية. وهكذا أصبحت بيد القازاخ إدارة وطنية جنين عشية الثورة.

كان حزب ألاش أوردا، الليبيرالي والمقارب إلى الاشتراكية والمعادي للشيوعية، قد سيطر أيام الثورة على الحياة السياسية في السهوب. وقد اتبع زعماؤه مثال البشكيريين فأخذوا ينضمون في كانون الأول ١٩١٧ إلى القوات المناهضة للثورة من قوزاق أورنبورغ وكوموش والبشكيرية، وفي ١٠ كانون الأول ١٩١٧، أعلنوا الاستقلال الذاتي السياسي للسهوب وألفوا حكومتين مستقلتين بالنظر لاتساع الإقليم، واحدة لقازاخستان الغربية والثانية

لقازاخستان الشرقية. بيد أن القازاخيين اضطروا إلى اتباع مثال البشكيريين بعد أن استولى الأميرال كولتشاك على السلطة. كانت وحدات ألاش أوردا تقاتل إلى جانب البيض، فتركت خط الجبهة في آذار ١٩١٩ وانسحبت إلى مناطق السهوب النائية جداً. وفي أيار ١٩١٩، اعترف زعماء ألاش أوردا رسمياً بالنظام السوفياتي. وتألفت لجنة ثورية قازاخية على نحو متساو من ممثلين عن ألاش أوردا ومندوبين سوفيات. وهكذا اتبع القازاخيون الطريق الذي اختطه البشكيريون، لكن قادة ألاش أوردا، بوكي خانوف ودوست محمدوف وأحمد بايتورسن ومير يعقوب دولتوف، لم يقطعوا علاقتهم بالبلشفيك، خلافاً للبشكيريين. وقبلوا جماعياً في الحزب الشيوعي الروسي وظلوا في السلطة نحو عشر سنين قاموا أثناءها بدور رئيسي في جمهوريتهم. وإليهم يرجع الفضل في نهضة الثقافة القومية القازاخية خلال الأعوام الأولى من النظام السوفياتي، والتي كان من إحدى نتائجها تفتح الشيوعية الوطنية التي لا يرغب بها البلشفيك الروس.

□ □ □

في آسيا الوسطى كانت الحركة القومية حتى عام ١٩٠٥ ما تزال جنيناً تحت رعاية تتر الفولغا المقيمين في تركستان. ثم كانت هزيمة روسيا على يد اليابان، فحظيت هذه الحركة بدفع جديد واكتسبت طابعاً معادياً للروس بشدة ويتمسك بالرابطة الإسلامية. وبعد ١٩٠٨، تأثرت هذه الحركة بتركيا إلى حد شديد ولا سيما بحركة تركيا الفتاة. بيد أن حركة القومية التركستانية ظلت غير منظمة فلم تتولد عنها أحزاب سياسية باستثناء تجمعين:

- **تجمع (مجلس الشورى الإسلامي)** الذي تأسس عام ١٩١٧

في طشقند بزعامة رجال دين معتدلين. كان برنامجه السياسي محافظاً ودينياً وانفصالياً، يدعو إلى استقلال تركستان.

- **تجمع (يني بخارلو ـ الشباب البخاري)**، وقد تأسس عام ١٩٠٩ في بخارى وكان بمثابة جمعية سرية ثورية، وكانت زعامته بقيادة شباب مثقفين أصلهم من طبقة التجار أو رجال الدين، تثقفوا في اسطنبول بوجه عام، مثل عبد الرؤوف فطرت وفيض الله خوجه يف ومحمود بهبودي ومنور قاري. كانت أيديولوجيتهم السياسية مزيجاً غريباً من الإصلاحية التركية، على مثال تركيا الفتاة، والتجددية التترية والرابطة الإسلامية. وكانت مقولتهم عنيفة ومعادية في وقت واحد للروس وأمير بخارى. وعام ١٩١٧، أصبح تأثير الاشتراكية الروسية هو الغالب.

لقد عاشت فترة قصيرة جداً جميع الأحزاب السياسية الإسلامية، التترية والآزيرية والتركستانية. كان تنظيمها غامضاً ولم يكن انضمام الأعضاء إليها عن حزم كافٍ، ولم يكن لزعمائها أنفسهم معتقدات سياسية واضحة. ولم يكن بمستطاعهم وما استطاعوا أن يناضلوا مع الأحزاب السياسية الروسية المتمرسة والمنظمة تنظيماً قوياً على أساس التسلسل المرتبي للأعضاء. فكان حظها من البقاء ضعيفاً جداً في المناخ المأسوي في روسيا ما قبل الثورة. وفي الواقع، لقد تبددت كلها تقريباً بعد ثورة أكتوبر عام ١٩١٧. بيد أنه بالرغم من جميع عيوب هذه التجمعات السياسية وضعفها فلقد كانت تمثل أول وآخر محاولة للمسلمين في روسيا لكي يتمتعوا بتنظيم سياسي خاص مستقل عن السيطرة الروسية. ولذلك تركت ذكرى

خالدة بعض هذه المنظمات، لا سيما منظمة ألاش أوردا في قازاخستان وشباب بخارى في آسيا الوسطى. وأصبحت مع الزمن في أعين جميع القوميين رموزاً لأمجاد النضال في سبيل الاستقلال من المضطهد الروسي، أمجاد قد اغتصبت بالتأكيد.

ظهرت في آسيا الوسطى أشد معضلة شائكة في النظام السوفياتي. في تشرين الأول ١٩١٧، كان البلشفيك، الذين أصبحوا سادة السلطة في طشقند، قد تلقوا مساعدة لم يكونوا يأملون بها وغير متوقعة من السكان الروس المحليين، رغم أنهم كانوا معادين للشيوعية بالنظر لتركيبهم الاجتماعي، من موظفين وضباط وتجار. وإذا كان هؤلاء الروس قد قرروا أن يهبّوا لنجدة الشيوعية، إنما لأنهم كانوا يعتبرون المسلم صاحب الوطن الحقيقي عدوهم الأساسي. فليس مذهلاً إذاً أن يسلك النظام الجديد منذ بدايته مسلكاً استعمارياً طبق الأصل ويبعد المسلمين عن الإدارة الجديدة.

لم تكن نتائج هذا المنطلق الوخيم متوقعة.

لقد اقتنع الزعماء المسلمون باستحالة التعاون مع ممثلي النظام الجديد (سوفيات طشقند) الذين ظهروا لهم أشد فظاعة أيضاً من سابقيهم القيصريين، فدعوا في مدينة قوقند إلى عقد مجلس الشعب، الذي أعلن في تشرين الثاني استقلال تركستان السياسي. وهكذا انشق البلد إلى منطقتين: منطقة طشقند وقد أصبحت بيد الروس والتف حولها سوفيات طشقند، ومنطقة وادي فرغانة المستقلة عملياً. وفي الخامس من شباط ١٩١٨، هاجمت الوحدات العسكرية لسوفيات طشقند مدينة قوقند ودمرتها وسلبتها وذبحت جميع سكانها الأصليين المسلمين.

في آذار ١٩١٨، شن سوفيات طشقند هجوماً جديداً على أمير بخارى، لكن الهجوم أخفق رغم مساعدة (شباب بخارى) للحمر.

كان تدمير قوقند وسلبها والفتك بسكانها وفشل هجوم السوفيات يرجع في الأصل إلى حركة البصمتشية التي بدأت عام ١٩١٨ وامتدت ظروفها بين يسر وعسر حتى عام ١٩٢٨، وفي بعض المناطق حتى عام ١٩٣٥، بل حتى ١٩٣٦. كانت هذه الحركة ثورة شعبية خاضتها عناصر فقيرة جداً من السكان القرويين المسلمين وأهل المدن في معظم الحالات وبعض البدو أيضاً، من أوزبك وقرغيز وتركمان... كان تعبير (بصمتشية) (وتعني بالأوزبكية قطاع طرق) يطبقه الروس على مختلف الأشخاص الذين يعملون بمعزل عن بعضهم البعض في مناطق كثيرة. كان موطن الثورة الرئيسي وادي فرغانة. وغزا الجيش الأحمر بخارى في أيلول ١٩٢٠، فامتدت من أوزبكستان الراهنة، وكانت منطقة نفوذ قبيلة بني لُقَيْ البدوية الكبيرة، وفي المنطقة الشمالية لسهوب التركمان.

كانت قيادة الحركة غير متجانسة، بيد رؤساء محليين منشأهم طبقة من علية القوم القرويين أو جماعة (قورباشي)، ورؤساء قبائل تركمانية أو من بني لُقَيْ، وعلماء دينيون تقليديون ومرشدون صوفيون وكذلك وطنيون سابقون جاؤوا من قوقند أو مكان آخر. وقد انضم إلى الحركة أحمد زكي وليدي طوقان، الرئيس السابق للمجلس الثوري البشكيري، وأنور باشا وزير دفاع تركيا السابق. وقد قتل أنور باشا خلال معركة عام ١٩٢٢.

كانت أهداف الثورة وطبيعتها بسيطة وبدائية جداً بحيث ظهرت مفاهيمها وأيديولوجيتها وبرنامجها السياسي وكأنها في غير محلها

في هذا الإطار. كانت هذه الحركة ثورة عفوية، بدائية وفطرية ضد الكافر المضطهد. طبيعتها اجتماعية ودينية، يتجابه فيها القرويون المسلمون الفقراء والبدو مع الغازي الأجنبي القوي، هذا العدو القديم الذي عاد للظهور بشكل جديد ويستعد ليستأثر بأرضهم ومراعيهم ويدنس أيضاً عالمهم الروحي.

كانت مكافحة البصمتشية أصعب عملية قمع بالتأكيد خاضها الجيش الأحمر في تاريخ الاتحاد السوفياتي كله.

انشقت الحركة الوطنية الإسلامية في شمال القوقاز إلى معسكرين متخاصمين في عهد الحكومة المؤقتة:

■ ١ ـ معسكر وطني معتدل يحبذ، لأسباب تكتيكية، تعاوناً موقوتاً ومشروطاً مع حكومة بتروغراد المؤقتة والسكان الروس المحليين. وفي أيار ١٩١٧، شكل المعتدلون (اتحاد شعب الجبل) الذي شمل المسلمين الجبليين وقوزاق التيريك وكوبان.

■ ٢ ـ معسكر محافظ أكثر شعبية وأشد قوة من المعسكر المعتدل، بزعامة الجماعة الصوفية النقشبندية. كان المحافظون لا يلينون تجاه الروس وحتى المسلمين الذين يرضون بالتعاون معهم، فهم يريدون إعادة قيام دولة الإمام شامل الدينية. ففي صيف ١٩١٧، انتخبوا نجم الدين غوستو لداغستان وبلاد الشيشان، وكان أحد المرشدين النقشبنديين، وراحوا يعدون العدة للحرب المقدسة ضد الروس.

كانت الفوضى التامة تعم شمال القوقاز عشية الثورة.

لم تحقق الحركة الوطنية الإسلامية نتائج كبيرة الأهمية حين استولى البلاشفة على السلطة في بتروغراد في أكتوبر ١٩١٧. حقاً إن

المسلمين قد حصلوا على المساواة بالحقوق المدنية مع الروس وعلى حريتهم الدينية واستقلال صحافتهم، لكنهم لم يحصلوا على أية أهداف سياسية جماعية، مثل الاستقلال الذاتي حتى وإن يكن محدوداً، أو الاستقلال التام. وواقع الحال أن الكفاح الوطني الذي بدأ عام ١٩٠٤ لم ينته حين بدأت ثورة أكتوبر ١٩١٧، لكنه استمر تحت شكل جديد في العهد السوفياتي.

منذ أن بدأت الثورة في شباط ١٩١٧، انشق المجتمع الإسلامي، في المنطقة الجبلية من داغستان وبلاد الشيشان، إلى ثلاث مجموعات:

■ ١ ـ مجموعة ضعيفة العدد ولكنها متنفذة نسبياً، ألفها شباب مثقفون تقدميون انضموا إلى الحزب الشيوعي وقاتلوا إلى جانب الحمر.

■ ٢ ـ مجموعة ثانية ضعيفة العدد والنفوذ ألفتها عناصر ليبيرالية معتدلة، حاولت من غير أن تنجح أن يؤيدها البيض والمنشفيك الجورجيون، وحتى الأتراك في بعض الفترات. ولم تكن طموحاتها تتعدى استقلالاً ذاتياً محدوداً في إطار دولة روسية ديموقراطية ليبيرالية.

■ ٣ ـ مجموعة ثالثة وقد ألفها محافظون من رجال الدين من الجماعة النقشبندية، وكانت تقاتل الحمر والبيض بالضراوة نفسها، وحتى المعتدلين من مواطنيها في بعض الأحيان. كان زعماء هذه المجموعة يريدون إحياء دولة الإمام شامل الدينية، المستقلة كلية عن روسيا، والموضوعة تحت حماية الخليفة السلطان التركي.

كانت الحرب الأهلية في القوقاز الشمالي مضطربة ودامية بوجه خاص. وكان المسلمون الليبيراليون قد اختفوا بسرعة عن مسرح الأحداث. أما المحافظون الذين كانوا بين وقت وآخر بجانب البلشفيك يقاتلون دينيكين، وكانوا بقيادة المرشدين النقشبنديين؛ الإمام نجم الدين غوستو والشيخ أوزن حجي، فقد ظلوا القوة الإسلامية المنظمة الوحيدة بعد أن عاد الجيش الأحمر وغزا ثانية القوقاز الشمالي في ربيع ١٩٢٠.

في أيلول ١٩٢٠، تزعم النقشبنديون الثورة الكبرى التي خاضها الجبليون ضد السوفيات في داغستان وبلاد الشيشان. استمر كفاحهم قرابة سنة وقد اتخذ طابع حرب مقدسة ضد الروس. كانت هذه الحرب تحدياً بين أخطر التحديات التي جابهها الجيش الأحمر في مناطق الحدود الإسلامية. وكانت أيضاً أول تجربة سوفياتية في مواجهة حرب خاطفة يخوضها مغاوير ريفيون، تجربة كان استعداد الجيش الأحمر لها سيئاً. ولقد أصبحت ثورة ١٩٢٠ جزءاً من حكايات الجبليين التاريخية الأسطورية، البطولية والغنية. وأصبح اليوم قبر أوزن حجي، الذي توفي أثناء الثورة، أحد الأماكن المقدسة ومحجاً من أقدس المقدسات في القوقاز الشمالي.

□ □ □

في كانون الأول ١٩١٧، أعلن الزعماء البشكيريون الاستقلال الذاتي لإقليمهم بشكيريا، وألفوا حكومة وطنية في أورنبورغ، وكانوا يشاطرون في أفكارهم المنشفيك والاشتراكيين الثوريين المعتدلين. كانوا محايدين في بدايتهم إزاء الصراع الدائر بين البلشفيك المحليين وقوزاق أورنبورغ، لكنهم انشقوا فيما بعد إلى معسكرين: جناح يساري قبل بالتعاون مع البلشفيك، وجناح يميني

تحالف مع القوزاق البيض. استولى البلشفيك على أورنبورغ وإقليم بشكيريا كله، وفي شباط ١٩١٨، اعتقلوا زعماء الجناح اليميني من جماعة زكي وليدي طوقان.

وفي نيسان ١٩١٨، احتل البيض إقليم الفولغا الأوسط كله والأورال، وكانوا من جنود الفرقة الأجنبية التشيكية المرتزقة لقوزاق أورنبورغ، وقوات كوموتش المسلحة. كان الزعماء البشكيريون قد نزحوا في غضون ذلك وانضموا في الحال إلى المعسكر المناهض للثورة، وفي حزيران ١٩١٨، ألفوا حكومة وطنية بشكيرية ثانية امتدت سلطتها الحقيقية إلى إقليمهم الوطني كله وتتمتع بقوة وطنية مسلحة تتألف من متطوعة بقيادة ضباط بشكيريين من المجلس الحربي السابق (حربي شورى). وفي أيلول ١٩١٨، ألف البشكيريون حكومة روسيا المؤقتة ومقرها أوفا بزعامة زكي وليدي طوقان، وكان معهم قوزاق أورنبورغ وزعماء كوموتش. وفي هذا الوقت كانت الوحدات البشكيرية تخوض حرباً إلى جانب جيوش البيض.

لم يستمر التحالف بين البشكيريين الوطنيين وقوات البيض المناهضة للثورة. كان الأميرال كولتشاك معادياً لجميع مطالب الأقليات الوطنية كغيره من رؤساء الجيوش البيض جميعهم، وكان يقاتل من أجل (روسيا واحدة لا تتجزأ)، فألغى في تشرين الثاني ١٩١٨ حكومة أوفا المؤقتة، وفي كانون الثاني ١٩١٩، قرر تصفية الجيوش البشكيرية التي كانت تقاتل إلى جانبه واعتقال الضباط البشكيريين.

كان لسياسته هذه القصيرة النظر نتائج فورية ومأساوية، سياسة تميز بها القادة البيض. فقد اقتنع زكي وليدي طوقان مع رفاقه باستحالة

التعاون مع كولتشاك فلجأوا إلى الفرار. وفي كانون الثاني ١٩١٨، اجتمع زكي وليدي طوقان سراً بموفدي لينين ووقع معهم في ١٩ شباط اتفاق أولياً يقضي بتأليف حكومة بشكيريا السوفياتية المؤقتة. وفي ٢٢ شباط، اجتازت الوحدات البشكيرية الجبهة والتحقت بالجيش الأحمر بعدتها وعتادها.

عين زكي وليدي طوقان رئيساً للجنة البشكيرية الثورية التي قامت بدور حكومة بشكيرية. كانت هذه التجربة الأولى في التعاون بين البلشفيك والوطنيين قصيرة الأجل جداً. إذ ما لبثت أن نشبت خلافات بين الشريكين، فاتبع كل منهما سياسة مختلفة عن الآخر ومتناقضة أيضاً. كان القادة البشكيريون يريدون أن ينتزعوا من البلشفيك أقصى حد من الحرية السياسية والثقافية. وكان البلشفيك يرمون من وراء هذا التحالف الموقوت، وغير الطبيعي، مع الوطنيين أن يسهل لهم فحسب (سفْيتة) بلاد بشكيريا. والحال، خلال عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، حقبة شيوعية الحرب، كانت السَّفْيتة مرادفة للصراع الطبقي وتدمير المجتمع التقليدي بكل عنف. وفي حزيران ١٩٢٠، كان زكي وليدي طوقان هو ورفاقه في اللجنة الثورية البشكيرية أول رفاق طريق مسلمين أدركوا أن التعاون مع البلشفيك الروس كان صفقة خاسرة، فهربوا إلى آسيا الوسطى حيث التحقوا بالبصمتشية.

٥ ـ الشيشان

دور الطرق الصوفية

■ «دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء ابنة أبي بكر ذات النطاقين، وهي عمياء وقد بلغت مائة سنة، فقال:

ـ يا أماه، ما ترين؟ خذلني الناس وخذلني أهل بيتي!

ـ فقالت: لا يلعبنّ بك صبيان بني أمية، إن ضربة سيفٍ في عز خيرٌ من لطمةٍ في ذل. عش كريماً ومت كريماً».□

«العقد الفريد»

لابن عبد ربه

النقشبندية، طريقة صوفية أسسها في بخارى الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند (١٣١٧ ـ ١٣٨٩) وهي من أوسع الطرق انتشاراً ولها فروع في العالم الإسلامي كله، وفي الشرق الأوسط، كذلك في تركيا والصين وأندونيسيا والهند وروسيا. نجد نقشبنديين في آسيا الوسطى كلها، وبين تتر الفولغا وفي القوقاز حيث دخلت طريقتها في نهاية القرن الثامن عشر. ويمارس النقشبنديون الذكر بصمت، ومن هنا كان يطلق عليهم الأدب السوفياتي المعادي للدين: «المتمتمون».

ولقد كانت النقشبندية في القوقاز المحرك الأساسي لمقاومة الجبليين للغزو الروسي منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى هزيمة الإمام الشيخ

شامل نهائياً عام ١٨٥٩. كان أول صوفي داعية لها في القوقاز الشمالي هو نقشبندي شيشاني، الشيخ منصور أوشورما، من قرية ألدي. ومما تناقلته الروايات الشيشانية، أنه قد تلقن الطريقة في بخارى، أو في القوقاز، وهو الأرجح جداً، على يد نقشبندي بخاري كان عائداً من مكة المكرمة. ويقول مصدر آخر أقل احتمالاً، إن حسن القدري قد أنزله عنده، وأن منصور قد تلقن الطريقة في مكان ما من الأمبراطورية العثمانية ثم أرسله الأتراك إلى القوقاز لحث الشيشانيين والداغستانيين على الانضمام إلى الحرب ضد الروس.

ثم كان الشيخ منصور أول من خاض الجهاد ضد الروس. وبعد أن أحرز انتصارات باهرة، منها تدمير لواء روسي عند نهر سونجه عام ١٧٨٥، أسره الروس في أنبا عام ١٧٩١، وحكم عليه بالسجن المؤبد ومات عام ١٧٩٣ في قلعة شلوسلبورغ.

واختفى النقشبنديون من القوقاز طوال ثلاثين عاماً تقريباً ولم تعد طريقتهم إلى الظهور ثانية إلاّ عام ١٨٢٣ في ما وراء القوقاز الشرقي، في شيرفان. ولقد عرفت تماماً في هذه المرة سلسلة نقل أسرار الطريقة. كان الشيخ إسماعيل من كردامير أول من أخذ يدعو إليها ـ بعد ذلك التاريخ ـ وكان مريد مرشد نقشبندي كردي، الشيخ خالد من مدينة السليمانية، في العراق، وكان هو نفسه مريد الشيخ عبد الله من مدينة دلهي. وكان لإسماعيل الكرداميري مريد هو الشيخ خاس محمد أفندي من مدينة يرغلر في داغستان الجنوبية، وكان المرشد النقشبندي الثاني، بعد الشيخ منصور أوشورما، الذي دعا إلى الحرب المقدسة ضد الروس. وكان الشيخ محمد اليلرغلري قد لقن أسرار الطريقة للشيخ جمال الدين

من قزي - قوموخ في داغستان الوسطى، وكان أول إمام فيها، كما أصبح أستاذ غازي محمد، ثاني إمام، والشيخ شامل، ثالث إمام في داغستان.

وفي أيام الإمام شامل، عام ١٨٣٠، دخلت الصوفية النقشبندية إلى بلاد الشيشان على يد أحد مريديه، الشيخ تاشو حجي، من مدينة إينديري، ويظهر أنه قد لقن أسرار الطريقة على يد الشيخ عبد الرحمن من مدينة صوغراتل، الذي توفي في منفاه في سيبيريا، وكان هو أيضاً مريد جمال الدين القزي - قوموخي. ولقد اكتسب تاشو حجي هالة كبيرة من القداسة لشدة حروبه وكرهه اللدود للكافرين، وظل بالنسبة إلى الشيشان في منزلة شامل عند الداغستانيين، الأستاذ المبجل والسيد الروحي والزعيم السياسي.

وفي آسيا الوسطى، كانت النقشبندية المحرك الأول لثورة المسلمين في وادي فرغانة، منها ثورة أنديجان، عام ١٨٩٨. كان زعيم الثورة الإيشان مدلي، وكان شيخاً نقشبندياً. وقد أعدمه الروس شنقاً.

واختفت النقشبندية لوقت من مقدمة المسرح القوقازي بعد هزيمة الإمام شامل واحتلال الجيوش الروسية القوقاز الشمالي. فقد استشهد شيوخها في المعارك ونفي غيرهم وقتلوا في السجون، ويئس قلة منهم وغادروا القوقاز إلى الأمبراطورية العثمانية. بيد أن الطريقة استمرت تنشط بشكل شبه سري في بلاد الداغستان والشيشان. وبعد موت تاشو حجي، انتقلت النقشبندية في بلاد الشيشان إلى الشيخ بشير، وهو كوميكي من قرية أقصاي في داغستان الشمالية. وكان الشيخ بشير أول مؤسس لسلالة أقصاي. وكان خلفه كوميكياً أيضاً، الشيخ علي خان، وقد أقام في قرية

شيدي ـ يورت في بلاد الشيشان، وقد نفي إلى سيبيريا وقتل فيها.
وثالث مرشد لسلالة أقصاي هو الشيخ دُني أرسانوف، شيشاني من قرية كين ـ يورت، قتل بيده المسؤول الروسي عن نفي الشيخ علي خان، ثم أصبح زعيم حرب مغاوير، ودمر بعض المدن القوزاقية وهو على رأس مريديه، واشتهر بورعه الشديد. ثم قتله القوزاق في معركة عام ١٩١٧.

□ □ □

القادرية، طريقة صوفية أسسها في بغداد عبد القادر الكيلاني (توفي عام ١١٦٦). ولهذه الطائفة فروع في الشرق الأوسط العربي كله، وفي مصر وأفريقيا الشمالية وتركيا والهند. ونجد في روسيا طرقاً منبثقة عن القادرية في القوقاز الشمالي، حيث دخلت الطريقة إلى آسيا الوسطى عام ١٨٥٠. ويمارس القادريون الذكر جهراً، ترافقه أناشيد ورقصات ينتشي لها المرء من شدة الوجد، ترافقها، في بعض الفروع، طبول وكمانات. ومن هنا أطلق عليهم الأدب السوفياتي: «القافزون».

كان أول مرشد قادري في القوقاز راع كوميكي، هو كونت حجي كيشييف، وكان يعيش في القرية الشيشانية أليسخان ـ يورت. كان في مطلع عام ١٨٥٠ قد جاء إلى بغداد، وتقول الأسطورة أنه قد لقّن الطريقة على يد عبد القادر الكيلاني، مؤسس الطريقة. وكانت الطريقة التي أسسها كونت حجي في بلاد الشيشان وسميت على اسمه، طريقة كونت حجي، قد لاقت نجاحاً واسعاً لطابعها الشعبي ودعوتها إلى التصوف والتقشف. كان المريدون القادريون هم الذين نشروا الإسلام، في الربع الأخير من القرن الرابع عشر، بين الإينغوش الذين كانوا وثنيين آنذاك. كان مريدو

الطريقة الجديدة يعارضون، في بداية أمرهم، كل عنف ويؤيدون عدم مقاومة الكافرين، لكنهم ما لبثوا أن حملوا السلاح ضد التسلط الروسي. واعتقل كونت حجي عام ١٨٦٤ ونفي وقتل في السجن عام ١٨٦٧. وقد أعلنت السلطات الروسية طريقته خروجاً على القانون.

ولقد اشتركت الطريقتان، النقشبندية والقادرية، في الثورة الكبرى التي أدمت داغستان وبلاد الشيشان خلال عامي ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨، وقاست كلتاهما من القمع الشديد الذي كان من نتيجته نفي الآلاف من المريدين وشنق المشايخ الذين لم يقتلوا في المعركة. ومن غريب المفارقة أن كارثة عام ١٨٧٨، الشبيهة بمجزرة الشيشان في عامي ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤، لم تؤدِ إلى انحسار الصوفية القوقازية، إنما كانت نقطة انطلاق لِتَجَدُّدِها. كتب مؤرخ شيشاني معاصر: «بين عام ١٨٧٧ وثورة ١٩١٧، كان قرابة جميع السكان البالغين الشيشانيين ـ الإينغوشيين ينتمون إلى إحدى الطريقتين القادرية أو النقشبندية».

ولقد قام شيء من التوازن بين النقشبندية، الأكثر أرستقراطية وثقافة وإعداداً للنضال المعلن، والقادرية، الأكثر شعبية وصوفية والأفضل تكيفاً مع السرية.

ثم انشقت طريقة كونت حجي، بعد موت مؤسسها، إلى أربعة فروع:

١ ـ فرع منتظم استمر يحمل اسم طريقة كونت حجي وانتشر في داغستان الشمالية وبلاد الشيشان والإينغوش.

٢ ـ طريقة بمت جيراي حجي ميتايف، وكان مركزها الروحي في قرية أفتورا في بلاد الإينغوش. وقد اقتصرت في بدايتها على

قوم من الشيشان يدعون (غونوي)، ثم انتشرت بين الأمة الشيشانية كلها. وظلت زعامة جماعتها الصوفية وراثية في عائلة ميتايف.

٣ ـ طريقة بطل حجي بلهورويف، من قرية سورهوهي، في مقاطعة نزران، في بلاد الإينغوش. وقد اقتصرت في بدايتها على بلاد الإينغوش، ثم أصبح لها مريدون في بلاد الشيشان وداغستان. وكانت زعامتها، ولاتزال، وراثية في عائلة بلهورويف. وتطبق هذه الطريقة بكل حزم مُثل الجهاد العليا، وهكذا استشهد جميع زعمائها تقريباً في المعارك أو أعدموا بأيدي السلطات القيصرية السوفياتية. ومريدو بطل حجي متزمتون جداً، يعيشون منغلقين على أنفسهم ويتجنبون كل احتكاك مع من هم ليسوا مريدين. وليس في ذكرهم موسيقى.

٤ ـ طريقة تشيم ميرزا ميرتوب، في مقاطعة شالي في بلاد الشيشان. ويطلق الأدب السوفياتي على مريدي هذه الطريقة: (المطبلون)، لأن ذكرهم يصاحبه قرع الطبول.

كان متصوفة القوقاز قد رحبوا بثورة أكتوبر ظناً منهم أنها الفرصة لتحقيق برنامجهم الديني والسياسي، ببناء مملكة الله وطرد الكافرين الممقوتين والمجرمين بتواطئهم مع الروس، وإلزام المسلمين الفاسدين القيام بواجبهم.

□ □ □

ولقد قامت النقشبندية بدور بارز في النضال الذي أغرق القوقاز الشمالي بالدم خلال أعوام ١٩١٧ ـ ١٩٢٢.

كان نجم الدين غوستو، الشيخ النقشبندي، قد انتخبه، في آب ١٩١٧، مجلس علماء داغستان إماماً لداغستان وبلاد الشيشان. ثم تكتل معه الشيخ أوزن حجي، ومشايخ النقشبندية: محمد، من قرية بيلوكاني، ودرويش محمد، من آندي، وإبراهيم حجي، من كوتشري، وسيد أمين، من أنسالتا، وسراج الدين حجي، من أفراستان، فقادوا جميعاً الثورة الداغستانية ـ الشيشانية الكبرى التي بدأت عام ١٩٢٠ ولم تتحطم نهائياً إلاّ في خريف عام ١٩٢٥. وقد توفي أوزن حجي في خضمّ الثورة، وكان في التسعين من عمره، واستشهد معظم مشايخ النقشبندية في المعارك، وأسر نجم الدين غوستو وسيد أمين، فأعدمهما الشيوعيون رمياً بالرصاص عام ١٩٢٥.

كان قمع السكان الذي أعقب الثورة طويلاً ودامياً. وصفيت جميع المحاكم الشرعية وجرّد السكان من سلاحهم، واعتقل معظم رجال الدين، حتى الذين لم يشتركوا بالثورة، منهم الشيخ علي ميتايف، المرشد القادري، في عام ١٩٢٤، الذي حوكم وأعدم عام ١٩٢٧، وسالسا ينداروف، الزعيم النقشبندي في بلاد الشيشان، وكان اعتقاله عام ١٩٢٨، ثم أعدم عام ١٩٢٩، والشيخ النقشبندي علي، من قرية آكوشا، وكان مع ذلك قد عارض نجم الدين غوستو في أعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢٢، فأعدم في العام الأخير. بيد أن القمع لم يحطم مقاومة المتصوفة، إنما أعطى حركتها دفعاً جديداً.

عام ١٩٢٥، كتب السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الداغستاني «إن الصوفية في ذروة توسعها في داغستان.

ويدعي المريدون الصوفيون أنهم شيوعيون. حقاً إن لعقيدتهم شيئاً من الشيوعية البدائية، دينية ومتقشفة، أشبه بالمسيحية البدائية».

ورغم ملاحقة المريدين، كان لا يزال يوجد منهم عام ١٩٢٦ في الجمهورية الشيشانية قرابة ٦٠٠٠٠ مريد، لا سيما من القادريين، من سكان الشيشان الذين كان مجمل عددهم ٤٠٠٠٠٠ نسمة. وفي هذا التاريخ بالذات، كان في داغستان ٦١٢٠٠ مريد و١٩ شيخاً و٦٠ وكيل شيخ، مقابل ٦٠٠٠ عضو في الحزب الشيوعي البلشفي. ويظهر أن عدد المريدين الصوفيين تافه في الجمهوريتين الأخريين من القوقاز الشمالي، كبارديا وأوسيتيا.

عام ١٩٢٨، بدأت التصفية الكبرى للعناصر الدينية فأثارت ثورة جديدة. ولقد قاتل مريدو الطريقتين جنباً إلى جنب في هذه المرة. كان بين مشايخ النقشبندية شيتا إيستامولوف، وأرسانو كاي خضر ليزوف، من جيرمنتشيك، وكانا أعلى سلطة صوفية في بلاد الشيشان، وقد استشهدا في المعارك. وتولى قيادة الثورة في بلاد الإينغوش مريدو بطل حجي. وقد استشهد في المعارك والسلاح بأيديهم، تسعة أبناء وسبعة أحفاد لمؤسس الطريقة. ثم سحقت الثورة عام ١٩٣٦، لكنها استؤنفت في شتاء عام ١٩٤٠، كانت في هذه المرة بزعامة قوميين، أعضاء في الحزب الشيوعي الشيشاني. وفي ٢٣ شباط ١٩٤٤، نفي، كرد انتقامي على هذه الثورة، جميع السكان الشيشانيين والإينغوش في شروط رهيبة إلى سيبيريا وقازاخستان. وأزيلت جمهوريتهم ووزع إقليمها بين الجمهوريات الاشتراكية الفيديرالية السوفياتية المتحدة وجمهورية جورجيا، بيد أن بعض المريدين القادمين ممن اشتركوا في الثورة، نجحوا باللجوء إلى الجبال العالية وشن حرب المغاوير حتى عام ١٩٤٧.

بعد موت ستالين، بيّضت رسمياً من جريمة «التعاون مع الألمان» صفحة البقية الباقية من الجبليين المنفيين الذين نجوا من المجزرة، وسمح لهم بالعودة إلى أرضهم. بيد أن نفيهم كان له أثر فرعي لم يكن متوقعاً، إذ نهضوا نهضة صوفية جديدة. فالطرق الصوفية كانت رمز الأمة الوحيد لدى المنفيين وسبب استمرار حياتهم وهم في مخيماتهم في سيبيريا ومنفاهم في سهوب قازاخستان. ويعترف جميع الخبراء السوفيات بهذا الواقع: «أثناء الحرب، وبسبب شروط ما بعد الحرب، كان زعماء المجتمعات المريدية يبجلون المعتقدات الدينية. ومما يفسر هذه الثورة هو آلام الحرب وعبادة الشخصية وعنف السياسة اللينينية تجاه القوميات مثل الشيشان والإينغوش».

كانت الجماعات الصوفية توسع نشاطها بشدة طوال سني النفي، ولا سيما تلك التي انبثقت عن طريقة كونت حجي. فقد ولد فرع جديد في قازاخستان بحدود عام ١٩٥٥، وهي طريقة ويس حجي، المنبثقة عن طريقة تشيم ميرزا، وقد أسسها الشيشاني ويس حجي زاجي يف، وقد أطلق الأدب الروسي على مريديها: «جماعة الطاقيات البيضاء»، لأن المريدين يعتمرون طاقيات من الفرو الأبيض أثناء قيامهم بشعائر الذكر، الذي ترافقه أناشيد وعزف كمان. وأكثر من ذلك، أنه كان لمأثرة هؤلاء الجبليين الصلبين نتيجة غير متوقعة، فقد أدت إلى توسع جديد للصوفية، بفعل الإسلام المحافظ، بين سكان قازاخستان وقرغيزيا الشمالية.

حين عاد المنفيون إلى أرضهم الأم وجدوا جوامعهم وقد دمرت جميعها، ولقد ظلت الجمهورية الشيشانية ـ الإينغوشية، حتى عام ١٩٧٨، الإقليم الإسلامي الوحيد في الاتحاد السوفياتي الذي عانى

من تجربة الشيوعيين الأساسية التي اعتمدت تدمير الدين الإسلامي بإزالة مؤسسات العبادة عن بكرة أبيها.

لم تقم الطرق الصوفية بدور كبير في آسيا الوسطى، كالذي قامت به في القوقاز، بيد أننا نعرف أن الكثيرين من زعماء البصمتشية كانوا مريدين صوفيين وقد قاتلوا والسلاح بأيديهم ضد الجيش الأحمر من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٨، بما فيهم كبارهم وأهمهم: مدمين، قورشيمت، جاني بيك، إسلام قورباشي، ملا دهقان...

□ □ □

سيطرت في آسيا الوسطى خمس جماعات صوفية: النقشبندية والقادرية الموجودتان في القوقاز، وثلاث طرق أقل نفوذاً:

□ ١ ـ **الكبراوية:** جماعة صوفية تأسست في خوارزم في القرن الثاني عشر. مركز هذه الطائفة الروحي هو قبر نجم الدين كبرا، الموجود في واحة قونيه ـ أورغنتش، في الجزء الشمالي من جمهورية تركمانيا. وتقتصر هذه الطائفة اليوم على خوارزم في جمهورية قره قلبقستان. ويمارس الكبراويون الذكر جهراً.

□ ٢ ـ **اليزاوية:** جماعة صوفية أسسها في القرن الثاني عشر الشاعر الصوفي أحمد يزاوي. مركز هذه الطائفة الروحي هو قبر مؤسسها، الموجود في مدينة تركستان من منطقة تشيمكنت في جمهورية قازاخستان. مريدو هذه الجماعة زاهدون جداً، ويوجدون في آسيا الوسطى كلها، ولا سيما

وادي فرغانة. ويمارس اليزاويون الذكر جهراً وتشترك فيه النساء.

ولقد تولد عن اليزاوية، في العشرينيات، فرع أساسي أضاف «مكافحة الكافرين» إلى السعي الصوفي بالطريق العقلي المؤدي إلى الله تعالى. وقد اتخذت هذه الطريقة الجديدة اسم طائفة (إيشان شفلو)، وكان مركزها الروحي مدينة أرسلان باد، في الجزء القرغيزي من وادي فرغانة، ولها مريدون في أوزبكستان، في مناطق نمنغان وفرغانة وأرديجان، وفي قرغيزيا في منطقتي أوش وجلال آباد.

وهي طريقة سرية جداً، اكتشفتها السلطات السوفياتية عام ١٩٦٣، أثناء محاكمة كبيرة لمشايخ صوفيين اتهموا بالإعداد لتأسيس دولة إسلامية دينية، ورفضهم الخدمة العسكرية وتنظيمهم مدارس دينية وبيوت صلاة سرية.

□ **٣ ـ القلندرية**: جماعة صوفية مريدوها متجولون وأقرب إلى الشامانيين، يعتبرون قبر الشيخ صوفي في سمرقند مركزهم الروحي. والقلندريون لا يمارسون الذكر.

ولقد نشأت في منطقة طشقند جماعة صوفية جديدة، في تاريخ يصعب تحديده، بيد أنه يظهر أنه حديث جداً، يرجع إلى ما قبل عام ١٩٤٥. ولقد أطلق عليها المؤلفون السوفيات، خلافاً للأصول، اسم: (طائفة). ولدت في منطقة طشقند. ولقد أطلقت على نفسها اسم: (أهل القرآن). ويقول ت .س. سيدبايف أن مريديها يكافحون من أجل تنقية الإيمان وصفائه. مما يستتبع المراعاة الشديدة للصلوات الخمس اليومية. وهم يستنكرون نشاط الإدارات الروحية

الإسلامية، ويتهمونها بخيانة تعاليم القرآن الكريم، وبتساهلها الشديد تجاه المسلمين الفاترين.

والجماعات الصوفية ليست مجموعات صغيرة قوامها ممن يلقنون أسرار طرقها، وتتحزب لنفسها. فرغم طابعها الشبه سري، تظل منظمات جماهيرية. مثال ذلك، خلال عامي ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩، كان ٥٠,٩٪ من المسلمين المؤمنين في الجمهورية الشيشانية ـ الإينغوشية مريدين ينتمون لإحدى الجماعات الصوفية. وفي هذه الجمهورية، التي يبلغ عدد سكانها المسلمين أكثر من مليون نسمة، تبلغ النسبة المئوية للمؤمنين، عن قناعة أو تقليد، بين ٥٠ ـ ٦٠ بالمئة كحد أدنى من مجمل السكان المسلمين، بينهم ١٥٠٠٠٠ ـ ١٦٠٠٠٠ مريد ينتمون إلى إحدى الطرق الصوفية. بينما لم يكن في هذا الإقليم قبل ثورة أكتوبر غير ٦٠٠٠٠ مريد و٣٨ شيخاً.

□ □ □

الجماعات الصوفية تمثل اليوم مزيجاً غريباً من العناصر التقليدية والتجديدية. ولقد دخلت العناصر التجديدية لتعطي الطرق الصوفية حماية أفضل تجاه السلطات السوفياتية، وتجذّر عمقها كثيراً في الوسط الشعبي.

ثم طرأ تغير بليغ الدلالة، فلقد قام اتحاد وثيق تام تقريباً بين الجماعات الصوفية والبنية القبلية للمجتمع الإسلامي، ولا سيما في القوقاز الشمالي وأقاليم آسيا الوسطى التي كان سكانها بدأوا قبل عام ١٩١٧، مثل قازاخستان وتركمانيا وقرغيزيا وقره قلبقستان، وحيث لا تزال بنيات المجتمع القبلية تعيش تماماً حتى اليوم. ففي بلاد الشيشان، تتألف خلية المجتمع الأساسية من (التايب)، وهي

شق من القبيلة [أو ما يسمى: فخذ قبيلة]، كان أفرادها قبلاً يأخذون بالثأر، ويتحكم بحياتهم كلها وبأدق تفاصيلها مجلس من الشيوع ومحكمة قبلية. وللتايب أيضاً مقبرته الخاصة، ومكان عبادته ويقام عادة في بيت أحد المتصوفة. وكان أفراده يراعون قبلاً قواعد الزواج الإلزامي من القبيلة. ولقد أصبح (التايب ـ فخذ القبيلة) أساس المنظمات الصوفية التي أخذت، منذ الثورة، تقصر إدخال مريديها على بعض القبائل. وبذلك أصبح ولاء المريدين مزدوجاً: ولاء للقبيلة وولاء للطريقة، مما يعطي المنظمات الصوفية حماية أفضل ضد ملاحقات بوليسية محتملة.

خلال العشرين أو الثلاثين سنة الماضية، طرأت على الصوفية تغيرات كبيرة في بلاد الشيشان ـ الإينغوش ، ويمكننا أن نؤكد أن هذه الصوفية قد وجدت شكلاً يتكيف بأفضل وجه مع العالم المعاصر. ولقد أصبحت مجتمعاً صغيراً من المريدين يضم بضع عائلات ذوي قربى تسكن قرية واحدة، وعائلات أيضاً تسكن قرى أخرى. والرئيس الديني لأي مجتمع هو الملا، وإذا لم يتوفر، فأشد المريدين نشاطاً القادر على القيام بوظائف الملا. ويرتبط كل مجتمع بطريقة صوفية ويفوض أمره إلى السلطة الروحية، لمؤسسها.

والطرق الصوفية متباعدة المراكز جغرافياً، لكن بنيتها مرنة وفعالة كما كانت عليه قبلاً أيام شامل. بيد أن سلطة المرشدين ورؤساء الفروع المحلية للجماعات الصوفية تظل مطلقة، وتذكر المصادر الروسية، وإنما بشيء من المبالغة، أن تأديبها جائر يستهدف استمرار تلاحم الجماعات الصوفية، من غرامات فادحة وإكراه على الركض عشرات الكيلومترات عبر الجبال تفرض على المريدين المتهمين بالميوعة أو التلوث بالعالم الخارجي، وتصل العقوبة إلى الموت في

طريقة بطل حجي إذا ارتد أحد عن عقيدته. والجماعات الصوفية مجتمعات مغلقة لكنها ليست سرية. ولا يخفي المريدون انتماءهم للصوفية. كما أن بعض الجماعات الصوفية، مثل جماعة بطل حجي وويس حجي، تتجنب الاحتكاك بالذين لم يطلعوا على أسرار الطريقة وتمارس الزواج من أصحاب طريقتها فحسب. ويتميز مريدو ويس حجي أيضاً بثيابهم المختلفة التفصيل وبلحاهم ذات الشكل الخاص. وللجماعات الصوفية خزينتها الخاصة بوجه عام، وتعتمد على هبات الأفراد وتخصص لمساعدة عائلات ضحايا القمع. ويفترض في كل مريد أن يكون مسؤولاً شخصياً عن حياة وأمن وحرية إخوانه جميعاً.

والجماعات الصوفية ليست مجرد منظمات تقشفية منفصلة عن الدنيا، سيرها الطويل بامتداد الطريق (أي الطريقة) المؤدية إلى الله تعالى، هو همها الوحيد. إنما المريدون مدعوّون أيضاً لبناء مملكة الله (الخلافة العادلة) على الأرض، ويتخذون من أنفسهم مقاتلين للكافر الغازي. وتصف المصادر السوفياتية السابقة والروسية الحالية أصحاب الطرق بأنهم «قوى متعصبة، معادية ورجعية».

ويسيطر أفراد الجماعات الصوفية على المدارس القرآنية السرية ويتولون إدارتها، ويدرسون فيها مبادىء التعاليم الدينية الإسلامية، واللغة العربية، ويقومون بالاحتفالات الدينية المألوفة، مثل الختان وعقد الزواج وشعائر الدفن، الخ، إذا لم يتوفر عندهم رجال دين رسميون، ويديرون بيوت الصلاة السرية. ويتمركز نشاطهم بوجه عام حول الأماكن المقدسة العديدة، وهي أماكن حج، الكثير منها قبور أولياء (مزارات) صوفيين استشهدوا في معاركهم ضد الكافرين.

مراجع عن الشيشان:

- «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي» - ألكسندر بينغسن وشانتال لوميرييه كليكجاني - ترجمة عبد القادر ضللي - دار الفكر المعاصر - بيروت ١٩٨٩.
- «صحافي ومدينتان» رحلة إلى سمرقند وزنجبار - رياض نجيب الريّس - رياض الريّس للكتب والنشر - بيروت ١٩٩٧.

- Between Marx and Muhammad - The Changing Face of Central Asia- Dilip Hiro - Harper Collins - London 1994.

The Emergence of Modern Turkey - Bernard Lewis - Oxford University Press 1961.

- Crescent in a Red Sky - The Future of Islam in The Soviet Union - Amir Tamiri - Hutchinson- London 1989.

حكاية
الانتصار والهزيمة

دفاعاً عن المرأة

■ «قال بعض الحكماء: أمير بلا عدل كغيم بلا مطر، وعالم بلا ورع كأرض بلا نبات، وشاب بلا توبة كشجر بلا ثمر، وغني بلا سخاء كقفل بلا مفتاح، وفقير بلا صبر كسراج بلا ضوء، وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح».□

«سراج الملوك»

محمد بن الوليد الطرطوشي

لم يعد يحق لصحافي أو كاتب في لبنان اليوم، أن يتباهى بالحريات السياسية والفكرية والفنية التي نَعِمَ بها حتى سنوات خلت، كما دأب العديد من الكتّاب والأدباء والصحافيين على التغني بأمجاد تلك الحريات الزائلة منذ مطلع الاستقلال. ولم يعد من اللائق التبجح، بعد خمسين سنة أو نحوها، خصوصاً أمام «زملاء» من حملة الأقلام في مشرق العالم العربي ومغربه، بأن لبنان هو وطن الحريات وموطن الإبداع. هذا كلام زمان ولّى.

ولم يعد لبنان يبتهج لتلك الصرخة القديمة التي عاشها جيلنا في الستينيات حتى مطلع السبعينيات، التي كانت تنادي كتّاب وشعراء وفناني ومفكري العالم العربي «المتعبين» من حصار أقلامهم واضطهاد أفكارهم، أن يأتوا إلى بيروت (من قبل أن تصبح عاصمة ثقافية عربية للعام ١٩٩٩) ليلقوا بأحمالهم الفكرية والإبداعية في

أحضانها. وكانت بيروت تتلقفهم، وتغربلهم وتهضمهم، وتعيد تصدير أعمالهم وأسمائهم إلى مختلف أرجاء العالم.

كانت تلك أيام زمان عندما كان العالم العربي مغلق النوافذ وموصد الأبواب لألف سبب وسبب، بينما كانت شمس الحريات تُشرق في لبنان، وكان ضياؤها يشتد كلما اشتدت ظلمة الأقطار العربية. إلى أن أخذ هذا الضياء يخبو عندما أصبح عدد من العواصم العربية ينافس بيروت في مساحات الحرية، صحافة أو نشراً أو تلفزة أو إعلاماً. وكلما أخذت هذه المساحات تتسع عند الجيران العرب، كانت تضيق في بيروت. وأصبح ما يُمنع في لبنان يُسمح في غيره، إلى درجة من الازدواجية المضحكة ـ المبكية. حتى قيل إن بيروت تدفع ثمن «تعريبها»، وكأن لم يرسب من نضال بيروت «العروبي» سوى الفكر الأحادي المغلق الرافض للآخر، غير المعترف بالتعددية السياسية الثقافية، أي منحى اتخذت. حتى أصبحت الوسيلة هي المنع والأداة هي القمع.

لذا لم يعد البيت الثقافي اللبناني بيتاً يستطيع أن يفاخر بأن عديد «الأحرار» الذين يسكنونه قليل كما كان الكرام قبلهم. فقد تأكد بعد نصف قرن أنه بيت من زجاج، ليس مَنْ فيه قادراً أن يرشق أي بيت عربي آخر مماثل بوردة، فكيف بحجر. لقد انتهى عصر «العنطزة» الثقافية اللبنانية وتساوى تعامل النظام اللبناني مع المثقفين من مختلف الفئات والاختصاصات بالأنظمة العربية الأخرى، ومَنْ ساواك بغيره ما ظلم. لقد تواضع الأداء الثقافي اللبناني ـ وعلى حق ـ فلم يعد الأفضل والأرحب والأجرأ والأجمل. ومَنْ راقب نشاطات بيروت عاصمة ثقافية على امتداد سنة كاملة، أدرك كم أصبحت بيروت قرية متواضعة ومسورة تعيش عصر ثقافة ريفية، لا

عاصمة ثقافية عربية مفتوحة ـ خارج أي ادعاء بالعالمية ولله الحمد ـ تعيش عصر العولمة.

□ □ □

أقول قولي هذا لأصل إلى أن الانكفاء الثقافي اللبناني عن العالم العربي إلى حد العزلة، لا يبرر أن لا يكون لنا موقف مما يحدث من فواجع ثقافية في أقطار عربية أخرى، وتحديداً في الكويت، البلد العربي الآخر مع لبنان صاحب النظام البرلماني الدستوري والصحافة المتعددة الحرة، لأن التصدي لما يحدث هناك، يعني ضرورة التصدي لها في لبنان. وإن حدوثها في الكويت يعني إمكانية حدوثها في لبنان. فللعولمة أكثر من وجه. والعولمة العربية ـ الإسلامية هي أخطر ما يواجه لبنان الثقافي. فمجموعة الأحداث التي تراكمت في الكويت خلال شهر واحد تدفع إلى التفكير بجدية نحو خطورة انتقال بعضها أو كلها بأسلوب لبناني يختلف ـ ربما بنعومته ـ عن الأسلوب الكويتي، لكنه يؤدي إلى النتيجة نفسها. فحذار، لأن الوقاية في مجال الثقافة والحريات أهم وأخطر من العلاج.

في غمرة قضية الدكتور أحمد البغدادي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت، التي شغلت البلاد في تشرين الأول ١٩٩٩، لدعوى أقامها الإسلاميون عليه أدت إلى سجنه لمدة شهر (أفرج عنه بعد أسبوعين) بسبب مقالة كتبها في مجلة جامعية محدودة الانتشار في العام ١٩٩٦، حلّل فيها تاريخياً أسباب فشل النبي محمد في إقناع أهل مكة بالدين الإسلامي الجديد، قبل أن يقرر الرسول الهجرة إلى المدينة. في الوقت نفسه أقام الإسلاميون دعوى أخرى ضد الدكتور شملان العيسى أستاذ العلوم السياسية أيضاً في

جامعة الكويت، لأنه كتب مقالاً في الصحافة الكويتية يقول فيه إنه لا يريد أن تُحكم الكويت بواسطة الشريعة الإسلامية على طريقة طالبان في أفغانستان.

وسط الغبار السياسي الذي أثارته هاتان القضيتان، أعلن الإسلاميون في الكويت أنهم بصدد تشكيل لجنة ترصد الكتابات المسيئة إلى الدين وتحريك دعاوى قضائية ضد ناشريها. وأوضح رئيس جمعية الإصلاح الاجتماعي (الإسلامية) عبد الله المطوع، أن اللجنة المزمع تشكيلها سترصد نشر الكتابات المسيئة إلى الدين وتعرضها على محام متخصص قبل إبلاغ الجهات القضائية. ومما قاله المطوع (صاحب فكرة تشكيل هذه اللجنة) أن هناك أشخاصاً استخفوا بثوابت الدين والأخلاق ولن تردعهم إلاّ العقوبات القضائية. «فمن أمِنَ العقوبة أساء الأدب».

ورأى المطوع أن من الضروري عدم السماح لمن يدينهم القضاء بأمور فيها طعن بالدين ـ كما حدث مع أستاذ العلوم السياسية أحمد البغدادي ـ بالعودة إلى التدريس في الجامعة، وقال: «هؤلاء لا يؤتمنون على أبنائنا الطلاب». وانتقد بشدة دعوة الليبراليين إلى حذف المواد التي تعاقب «جرائم النشر» من قانون الجزاء الكويتي، وحصرها في قانون المطبوعات، وجعل حق التقاضي في يد وزارة الإعلام وليس المواطنين، وقال: «هذه الدعوة تنتقص من حق دستوري للمواطن الكويتي، وواجب عليه أن يبلغ الجهات المختصة أي مخالفة للقانون، وأي مخالفة أسوأ من الطعن بالدين؟ إذا كان يحق لمن اعتُدي على جسده وماله أن يشتكي لدى القضاء فلم لا يشتكي من يُعتدى على دينه؟».

واعتبر الدكتور شملان العيسى، أستاذ العلوم السياسية الآخر

وواحد من أربعة ليبيراليين يواجهون دعاوى قضائية رفعها إسلاميون، أن هناك «مفهوماً جديداً وخطيراً عندنا في الكويت هو عودة محاكم التفتيش». وأشار إلى أن «التيار الديني بدأ يعلن صراحة ملاحقة الكتّاب والأدباء، وأنه يفرض وصايته على النصوص الدينية ولا يقبل إلاّ تفسيره لهذه النصوص».

ورأى أن الوسط الليبيرالي في الكويت «في حال صدمة» ولم ينظم نفسه بعد في مواجهة الإسلاميين «الأقوى تنظيماً والذين يملكون وسائل وإمكانات أكبر». واستدرك: «ربما كانت لمحنة البغدادي فائدة في أنها نبهتنا إلى الاتجاه الذي تسير إليه ديموقراطيتنا وهناك الآن فرصة كي تتوحد القوى الديموقراطية للدفاع عن حرية الرأي». وذكر العيسى إن «وراء حملة القضايا ضد الكتّاب والأدباء الليبيراليين دوافع سياسية، فهناك حملة في المنطقة ضد المجموعات الإسلامية يواجهها هؤلاء بإجراءات تحشد لهم الشارع وتقوّي صفوفهم، مثل رفع القضايا باسم الدين». («الحياة» ١٤/١٠/١٩٩٩).

□ □ □

حقوق المرأة السياسية في الكويت، موضوع سيطول الحديث عنه لأنه موضوع سيراوح مكانه لزمن طويل. ومجلس الأمة الكويتي سيحاول مجدداً وضع حد للمبادرة الأميرية التي منحتها بـ«مرسوم» حقوقها السياسية في الترشيح والاقتراع في الانتخابات النيابية والبلدية اعتباراً من العام ٢٠٠٣. وقد قسّمت هذه المبادرة المجتمع الكويتي إلى فريقين، الأول يؤيد المرسوم ويدعمه، وهو يشكل غالبية فريق الليبيراليين من مثقفين ومستقلين والذي تدعمه الحكومة صاحبة المشروع الأساسي. والثاني المعارض للمرسوم

ويدعمه الإسلاميون والمحافظون وأصحاب التيارات الدينية. إلى جانب عدد من النواب الذين يرون أن مقاعدهم النيابية مهددة مستقبلاً إذا اقترعت المرأة في دوائرهم. كما يرى البعض الآخر أنه لا يجوز استصدار قانون للمرأة من خلال مرسوم بقانون. وهكذا يظهر أنه ولو تنوعت الأسباب فالرفض واحد، أكان لأسباب شرعية أو اشتراعية، اجتماعية أو سياسية.

ومن المؤسف أن رئيس مجلس الأمة الكويتي لم يقف إلى جانب المرأة. فقد أعلن جاسم الخرافي لوفد نسائي زاره بأنه سيصوت ضد القرار لأنه يعتقد أن الوقت لم يحن بعد لحصول المرأة على حقوقها السياسية. وكان مرسوم منح المرأة حقوقها السياسية قد صدر خلال فترة الحل الدستوري لمجلس الأمة في أيار ١٩٩٩، من جملة مراسيم أخرى قالت الحكومة وقتها إنها ضرورية. وتوجس أعضاء البرلمان في المجلس الجديد من هذا التوجه الحكومي، محذرين من أن تعاود السلطة التنفيذية (الحكومة) التغلب على إرادة السلطة التشريعية (البرلمان) مستقبلاً، وحل مجلس الأمة دستورياً مرة أخرى، لإصدار مراسيم جديدة تعرف أنها لا يمكن أن تمرر في فترة الحياة النيابية العادية، وعلى رأسها مرسوم منح المرأة حقوقها السياسية إذا فشلت الحكومة في تمريره في فترة حياة المجلس الجديد وقبل العام ٢٠٠٣. ومن الممكن أن تلجأ الحكومة، في حال تعثر هذا المرسوم في البرلمان، إلى المحكمة الدستورية للفصل في قضية مرسوم المرأة باعتباره من المراسيم الضرورية.

واعتبر الليبيراليون أن الحكومة لم تبذل جهوداً كبيرة لتمرير هذا المرسوم بما لها من علاقات مع النواب. واعتبر الإسلاميون أن الحكومة كانت تعطل المرة تلو المرة مناقشة مرسوم المرأة، الذي كانوا

يريدون إسقاطه، وكان وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء محمد شرار قد أعلن عن استعداد الحكومة للتخلي عن الآلية المعتمدة حالياً لإقرار حقوق المرأة والمتمثلة في المرسوم الأميري واعتماد اقتراح قانون يقدمه النواب، موضحاً أن العديد من النواب يرفضون منح المرأة حقوقها السياسية لأنه جاء من فوق على هيئة مرسوم من الأمير وليس من تحت عن طريق مشروع قانون من النواب. وكانت حكومة الكويت تدرك تماماً أن رفض منح المرأة الحقوق السياسية سيضر بسمعة الكويت وأمنها على الصعيد الخارجي، وسيقلل من عطف دول العالم التي وقفت مع الكويت خلال الاحتلال العراقي، لاعتقاد الغرب أن الكويت دولة ديموقراطية. فرفض حقوق المرأة، سيضعف قناعة المجتمع الدولي بجدية الممارسة الديموقراطية في الكويت، حين تكون حقوق نصف الشعب مغيبة.

إلا أنه كان هناك مجموعة من النواب من غير الإسلاميين الذين يتحفظون على المشاركة السياسية للمرأة ويرفضون التصويت لصالح المرسوم لخشيتهم من أن يؤدي دخول المرأة في عداد الناخبين إلى تعزيز التوجهات المحافظة والقبلية في البرلمان.

لقد أصبح موضوع تحرير المرأة السياسي، أكان بمرسوم أميري أو بمشروع قانون برلماني، محكاً على الصعيد الدولي لمدى رسوخ وجدّية الديموقراطية البرلمانية في الكويت وما سيدفع دول الغرب أن تكيل الكثير من مواقفها بهذا المكيال. وسيكون أيضاً محكاً على الصعيد الداخلي، وهذا الأهم للكويت وجيرانها ولحلفائها في الغرب، لمدى قدرة النظام الكويتي بتجربته السياسية خلال الأربعين سنة الأخيرة على التصدي للمد الإسلامي الأصولي، بواجهاته المختلفة وجمعياته المتعددة. فالجماعات الإسلامية في الكويت

عُرفت بعدائها الأصيل للديموقراطية الليبيرالية في الكويت وتعددية المجتمع الكويتي. والبلد الأقدم في الجزيرة العربية في أساليب التعامل السياسي والأمني من تشجيع وقمع، لأشكال وتجارب متعددة من العمل الديموقراطي أو التسلطي، قد أخذ اليوم يستعيد مبادراته في هذا المجال، وبات من الصعب أن يقبل الكويتيون العودة إلى عاداتهم السيئة القديمة.

□ □ □

بانتظار قيام «محاكم التفتيش» الموعودة في الكويت، التي دعا إليها الإسلاميون، بعد أن استمرأوا إقامة الدعاوى على المثقفين، من أمثال البغدادي والعيسى، أراد هؤلاء الإسلاميون أن يتسلوا بدعوى جديدة، بانتظار ضحايا جدد للتربص بهم. وكانت هذه الدعوى الجديدة تمثل تمادياً في خيال الإسلاميين إلى حدود اللامعقول لتفسير ما لا يمكن تفسيره، فقد أقاموا في أيار ١٩٩٩ الدعوى على مجلة شهرية اسمها «الحدث» لنشرها مقالاً عن جمال لغة الأرقام، اعتبرته الجماعات الإسلامية منافياً للحشمة. وأتى المقال عن جمال لغة الأرقام والذي نشرته «الحدث» على ذكر الرقم ٦٩، فاعتبرت هذه الجماعات أن فيه إيحاء جنسياً. وقبلت السلطات حيثيات إقامة الدعوى على هذا الأساس وأصبح الرقم ٦٩ رقماً كافراً! و«الحدث» مجلة فكرية اجتماعية تتعاطى السياسة من غير ترخيص سياسي، يحررها ماضي الخميس وهو من الرعيل الصحافي الشاب في الكويت. وكان هناك ١٦ دعوى مرفوعة على «الحدث»، تنظر فيها المحاكم الكويتية.

وشيئاً فشيئاً وحجراً بعد حجر تكبر كرة الثلج، ويلجأ الإسلاميون إلى إقامة الدعوى على الأديبتين ليلى العثمان وعالية شعيب بتهمة

نشر نصوص غير أخلاقية. ليلى العثمان اتهمت باستعمال «ألفاظ منفّرة وغير أخلاقية» في اثنتين من رواياتها صدرتا بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٤. ولا تزالان متداولتين في مكتبات الكويت وأسواقها. أما تهمة عالية شعيب الأستاذة في جامعة الكويت، فجاءت بسبب نشرها كتاباً في العام ١٩٩٣ بعنوان: «عناكب ترثي جرحاً» أثار جدلاً في الكويت في العام ١٩٩٦ (أي بعد ثلاث سنوات من نشره) لحديثها عن وجود علاقات سحاق بين الطالبات في جامعة الكويت التي تدرّس فيها.

وأفاد محامي الدفاع عن شعيب ببطلان الاتهام المقدم من النيابة العامة ضد موكلته، لأنه لم ترد فيه أي إشارة أو عبارات قالت الدعوى المرفوعة «بأنها تمس بالذات الإلهية». وذكر أن قانون المطبوعات والنشر في الكويت ينص على «أن لا تقام الدعاوى عن هذه الجرائم إذا انقضى على تاريخ النشر ثلاثة أشهر»، مشيراً أمام هيئة المحكمة إلى أن كتاب موكلته «عناكب ترثي جرحاً» نشر في العام ١٩٩٣ أما الدعوى فتحركت ضدها في السابع من تموز ١٩٩٩ مما يسقط قانونية رفع الدعوى أصلاً.

وأوضح محامي الدفاع أن النيابة العامة على الرغم من عدم إقرارها بيان التهمة في صحيفة الدعوى ربما كانت تقصد بقضية «المس بالذات الإلهية»، عبارة «خريطة الله السرية» التي وردت في الكتاب، شارحاً للمحكمة أن موكلته كانت تريد في هذه العبارة التعبير عن القدرة السرية والخفية المنظمة والمنتظمة لخالق الكون. وقال: إذا كانت تلك العبارة تعد سبباً لاقتياد أنثى في هذه المكانة العلمية والاجتماعية إلى ساحة القضاء، فذلك يعني أن الاتهام بعيد

عن الفطرة السليمة. وكذلك رافع محامي الدفاع عن ليلى العثمان المتهمة بالإباحية في مجموعتها القصصية «الرحيل».

وقال النائب القبلي حسين المطيري تعليقاً على حقوق المرأة إن نسبة النساء اللواتي يطالبن بحقوقهن السياسية ضئيلة لا تصل إلى ١٠ في المئة. ورأى أن النساء المطالبات بحقوقهن السياسية هن اللواتي بلغن سن اليأس، وأن تحرير المرأة سيحدث انقلاباً في الحياة الكويتية. وسأل النائب السلفي أحمد باقر: «إذا ذهبت المرأة إلى الانتخابات فمن سيبقى في المنزل غير الهنديات والفيليبينيات».

ولعل في هذين التعليقين ما يعطي صورة ـ ولو ساخرة ـ عن كيف تفكر وتعمل الجماعات الاسلامية السلفية في الكويت.

□ □ □

إن مهام «محاكم التفتيش» الكويتية ستكون في غاية البساطة، لأن من السهولة في هذا العصر والزمان المتزمت تكفير الناس وتأويل الأقوال حسب الميول العدائية المستشرية لدى الإسلاميين بمختلف تجمعاتهم وحركاتهم في كل بلد عربي، بالنظر إلى فهمهم للإسلام وحسب ما يرونه في تفسيراتهم ويتعصبون له. فالإسلام لم يعرف، لا عند نشأته ولا في صدره ولا في تاريخه الطويل، شبيهاً لتلك الوصاية الدينية التي يمارسها بعض الإسلاميين اليوم ويريدون فرضها بغير حق على المسلمين، وكأنهم مصدر الشريعة ومفسروها المخولون. الإسلام لم يعرف هذا القدر من الكدر في أي وقت في تاريخه الطويل، كما لم يعرف هذا الكم من فقهاء الظلام وكذلك الجهل والتجاهل لتاريخه المضيء، قبل أن يدخل في نفق الظلمات الحديث.

ويزداد الكدر والمقت في أوساط الكتّاب والمثقفين وخاصة النساء في الكويت عندما يرون كيف يحقق الإسلاميون الأصوليون المكاسب ويستخدمون تكتيك الترهيب لدفع المرأة الكويتية إلى الخلف. في قضية الحجاب مثلاً، ثمة خلاف بين الأصوليين أنفسهم يعطي فكرة أن الأمر في الواقع يعمل حسب قوانين الأرض ونزاعاتها لا حسب قوانين الدين وتفاسيرها. فالبعض يريد فرض نظام «النقاب» السائد عند بعض القبائل البدوية في المناطق الساحلية من الخليج. والبعض الآخر يعظ بالنموذج الأفغاني. وهناك جماعة تطلق على نفسها «صحابة عمر الثلاثة» وهم الخليفة الصحابي عمر بن الخطاب، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، ثم الملا محمد عمر زعيم حركة طالبان.

وترى الدكتورة عالية شعيب أن الأصوليين الحركيين يطوفون الحرم الجامعي ليحثوا الطالبات على ارتداء «البرقع» الأفغاني، بدل غطاء الرأس الحالي، بمثابة حجاب.

أما ليلى العثمان فتقول إن الحجاب الذي ينشره الأصوليون هو «الجانب الهين من الإسفين». وتوضح قائلة «إنهم يريدون إنشاء لجنة مركزية تحدد ما ينبغي أن نلبس، ونكتب، وكيف نتحرك، وماذا نفعل، حتى آخر وأصغر تفصيل. إنهم يحلمون بنظام شمولي لا علاقة له بالإسلام أو بأي دين آخر».

ويرى الكثير من الكويتيين ـ رجالاً ونساءً ـ أن الأصوليين يأملون أن يضعوا الصعاب في طريق حياة كل عناصر الطبقة الوسطى، فتضطر هذه الطبقة إلى مغادرة الكويت والاستقرار في الغرب. وهذا وارد لأن لدى الكثير من العوائل الكويتية الموارد المالية الكافية لذلك. والمعروف أن الحركة الأصولية العالمية تحلم دوماً بأن تضع

يدها على بلد نفطي ثري. إنها تستهدف الكويت. وإذا ما هاجرت الطبقة الوسطى، فإن الكويت قد تسقط تحت السيطرة الراسخة للأصوليين الذين يمكن لهم عندئذٍ أن يستخدموها كمصرف لتمويل نشاطاتهم في أرجاء العالم. لهذا السبب فإن قضية الحريات «ومحاكم التفتيش» تمتاز بمغزى سياسي أكبر مما يبدو للوهلة الأولى.

□ □ □

إن الخوف من أن تصل «محاكم التفتيش» الكويتية، أو ما هو من طرازها إلى لبنان لم يعد بعيد الاحتمال. وتحصين الكويت في وجه تمادي هجمات الأصوليين أصبح واجباً لحماية أنفسنا، وحتى لا يصح فينا ما قاله عبد الله بن المقفع في «كليلة ودمنة»: «إن أموراً ثلاثة لا يجترىء عليها إلاّ الأهوج وهي: صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة».

لكن إذا كنا قد صاحبنا السلطان تزلفاً وائتمنا النساء على أسرارنا محبة، فإن ما يقوم به الإسلاميون حتى الآن ما هو إلاّ تجربة في شرب السم وتعميم تلك العادة. لذلك علينا أن نصر على غيم ماطر وأرض مزروعة وسراج بضوء وامرأة بحياء. لعل الأمير العادل يطل برأسه عندئذٍ ليبعد عنا ظلامية بعض العقول الهوج. فلا نموت نحن إذا تجرعوا هم السم. فالألفية الثالثة، لعلها، بداية أنوار كاشفة لرحلة تبدد الظلام الذي لفّنا منذ أكثر من عقدين من الزمن. فنتجرأ على تلاوة دعاء الحرية!

عناوين القمع كثيرة، لكن ثمة نار تحت الكتب والكتابة هي نار الصراعات السياسية. وهكذا يصبح الكتاب والكاتبات في ساحة

مكشوفة تقريباً، أما لسان حالهم فربما يشبه ما جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه، حينما «قال معاوية بن عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد حين تغير له الناس وطعنوا عليه: يا أمير المؤمنين، إنه ينطقني الأنس بك، وتسكتني الهيبة لك، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك، أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً؟

فقال الوليد: كلٌّ مقبولٌ منك ولله فينا علم غيب ما نحن صائرون إليه.

فقتل بعد ذلك بأيام».

اللهم نجِّ الكتب من المحرقة ونجِّ الكتّاب والكاتبات من المقتلة.

أحفاد سليمان وبلقيس

■ «أقسم لي بأنك لن تغتصبني، وأقسم لك بأنني لن أسيطر على ممتلكاتك.» □

بلقيس لسليمان الحكيم
«ملحمة كبرانجست»

عندما يتداخل التاريخ مع الأسطورة، تصبح الحصيلة المعتمدة أجمل من كل الروايات الموثقة.

تقول الرواية الأثيوبية القديمة، أنه في اليوم الأخير من زيارة بلقيس ملكة سبأ للملك سليمان الحكيم في أورشليم (القدس)، طلب الملك من الملكة أن تقضي الليلة الأخيرة معه في غرفته. وطلبت بلقيس وقتاً للتفكير، معتبرة أن رغبة سليمان هذه تنطوي على عرض رسمي بالزواج. وذهل سليمان عندما فسرت له بلقيس عرضه. وكانت نية سليمان أن يضاجعها في الليلة الأخيرة لا أن يتزوجها. وحفاظاً على كرامته وهيبة مُلكه لم يستطع التراجع أمام تفسير بلقيس الرسمي لعرض الليلة الأخيرة. ووضع سليمان في المقابل بعض الشروط على بلقيس، إذا هي قررت زيارته تلك الليلة.

ومن تلك الشروط أن تحترم بلقيس شخصه كملك وأن تصون ممتلكاته. وتم الالتزام باتفاقية بهذا المعنى بينهما. لكن سليمان كان متشوقاً للمضاجعة ويتآمر للإيقاع ببلقيس. فأقام مأدبة عشاء

ضخمة بهذه المناسبة قدم فيها عشرة أطباق شهية ودسمة «ملغّمة» بالبهار والتوابل والملح. ولما انتهت الوليمة دلف سليمان وبلقيس إلى الغرفة ليقضيا الليل. وكان في الغرفة سريران يفصل بينهما إبريق من الماء. نام كل منهما في سريره لوحده. وفي الليل عطشت الملكة جراء حرارة التوابل والبهارات، فأخذت تشرب من الإبريق الذي بينهما حتى فرغ. هنا اعتبر سليمان أن بلقيس قد أخلّت باتفاقهما، لأنها بشربها للماء الذي في إبريق الملك والفاصل بين السريرين قد اعتدت على ممتلكاته. ومن ثم رفض الملك أن يأتي لها بمزيد من الماء إن هي لم تنتقل إلى فراشه. وانتقلت بلقيس إلى فراش سليمان الحكيم، وأثمرت المضاجعة ولداً، كان أول ملوك الحبشة، وهو منليك الأول. وعلى هذا الأساس اعتبر آخر أباطرة الحبشة هيلاسيلاسي نفسه، الحاكم الخامس والعشرين بعد المئتين انحداراً من نكاح الملك سليمان لملكة الحبشة، بلقيس.

□ □ □

قبل حوالى ثلث قرن أو يزيد، كانت زيارتي الأولى لأثيوبيا، عندما كانت هي وأريتريا دولة واحدة. كان مطارا أديس أبابا وأسمرة هما المعبرين الوحيدين للوصول إلى اليمن وجنوب الجزيرة العربية. كانت الطائرة تصل من بيروت إلى أديس أبابا عن طريق جدة، ومن أديس أبابا إلى أسمرة، ومن أسمرة إلى الحُديدة في شمال اليمن أو منها إلى عدن في جنوبه. هكذا عرفت المطار الذي يُقصَف والمطار الذي يَقْصُف، حسب ما كانت تتناقله الأخبار كل يوم من القرن الأفريقي.

وذاكرتي عن المكان مرتبطة بالزمان. عندما وصلت الطائرة بي لأول مرة إلى أديس أبابا كان ذلك في تمام الساعة السادسة صباحاً

في يوم تشريني عابق برطوبة الحر الأفريقي. وكانت أديس أبابا تبدو في تلك الساعة المبكرة، مدينة مغسولة بالندى، باردة وهادئة وجميلة. وحينما غادرنا المطار إلى المدينة لبضع ساعات قبل أن نعود لنستقل الطائرة إلى أسمرة، كانت الأمور تبدو لي من موقعي كعابر سبيل في تلك الأيام وكأن فيها شيئاً من المخادعة. فعندما مارست متعة التفرس في الوجوه التي كانت تستقبلني، كنت لا أجدها أفريقية بالمعنى المتعارف عليه. لا شيء من الزنوجة فيها. وجوه برونزية وكأنها مدهونة بالبن. القامات طويلة ممشوقة. الأنوف إغريقية. العيون كبيرة في اتساع عيون الوعول الشاردة في الطرقات المحيطة بالعاصمة. وشعرت من جراء ذلك بأن في الأمر خدعة تاريخية أو ربما جغرافية.

وفي أديس أبابا وضواحيها قلما ترى امرأة مترهلة. النساء نحيلات بصدور حجرية عالية. العيون جميلة وواسعة تتحدى. الرموش كبيرة طويلة. أما لباسهن فهو مهرجان ألوان. الأبيض هو الوطني والرسمي والمطرز كله مع شال مرمي بخفر وعفوية حول الكتفين. لباس النساء جميل. فيه أنوثة وفيه الكثير الكثير من الخفر والحياء.

فأديس أبابا ليست مدينة قديمة. عمرها اليوم لا يزيد على مئة سنة (في ذلك الوقت كانت في حوالى السبعين من عمرها). فقد بناها الأمبراطور منليك الكبير - جد هيلاسيلاسي، لتكون جسراً بين القاهرة شمالاً وكيب تاون جنوباً. وأرادها منليك أن تكون أعلى من أية عاصمة أفريقية أخرى، لتحمل كل أمجاد الأمبراطورية التي أسسها أحفاد سليمان الحكيم وبلقيس. فتم بناؤها على منحدرات هضاب «أنتوتو» بالقرب من منابع المياه الساخنة التي كان اكتشافها السبب المباشر لاختيار موقعها. وكما أن أثيوبيا هي «تيبت» أفريقيا،

أو سقف أفريقيا أصبحت أديس أبابا، ومعناها الزهرة الجديدة باللغة الأمهرية، مدينة تعلو أي مدينة أفريقية أخرى.

وأديس أبابا مدينة مسورة بالتلال والغيوم والصلبان، أو هكذا كانت عندما زرتها منذ ثلث قرن. الكنائس تحيط بها من كل جانب والصلبان تحرسها عند كل زاوية. عند كل خطوة تصطدم برجل يرتدي الملابس الأثيوبية التقليدية لافاً حول كتفه «الشمة». وهي نوع من الشال الأبيض الطويل. ويحمل بيد صليباً من النحاس أو الخشب وفي الأخرى منشّة للذباب. ويقف الناس في الشارع ليقبلوا الصليب الذي يحمله. ويقال إن نصف سكان أثيوبيا يعملون في خدمة الكنيسة بشكل أو بآخر.

والكنيسة كانت هي الكل في العهد الأمبراطوري. ماضي البلاد وتراثها هو الكنيسة وتراثها. وفي كل كنيسة في أديس أبابا كان يقام قداس كل دقيقة. والقداس هناك يختلف عن طقوس قداس الكنيسة القبطية المصرية. فيه كثير من المظاهر الأفريقية كالغناء والطبول والرقص. ويبدو أن القديس جورج هو أقوى القديسين عندهم. فصورته وهو يقتل التنين رمز كبير يكاد ينافس أسد يهوذا. والقديس جورج ـ أو مار جريس عندنا ـ أثيوبي أسمر البشرة، أما التنين فأخضر اللون دائماً. للقديس جورج كنيسة في أديس أبابا من أفخم الكنائس، وفيها كانت تتم حفلات تتويج الأباطرة كما كانت مركزاً للاحتفالات الدينية كلها.

□ □ □

كانت صور الأمبراطور هيلاسيلاسي مع صور القديسين معلقة جنباً إلى جنب في كل الكنائس. وإلى جانب صور المسيح والعذراء،

ثمة صور تخلد تاريخ أثيوبيا. وأكثر الفن ديني مقدس رعته الكنيسة في الماضي. وهو بدائي، طفولي، وألوانه زاهية. والفن الأثيوبي عفوي ومتحرك، يروي لك حكاية عبر أكثر من صورة واحدة.

وأسد يهوذا هو رمز الأمبراطورية الأثيوبية وشعارها. وكان هيلاسيلاسي، الذي مات خنقاً في فراشه، يملك مجموعة من الأسود كانت تتجول في حدائق قصوره. وكانت أعمارها تتراوح بين أربعة أشهر وعشرين سنة. وكان هيلاسيلاسي يستقبل زواره من الأجانب الرسميين وهو ممسك برسن لأسد صغير يقف أمامه. وقد اشتهرت «أسد يهوذا»، عندما قام هيلاسيلاسي بجولة في أوروبا في العام ١٩٢٤ وبرفقته ستة أسود، أهدى منها أربعة إلى الحكومة الفرنسية، واثنين إلى الملك جورج الخامس في لندن. كذلك اشتهر هيلاسيلاسي نفسه باسم «أسد يهوذا»، وكان رجلاً صغير الحجم وقصير القامة. بعد رحيل الأمبراطور، احتفظ النظام الشيوعي بهذه الأسود. ورغم إهمالها، فإن بعضها مازال حياً إلى اليوم.

قبل سقوط الأمبراطورية كان في أديس أبابا جامع وحيد يؤمه العرب، وفيه مدرسة لتعليم أصول الدين. والعرب ـ من يمنيين وغيرهم ـ لا يختلطون بالأثيوبيين. يعيشون في مجتمعات وحدهم ويتزاوجون من بعضهم البعض، أو يرجعون إلى بلادهم ليأتوا بعروس إلى الغربة. والجامع هو المسجد الإسلامي الوحيد في كل أديس أبابا. وللجامع بابان، واحد اسمه باب الرحمة وآخر باب السلام. أما بناؤه فبشع وصحراوي عكس كل أثر ديني أو حضاري.

لكن أسمرة، بوابة أفريقيا إلى الجنوب العربي كله، هي شيء آخر كلياً. هناك ترك الاستعمار الإيطالي بصمات واضحة. فأول ما توحي إليك عاصمة أريتريا، أن الإيطاليين بنوا «صقلية» أفريقية. المدينة صغيرة، جميلة، تعج بالإضافات الإيطالية من حانات ومطاعم إلى شوارع عريضة وكنائس. وفي أسمرة، يدخل الطابع الإسلامي زوايا المدينة فتتغير لغة الناس عندما تختلط العربية مع الأمهرية، وترتفع المآذن من بعيد، وتصبح الكنائس الكاثوليكية أكثر من الكنائس القبطية، وتصبح الإيطالية هي اللغة المشتركة بين الجميع. ويزداد عدد البارات والمقاهي بازدياد عدد الشوارع وازدياد عدد الصحف التي تصدر بالإيطالية في أسمرة. وأسمرة لا تختلف عن أديس أبابا من حيث عادات الناس، إلاّ أنها أكثر أوروبية وأقل أفريقية وأكثر إسلامية وأقل قبطية عن بقية أثيوبيا.

منذ أن ذكر أبو التاريخ، هيرودوتس، أن آلهة اليونان وقد تعبت من كثرة الخلافات بينها وهي فوق جبل الأولمب فقررت أن تزور أثيوبيا للراحة، بدا المؤرخ اليوناني راغباً في أن يدخلها التاريخ. وكرَّ حبل العراقة من ألف سنة قبل الميلاد، فجاء ذكرها في سفر أيوب، ودخلتها المسيحية بأعرق وأجمل أشكالها في أفريقيا، حتى أصبحت أقدم دولة أفريقية وأول دولة مسيحية من قبل أن يدخلها الاستعمار.

ودخلت المسيحية أثيوبيا عام ٣٣٠م. ورغم اتساع الأمبراطورية الأولى وطرق التجارة التي كانت تمر فيها، انعزلت خلال العصور الوسطى، فكونت ثقافتها وديانتها وحدها. وتاريخها أكثره أساطير تبحث عن محقق، أكثر مما هو أحداث مكتوبة تبحث عن مدقق.

□ □ □

تنعكس مضاعفات ونتاج الحرب الأثيوبية - الأريترية، أكثر ما تنعكس على اليمن، لقرب القرن الأفريقي منه ولارتباطه التاريخي والاستراتيجي والاقتصادي بدوله. ولعل أكثر ما يعبر عن هذا الارتباط، هو ما قاله ديبلوماسي أثيوبي لديبلوماسي يمني في لقاء تمّ في أديس أبابا عند زيارة وزير الخارجية اليمني السابق الدكتور عبد الكريم الأرياني: «إننا ننسى في تعاملنا مع اليمن، أنه دولة عربية». وهذا الرأي الأثيوبي يحمل معنى الإطراء، لشعور أثيوبيا بقرب اليمن منها.

والأثيوبيون (في مزجهم المتواصل بين التاريخ والأسطورة) يعتبرون أن بلقيس ملكة سبأ، المولودة في مدينة أكسوم المقدسة في شمال أثيوبيا، هي ملكة الحبشة أيضاً، حين كان التعريف الجغرافي القديم لسبأ، يشمل الحبشة إلى جانب اليمن. وتدليلاً على ذلك يقول الأثيوبيون أن لغتهم الأمهرية هي اللغة الوحيدة في كل أفريقيا السوداء التي تكتب بحرف خاص بها. والحرف الأمهري هو الحرف السبئي/ الحمْيَري الذي كان يكتب به ملوك حمْيَر في جنوب الجزيرة العربية، وهو الحرف الذي سبق تطور الحرف العربي إلى الشكل الذي نعرفه اليوم. وسكان تيغراي في الشمال الأثيوبي ما زالوا إلى اليوم يستعملون اللغة السبئية ولهم إنجيل مكتوب بها.

وكان لليمنيين وجود كبير في أثيوبيا، تقلص كله بعد سقوط العهد الأمبراطوري وقيام الثورة الماركسية والحكم الشيوعي بزعامة منغستو هيلا مريم. فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم بعد مصادرة أموالهم وتأميم ممتلكاتهم. ولم يعد منهم إلاّ نفر قليل، بعد أن كانوا مسيطرين على تجارة الاستيراد والتصدير، كما كانوا يشكلون طبقة الحرفيين وأصحاب المتاجر الصغيرة. وكثيراً ما كانوا يُشَبّهون

بالصينيين في أندونيسيا أو بالهنود في بعض دول جنوب شرق آسيا. ومعظم اليمنيين من الحضارمة والقليل منهم من العدنيين أو أهالي تعز. وهناك أسماء يمنية كثيرة في عالم المال والتجارة في أثيوبيا وأريتريا.

وإلحاقاً بنظرية أن بلقيس ملكة سبأ وسليمان الحكيم ملك يهوذا قد أسسا سلالة ملوك الحبشة، فإن الكثير من الأسر الحاكمة كانت من أصول يمنية. وإذا كانت حميمية العلاقة الأثيوبية ـ اليمنية تعود إلى غياهب التاريخ، فإنها تعود عملياً في العصر الحديث إلى أواخر القرن التاسع عشر، عندما بدأت السيطرة الإيطالية على أريتريا ومن ثم الحبشة، وحين بدأ الإيطاليون ببناء سكك الحديد من الداخل الأثيوبي إلى الساحل الأريتري. فقد استورد الإيطاليون الأيدي العاملة اليمنية لبناء السكك، كما استوردوا الطبقة التجارية اليمنية التي أخذت تنمو طوال العهد الأمبراطوري، حتى جاء العهد الماركسي ونظام منغستو هيلا مريم، فرحل عشرات ومئات اليمنيين، تاركين ثرواتهم في بلاد الحبشة، وحملوا كفاءتهم إلى بلاد أخرى.

وللقرن الأفريقي بعد استراتيجي واقتصادي دائم الأهمية بالنسبة إلى دول الجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر، كالسعودية واليمن، إلى جانب مصر والسودان وعُمان. فالقرن الأفريقي بالنسبة إلى دولة كاليمن، هو المنفذ الأول لتجارتها. فأثيوبيا دولة كبرى في هذا القرن مؤلفة من ٥٦ مليون نسمة، وأريتريا دولة استراتيجية هامة بسواحلها التي تسيطر بامتدادها على البحر الأحمر، مع عدد من السكان يتألف من ثلاثة ملايين نسمة. واليمن أقرب دولة إلى كليهما والميزان التجاري دائماً لصالحها.

فليس هناك من دولة يمكن أن تتأثر بأحداث القرن الأفريقي بقدر ما يمكن أن تتأثر به اليمن.

كان احتلال أريتريا لأرخبيل جزر حنيش في البحر الأحمر في سنة ١٩٩٥، الصدمة الأولى، التي أعادت توعية اليمنيين إلى أهمية دول جوار القرن الأفريقي. ولم تتشاور أريتريا مع أثيوبيا في موضوع حنيش، لذلك أبدى الأثيوبيون استياءً كبيراً من الأريتريين، على الرغم من أنهم عرضوا وساطتهم على البلدين فوراً، ولم يؤخذ بها.

□ □ □

لو وقعت الحرب الأثيوبية - الأريترية قبل خمس سنوات لكانت بمثابة حرب أهلية، أو حرب تمرد الأطراف على المركز. ولكن منذ العام ١٩٩٣، حين استقلت أريتريا عن أثيوبيا، صارت أية اشتباكات بين البلدين، لسبب أو لآخر، تعتبر حرباً على الحدود أو السياسة أو المرافىء، يتدخل فيها كل العالم وتدعو كل المنظمات العالمية لوقفها وتطرح الدول الكبرى مبادرات لتسويتها. وهي حرب لا يعرف أحد بالضبط وحتى الآن، لماذا وقعت اليوم وليس بالأمس، ولماذا لم تقع بعد سنة، أو قبل سنة. إلاّ أنها في المحصلة النهائية ما هي إلاّ حرب أفريقية جديدة بالنسبة إلى العالم، لن تزيد أو تنقص كثيراً من مآسي القارة السوداء، وقد اعتادت على سنين طويلة من الصراع مع الاستعمار الاستيطانـي العرقي البشع، وسنين أطول من المجاعة، وعقود من المذابح القبلية.

تاريخ أريتريا جزء لا يتجزأ من تاريخ أثيوبيا الأمبراطوري. وكما ظلت أثيوبيا وحدها خارج الهجمة الاستعمارية الأوروبية لاقتسام

أفريقيا، في منتصف القرن التاسع عشر، كذلك ظلت أريتريا حتى العام ١٨٨٩، خارج الصراعات الاستعمارية حيث بدأت إيطاليا تتحرش بالقرن الأفريقي في مواجهة بريطانيا. في ذلك العام وقعت أريتريا تحت النفوذ الإيطالي وأصبحت مستعمرة إيطالية. وفي مطلع الثلاثينيات، غزت إيطاليا، بزعامة موسوليني انطلاقاً من أريتريا، الحبشة. وفي العام ١٩٤١، وكانت الحرب العالمية الثانية قد نشطت في القارة الأفريقية، دخلت القوات البريطانية أريتريا وهي تتحرك جنوباً من السودان لتطرد الإيطاليين منها وتعلنها محمية تحت الوصاية البريطانية. وظلت بريطانيا ترفع علمها في أسمرة حتى العام ١٩٥٢.

في تلك السنة، أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة استقلال أريتريا، وأعلنتها دولة ذات استقلال ذاتي ترتبط بأثيوبيا ارتباطاً فيديرالياً في ظل دولة واحدة. وظلت أريتريا تتمتع بهذا الشكل من الاستقلال حتى العام ١٩٦٢، حين أعلن الأمبراطور هيلاسيلاسي إلغاء النظام الفيديرالي بين البلدين، وألحق أريتريا كمحافظة رابعة عشرة من أثيوبيا وجزء لا يتجزأ من نظامها الأمبراطوري، بعد أن ألغى مجلسها النيابي وحرياتها العامة. وشكلت على أثر ذلك مجموعة جبهات تحرير، حتى استقرت في النهاية على الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا التي حققت النصر النهائي في استقلال البلاد. وقد حاربت الجبهة الشعبية، حرباً دموية وطويلة حتى احتلت العاصمة أسمرة في العام ١٩٩١ بعد حصار طويل، وقبلها ميناء مصوع في العام ١٩٩٠. بعد ذلك شكّلت جبهة التحرير حكومة مؤقتة وأجرت استفتاء شعبياً نال أكثرية ساحقة. ثم أعلنت أريتريا استقلالها التام عن أثيوبيا في أيار ١٩٩٣. وأصبح أسياس أفورقي زعيم الجبهة

الشعبية لتحرير أريتريا، رئيساً لها مع مجلس استشاري مؤلف من ٢٤ عضواً. لاحقاً أصبحت الجبهة هي الحزب الحاكم وغيّرت اسمها إلى الجبهة الشعبية للديموقراطية والعدالة.

□ □ □

مثّلت الخمسينيات والستينيات عصر حركات التحرر في أفريقيا وآسيا وعصر حركة عدم الانحياز، والمد القومي العربي بزعامة جمال عبد الناصر. قصارى القول أن عنوان تلك الفترة كان مقاومة الاستعمار. وبدأت أريتريا تقاوم الاستعمار الأثيوبي عن طريق تشكيل جبهات للتحرير، احتضنتها مصر الناصرية وقامت بتدريب كوادرها العسكرية، وموّلتها السعودية والكويت، حتى قامت جبهة التحرير بأول عمل عسكري لها ضد أثيوبيا داخل البلاد. وارتبطت جبهة التحرير الأريترية بحكم تدريب كوادرها في مصر، ولو اسماً بحركة القومية العربية ودعوتها إلى الثورة. نتيجة لهذا المد، خافت أثيوبيا وبدأ تحالفها مع إسرائيل. واندفع النظام القمعي للأمبراطور هيلاسيلاسي إلى تعزيز التحالف مع الدولة الصهيونية، إلى درجة تحولت إسرائيل معها إلى جهاز من الأجهزة التي يحارب بها نظام هيلاسيلاسي الثورة الأريترية.

وسقط نظام هيلاسيلاسي في العام ١٩٧٤، وسيطر نظام عسكري مؤلف من ضباط ماركسيين مثلوا أقصى التطرف الشيوعي. وازداد هذا النظام العسكري قمعاً للأريتريين وثورتهم. في المقابل ازداد الدعم العربي، المادي والتسلحي والسياسي، للأريتريين في السبعينيات تجاه الدعم السوفياتي للأثيوبيين الشيوعيين.

كان الطموح العربي في حينه، أن تستقل أريتريا وتنضم كعضو

جديد إلى جامعة الدول العربية، وتصبح الدولة العربية الثالثة في القرن الأفريقي بعد الصومال وجيبوتي. وكانت الاستراتيجية العربية وراء هذا الطموح هي تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة عربية، ووقف التغلغل الإسرائيلي ومكافحته. وكانت الدول العربية المطلة على سواحل البحر الأحمر تخاف من اعتداء إسرائيلي يشن عليها انطلاقاً من الجزر الأريترية (الأثيوبية في حينه) هناك، لذلك سعت هذه الدول إلى السيطرة كلياً على باب المندب.

وربط الأريتريون طوال السبعينيات قضيتهم بالقضية العربية والصراع مع إسرائيل. وقد أصبح ذلك منطقياً بحكم تحالف النظام الأثيوبي مع الدولة العبرية. وطالبت جبهة تحرير أريتريا بمقعد مراقب في جامعة الدول العربية خلال اجتماع الجامعة المنعقد في أيلول ١٩٧٧. وألحقتها بمذكرة إلى الجامعة تقول فيها: «إن انتصار أريتريا واستقلالها عاملان مهمان لضمان السلم والاستقرار والأمن في القرن الأفريقي». وكانت الظروف العربية في نهاية السبعينيات تعير نفسها للاعتقاد من زاوية النظر الاستراتيجية أن سيطرة أثيوبيا على أريتريا تضعف سيطرة العرب على البحر الأحمر، وتدعم في الوقت نفسه النفوذ والوجود السوفياتي في المنطقة (كان لموسكو حليفان مباشران ـ اليمن الجنوبي وأثيوبيا). وهذا ما عزز الدعم السعودي للثورة الأريترية. في المقابل كانت أثيوبيا قلقة جداً لإمكانية أن تتحول أريتريا إلى دولة عربية مستقلة، بقدر ما كانت تخاف بشكل خاص أن تحرمها الدولة الجديدة من استعمال ميناء عصب وميناء مصوع، فتفقد بذلك سيطرتها على الجزر الأريترية في البحر الأحمر.

□ □ □

كانت سياسة إسرائيل في القرن الأفريقي مجرد امتداد لسياستها في البحر الأحمر والرامية إلى إنشاء عمق استراتيجي خاص بها في المنطقة. ومنذ نهاية الخمسينيات أخذت تقيم علاقات مع الدول الأفريقية ولاسيما أثيوبيا التي كانت تملك منفذ أريتريا على البحر الأحمر. لذا ساندت إسرائيل سيطرة أثيوبيا على أريتريا منذ أواسط الخمسينيات حين أعلن موشي دايان «إن أمن أثيوبيا وسلامتها يشكلان ضمانة لإسرائيل».

وكانت إسرائيل تعتقد أن العرب لن يستطيعوا إغلاق البحر الأحمر في وجه إسرائيل بصورة فعالة، إلاّ عند حصول أريتريا وجيبوتي على استقلالهما. من هنا أيّدت إسرائيل الوضع القائم في القرن الأفريقي، ووقفت بوجه تفكيك أثيوبيا واحتمال ضم الصومال إلى جيبوتي.

كذلك ظلت إسرائيل تزوّد أثيوبيا منذ الخمسينيات بالمعونات العسكرية، في الوقت الذي كان العرب يردّون على حملة إسرائيل وأثيوبيا المشتركة ضد الأريتريين بمزيد من الدعم لجبهة التحرير الأريترية. وعلى الرغم من قطع أثيوبيا علاقتها مع إسرائيل بعد حرب ١٩٧٣، استمرت الدولة العبرية في تورطها بالعمل ضد الثورة في أريتريا، لمواجهة تعريب منطقة البحر الأحمر والحد من المد الصاعد للمقاومة الأريترية ومواجهة الدعم المتزايد للأريتريين. وزادت تل أبيب بدورها من مساعداتها العسكرية السرية التي شملت تدريب القوات الأثيوبية وتزويد أثيوبيا بالأسلحة. وكانت إسرائيل تنكر هذا حتى شباط ١٩٧٨ عندما كشف موشي دايان وزير خارجيتها الأسبق علانية، أن إسرائيل كانت تزود أثيوبيا بالأسلحة في حربها ضد الصومال وأريتريا. وطرح دايان تبريره

لذلك بالقول «إن أثيوبيا كانت الدولة غير العربية الوحيدة الواقعة على البحر الأحمر الاستراتيجي».

وعندما تدهورت العلاقات الأثيوبية ـ الإسرائيلية في العام ١٩٧٨، حاولت إسرائيل احتلال بعض الجزر في البحر الأحمر ولا سيما جزيرة بريم الاستراتيجية. وتمثل رد الفعل الفوري في تحذير الولايات المتحدة لإسرائيل من نتيجة هذا التصرف. إضافة إلى إرسال بعض المدمرات المصرية إلى منطقة بريم لمواجهة أية حالة طارئة.

كانت هذه هي صورة الصراع العربي ـ الإسرائيلي حول أريتريا وفي البحر الأحمر، حتى الثمانينيات. الصورة بسيطة وواضحة. إسرائيل مع أثيوبيا ضد أريتريا. إسرائيل تخاف من سيطرة العرب على البحر الأحمر بواسطة أريتريا. والعرب مطمئنون إلى «وفاء» أريتريا لهم جراء ما قدموه من مساعدات وخدمات وحماية إلى ثورتهم حتى حققت استقلالها.

وحصلت أريتريا على استقلالها.

وأعلن على أثرها أسياس أفورقي رئيس الدولة الجديدة، أن بلاده لن تنضم إلى جامعة الدول العربية، «لأنها ليست دولة عربية بل أفريقية».

وكانت إسرائيل من أول الدول التي أقامت أريتريا معها علاقات ديبلوماسية بعد إعلان استقلالها عن أثيوبيا في العام ١٩٩٤. وإذا بأول زيارة يقوم بها إلى الخارج الرئيس أسياس أفورقي، كانت وجهتها إسرائيل تحت غطاء العلاج من المرض. وكان أفورقي قد أصيب بمرض خطير من الأمراض الاستوائية استوجب نقله بسرعة

في طائرة أميركية إلى تل أبيب. بعدها انهالت المساعدات الإسرائيلية على أريتريا وبلغ حجم التبادل التجاري بين البلدين العام ١٩٩٤ نحو عشرة ملايين دولار.

وفي خطوة جاءت لتعزز اتهامات التورط الإسرائيلي في احتلال جزر حنيش اليمنية، ذهب الرئيس أفورقي في شباط ١٩٩٦ إلى إسرائيل على رأس وفد كبير لإجراء محادثات مع الرئيس الإسرائيلي عزرا وايزمن في شأن النزاع على الجزر في البحر الأحمر مع اليمن. وقد أعلنت حكومتا إسرائيل وأريتريا تصميمهما على تعزيز التعاون. وأفاد بيان صدر عن رئاسة الوزراء الإسرائيلية أن الرئيس الأريتري أكد مجدداً «إن إسرائيل ليست ضالعة إطلاقاً في النزاع القائم بين بلاده واليمن» مشدداً على أن أريتريا لم تتلقَّ الدعم من أية قوة أجنبية في هذا النزاع. لكن ما حاول أفورقي وبيريز نفيه أكده مصدر إسرائيلي رسمي بقوله: «إننا نعلق أهمية كبيرة على علاقاتنا مع أريتريا نظراً لوضعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يضمن اتصالاتنا البحرية والجوية مع أفريقيا والشرق الأوسط».

وحمل الرئيس الأريتري في حديث له للإذاعة الإسرائيلية على العرب، مدافعاً عن إسرائيل معتبراً أنه «يشاع منذ ٣٠ أو ٤٠ عاماً أن لإسرائيل قواعد في البحر الأحمر وهذا ليس صحيحاً» وأنه «إذا لم يتفق المرء مع العرب على أي قضية، عندها تكون له حكماً روابط بإسرائيل. وهذا تلاعب بالرأي العام وعادة عربية مرعية الإجراء في الربط دائماً بين الوقائع والتخيلات».

□ □ □

لا أحد يعرف تماماً كيف ينقلب الحلفاء أيام الحرب أو المقاومة، إلى أعداء أيام الاستقلال والانتصار. إن مَنْ يراقب أفريقيا طويلاً سيجد نماذج كثيرة من الأصدقاء الذين تحولوا إلى أعداء. هكذا كان كل من أسياس أفورقي وملس زيناوي في البداية، عندما كان الأول بصفته الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير أريتريا يقوم بتدريب ومساعدة الثاني، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير تيغراي. وكانا كلاهما ماركسيين يحاربان معاً الماركسي الأخر، الديكتاتور مانغيستو هيلا مريم. واتفق الرجلان أنهما عندما ينتصران على مانغيستو ويسقط النظام العسكري، يفترق البلدان وكل منهما يحمل استقلاله بيده، من دون أي صعوبة تذكر أو شروط تعجيزية. وهكذا كان.

وفي نقطة الحدود المختلف عليها حالياً في سهول «زالا أمباسا»، في الطريق الذي يؤدي إلى ميكيلي، قاتلت الجبهتان الشعبيتان، الأريترية والتيغرية، جنباً إلى جنب قبل حوالى عشر سنوات، ضد جيش الفلاحين الفقراء الذي جنده منغيستو، ولم يكن عنده سلاح أو ذخيرة أكثر من السكاكين الطويلة المعكوفة التي كان يستخدمها الرقيق في أفريقيا للعمل في الأراضي الزراعية التابعة لأسيادهم. وهزم جيش الطليعة الماركسية المسيسة، جيش الفقراء من الماركسيين الأميين. وسقط نظام منغيستو وفرَّ هو إلى زمبابوي حيث كان وما زال صديقه روبرت موغابي رئيساً لها. وأعلنت أريتريا استقلالها بعد ثلث قرن من الحرب الحقيقية. ولم تعارضها أثيوبيا حيث أُعلنت أديس أبابا تحرير البلاد بسقوط النظام الذي أذلها أيضاً لأكثر من عشرين سنة.

كان ذلك في العام ١٩٩٣، حين رفعت أعلام الاستقلال والتحرر.

وبدأ الصديقان - أفورقي وزيناوي - اللذان حاربا معاً وانتصرا معاً، يفترقان. وككل الخلافات التي تقع في الصداقات العائلية أو الحميمة، لا أحد يعرف بالضبط ما هي الأسباب الحقيقية لها، سوى أن الخلاف يحمل دائماً في طياته مرارة كبيرة وأسباباً سخيفة، تلد بالضرورة عداءً قوياً.

أحد الأسباب المطروحة، أن أريتريا استقلت بعد أطول حرب تحرير في القرن العشرين، ولكن من دون حدود مرسومة أو خرائط معترف بها دولياً. كذلك اعتبرت أريتريا أنها لم تأخذ حصتها الحقيقية من تركة الأمبراطورية الأثيوبية بشقيها الهيلاسيلاسي والماركسي عند الاستقلال. لذلك أصدرت أريتريا في مطلع العام الحالي عملة جديدة خاصة بها، بعد أن كانت تستعمل العملة الأثيوبية حتى ذلك التاريخ. وردّت أثيوبيا على العملة الأريترية الجديدة برفضها استعمالها. وفرضت أن يكون التعامل التجاري بين البلدين بالدولار الأميركي أو العملة الصعبة. وإذا بأريتريا لا تملك أية عملة صعبة. وشعرت أريتريا باللطمة التي ردّت بها أثيوبيا على عملتها الجديدة التي تحمل اسم «النكفة». وكان غرور أريتريا وشعورها بالتباهي لانتصارها التاريخي في تحقيق الاستقلال، قد أبعدها عن الواقع السياسي والاقتصادي الذي تعيشه.

في المقابل هناك كثير من الأثيوبيين يشعرون بالندم وبالتسرع لإعطاء أريتريا استقلالها، وأن ظروف الحرب ضد نظام منغيستو هو الذي جعلهم يقبلون بهذا المتغير التاريخي. لكن الأوضاع الدولية اليوم تجعل من المستحيل إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. ويتذمر الأثيوبيون من أن أريتريا طردت بعد الاستقلال كل الأثيوبيين من

بلادها، بينما ما زال في أثيوبيا أكثر من ٤٠٠ ألف أريتري يعملون في شتى المرافق. كما أنه يوجد بينهم مَنْ يشغل وظائف حكومية.

وعندما اشتعلت الحرب، وتمَّ تبادل القصف، لم تستطع الولايات المتحدة أن تتفرج طويلاً، وخصوصاً أن كلاً من أثيوبيا وأريتريا هي حليفة لأميركا، وتعتبرهما واشنطن من أفضل الحكومات توازناً وأكثرها استنارة وواقعية وعقلانية بين كل دول أفريقيا. لذا فأميركا ترتكز في سياستها في القرن الأفريقي على كل من أديس أبابا وأسمرة للتصدي للنظام السوداني الإسلامي في الخرطوم، المعادي للتحالف الأميركي في المنطقة. ولعل واشنطن قد اكتشفت عند وقوع «حرب الأشقاء» أنها لا يمكن أن تقيم سياستها في هذا الجزء من أفريقيا باعتمادها على دولتين هشتين، كركيزة للاستقرار السياسي. لذا فلا بد لواشنطن من أن تعيد النظر بكل مواقفها في هذه المنطقة، على ضوء ما ستسفر عنه الحرب الحالية.

□ □ □

سألت أوزيريس: ما أعظم عمل يستطيع الإنسان أن يفعله؟

أجابها حورس: الثأر.

لعل هذا السؤال هو الذي تمنى الأصدقاء ـ الأعداء، أفورقي ـ زيناوي، أن يسألاه لبعضهما البعض وليستمعا، من ثمّ، إلى الجواب ذاته. لأن الصراع الأثيوبي ـ الأريتري إذا تمّ فصولاً ما بعد الثورة والتحرير، فإنه لم يتم فصولاً ما بعد الاستقلال وما قبل بداية قرن جديد للقرن الأفريقي المبعثر الولاء والمشتت الأهواء.

ولعل زيناوي كان يتمنى أن يقول لأفورقي، والحرب كما يظهر ما زالت في بداياتها و«الضلع» الأريتري الخارج حديثاً من الجسد

الأثيوبي، ينتفض غضباً وطمعاً، ما قاله الخليفة هارون الرشيد لولده المأمون الذي جاء يطالبه بقسط من السلطة والمُلك:

المُلك عقيم. والله لو نازعتني عليه لأطحت بهذا الذي بين كتفيك (يقصد رأسه).

إلّا أن زيناوي ليس الرشيد وأفورقي ليس المأمون والمُلك ذهب بذهاب الأمبراطورية، رغم أن الجغرافيا التي يتنازعان عليها قد أهملها التاريخ، فبات الضلع الخارج من الجسد يفتش عن شجرة عائلة في أرشيف العالم ومكتباته.

مَنْ يربح ومَنْ يخسر؟

أثيوبيا التي لا تملك وقتاً للهزيمة

أم أريتريا التي لا تملك ثمناً للانتصار!

حكاية
الطربوش والقبعة

١ ـ عثمانيات

ما بين العرب والأتراك...

■ «قال الخليفة عبد الملك بن مروان لسعيد بن المسيّب:

ـ يا أبا محمد صرت أعمل الخير فلا أسرّ به وأعمل الشر فلا أساء به.

فقال له سعيد:

ـ الآن تكامل فيك موت القلب.»□

«الكامل في التاريخ»
لابن الأثير

هل يعود الأتراك إلى حدود الأمبراطورية العثمانية وتخومها التي يعرفونها جيداً؟

سؤال يتردد في كثير من الدوائر السياسية التي ترسم المخططات الإقليمية للمنطقة العربية ـ الشرق أوسطية على عتبة القرن الواحد والعشرين. وهذه المخططات ما هي إلا جزء من هواجس العرب والأتراك التاريخية وما حولهما، وهوامش على بعض الهواجس العربية ـ الفارسية المعاصرة.

قبل حوالى عشرين سنة كان هناك تساؤل مشابه حول إيران، رفض العرب أن يعترفوا بواقعه وأهميته واحتمالاته. ولما هدد الفرس حدود الجزيرة العربية الشمالية واندلعت الحرب العراقية ـ الإيرانية في العام ١٩٨٠، أدرك الناس أن التاريخ سلسلة متصلة قد تنساها الشعوب والدول فترات طويلة، غير أنها سرعان ما تعود إلى البروز،

وكأن عشرات أو مئات السنين لم تستطع ردم تلك الهوّة السحيقة. ثم اتضح لأكثر المستجدين بعلم السياسة أن ليس هناك تخطيط سياسي ثابت بمعزل عن العلاقات التاريخية ورواسبها، وبعيداً عن الواقع الجغرافي وتبعاته.

لقد وفرت الحرب العراقية ـ الإيرانية التي استمرت لمدة ثماني سنوات وبعدها حرب «عاصفة الصحراء» في العام ١٩٩١، إثر غزو العراق للكويت، والتي أسفرت عن تدمير العراق وتقسيمه إلى مناطق آمنة وغير آمنة، وفرت الفرصة لتركيا في العودة إلى الشرق الأوسط من البوابة التاريخية ذاتها التي أغلقت في وجهها عند انهيار الأمبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى. ولكن تركيا غير إيران. فخمسة قرون من الحكم التركي والسلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية لم يمحها نصف قرن من التتريك الأتاتوركي، والتغريب الأميركي، والتحالف الأطلسي. إذ إن الطعم العثماني الإسلامي ما زال يسيّل لعاب الأتراك منذ أن انكفأ مصطفى كمال (أتاتورك) في «جمهوريته العلمانية» إلى آسيا الصغرى.

خمسمئة سنة من أصل ألف وأربعمئة سنة من التاريخ العربي الإسلامي ليست بسيطة حتى تُنسى خلال سبعين سنة، على الرغم من مرور حربين عالميتين، وانفكاك عقد الأمبراطورية العثمانية، وزوال الخلافة الإسلامية، ونشوء الكيانات الاستقلالية العربية، وقيام دولة إسرائيل. فسبعون سنة أو أقل ليست شيئاً في حساب التاريخ، وليست شيئاً أيضاً في حساب الطموحات التاريخية التي لا تذوي مع الزمن، وليست شيئاً، بالمطلق في تخطيط الاستراتيجية المستقبلية.

□ □ □

إذا كانت تركيا غير إيران، فذلك لأنها كانت جزءاً متداخلاً في الكيان العربي الإسلامي، وفي الجغرافية السياسية العربية، وفي الحركات الوطنية والقومية، وفي الإرث الإسلامي العربي التاريخي والسياسي. إيران ـ فارس كانت أمبراطورية ذات حضارة عريضة قبل الإسلام، وتبلور امتدادها الجغرافي والسياسي كله قبل وصول الإسلام. وعندما دخل الإسلام بلاد فارس كان إسلام الأقلية التي لم تستطع أن تتوسع خارج حدودها لتصل إلى إسلام الأكثرية. حتى عند قيام دول شيعية عبر التاريخ الإسلامي الحافل، كدولة الفاطميين في مصر، ظل النفوذ الفارسي محدوداً، والحضور الفارسي وتأثيره بعيدين. بينما استطاع الأتراك ـ بحكم كونهم ينتمون إلى أكثرية الإسلام السُّنية، ولم يكونوا ذوي حضارة أو أمبراطورية قبل الإسلام ـ أن يصل حضورهم إلى كل زاوية من زوايا العالم العربي والإسلامي، وأن يكون هذا الوجود مقبولاً دينياً، وإن رفض فيما بعد عند نشوء القوميات على المستوى السياسي.

إنما كان ذلك فقط محصوراً في حدود الخمسين سنة الأخيرة من حياة الأمبراطورية العثمانية. فالإسلام هزم فارس وجازاها. وظل الفرس إلى اليوم يحملون ضغينة هذه الهزيمة، أما الأتراك فجاءوا كجحافل من آسيا الوسطى إلى الإسلام ومع الإسلام استمروا. الإسلام وحّدهم ليسيطروا ويحكموا شعوب الإسلام الكثيرة المشكّلة في غالبيتها من العرب. فهزيمة العرب للفرس كانت هزيمة حضارية دينية. أما هزيمة العرب للأتراك فكانت هزيمة سياسية. وظل الأتراك إلى اليوم يحملون هم أيضاً ضغينة هذه الهزيمة، إذ إن الهزيمة السياسية تكون عادة أخف وطأة من الهزيمة الحضارية

الدينية، وبالتالي يكون الرد عليها أسهل، خصوصاً إذا كان العامل الديني حليفاً فيها.

لكن العنصر الأساسي في السياسة التركية الكمالية خلال السنوات الأولى من حياة الدولة التركية الناشئة انطلق من ذلك الصراع الذي خاضته في سبيل امتلاك ولاية الموصل القديمة. وكانت لهذه الولاية أهميتها الخاصة لما تنطوي عليه من ثروة نفطية لم تكن قد استغلت بعد. من هنا طالبت بريطانيا بضم الموصل إلى العراق الذي وضع تحت انتدابها، في حين طالبت بها تركيا على أساس أن كثرة سكانها هم من الأكراد شأن الولايات المحايدة في تركيا. وكان صلح لوزان قد أرجأ تسوية هذه المشكلة تسوية نهائية، على أن تحال على عصبة الأمم إذا تعذر الوصول إلى اتفاق بشأنها. وبعد مطالبات وتحقيقات طويلة اعتبرت ولاية الموصل في ١٥ كانون الأول ١٩٢٥ جزءاً من أراضي العراق الواقع تحت الانتداب البريطاني. وفي اتفاق أنقرة الموقع في ٥ تموز ١٩٢٦ نزلت تركيا عند هذا القرار بعد أن حصلت على تأكيدات بريطانية بإشراكها بنسبة عشرة بالمئة من مشروعات استثمار النفط المزمع تنفيذها في المستقبل. وعندما تم استخراج النفط فيما بعد، ظلت التأكيدات البريطانية حبراً على ورق.

وكان على تركيا أن تسوي مع جارتها الجنوبية سورية الخاضعة للانتداب الفرنسي في حينه، مشكلة لواء الإسكندرونة، حيث يعيش السوريون مع أقلية تركية. وفي معاهدة عقدت مع فرنسا في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١ اتفق الجانبان (التركي والفرنسي) على أن تكون لهذا السنجق أو هذا اللواء إدارته الخاصة، وعلى جعل التركية اللغة الرسمية فيه وعدم التعرض لحياة الأتراك الثقافية. بيد

أن هذه المشكلة التي أثارت الرأي العام التركي والعربي معاً لم تسوَّ بين الدولتين إلاّ بمعاهدة صدقتها عصبة الأمم في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٧. وقد ضمنت هذه المعاهدة للإسكندرونة استقلالها التام في الإدارة الداخلية، ولم تربطها بسورية إلاّ في ما يتصل بالسياسة الخارجية، إلى أن انسلخت نهائياً عن سورية وضمت إلى تركيا عام ١٩٢٨.

□ □ □

بدأت مخططات صانعي السياسة الإقليمية تحديداً في كانون الأول ١٩٨٢ عندما قام وزير الدفاع الأميركي في عهد الرئيس رونالد ريغان كاسبار واينبرغر بزيارة لأنقرة توصل خلالها مع نظيره التركي في حينه وزير الدفاع خلوق بايولكن، إلى تفاهم حول إنشاء قواعد عسكرية أميركية لقوات التدخل السريع في شرق تركيا. وكانت تركيا تُحكم في حينه من قبل مجلس عسكري، من دون أحزاب أو برلمان أو انتخابات. بالإضافة إلى قيام لجان عسكرية مشتركة بين الدولتين. وخرج واينبرغر من أنقرة وقد حقق مطلباً ثالثاً وهو نقل القوات التركية في جنوب شرق تركيا، وعددها حوالى المئة ألف جندي، من مواجهة اليونان وبحر إيجه، إلى الجنوب الغربي، في مواجهة العراق وإيران. فالقوات التركية المعروفة بالجيش الإيجي قد عكّرت العلاقات التركية ـ اليونانية وزادت في خلافات البلدين مما عطّل الخطط الأميركية لتقوية دفاع حلف الأطلسي في المنطقة.

لكن الأتراك كانوا قبضوا ثمن موافقتهم على المطالب الأميركية. فبالإضافة إلى زيادة المساعدات العسكرية الأميركية إلى حدود ٥٦٤ مليون دولار للتسلح و٣٥٠ مليون دولار كقروض اقتصادية

لعام ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣، اشترط الأتراك على الولايات المتحدة أنه إذا أراد الجيش الأميركي التحرك والعمل في الشرق الأوسط من قواعد في الأراضي التركية، فعليها أن تعد ـ أي أميركا ـ بالدفاع عن الحدود التركية مع الاتحاد السوفياتي وسورية والعراق وإيران، مع ضمانات بالتدخل العسكري الأميركي المباشر إذا دعت الحاجة إلى ذلك. فالعسكر التركي الحاكم في أنقرة كان قلقاً من إمكانية رد سوفياتي إذا تحرك الأميركيون باتجاه إيران أو العراق أو سورية من قواعد في تركيا.

لم تكن المخاوف التركية هذه بجديدة على الأميركيين. فمن قبل أن يستولي الجنرال كنعان أفرين والعسكر التركي على الحكم عام ١٩٨٠، كشفت الحكومة الإيرانية وثائق سرية عند احتلالها السفارة الأميركية في طهران تعود إلى عام ١٩٧٨. وتشير هذه الوثائق إلى سؤال موجه من حكومة أنقرة إلى واشنطن عما ينوي الأميركيون فعله تجاه التهديدات المحتملة التي يمكن أن تواجهها تركيا في حال سقوط الشاه. وكان الجواب الأميركي أن التدخل الأميركي بالنيابة عن تركيا مضمون بموجب الرسائل السرية المتبادلة بين البلدين عام ١٩٥٩ تحت غطاء حلف المعاهدة المركزية «السانتو». وأضاف الجواب الأميركي أن هذه الضمانة ما زالت سارية المفعول، على الرغم من حل حلف السانتو. لكن ما كانت تريده أنقره من واشنطن هو معرفة مدى الالتزام الأميركي في دعم العسكر التركي وإلى أي حد.

وكانت المصادر الأميركية تميل إلى «سيناريو ناقص» كان من الممكن حدوثه. وكان ذلك في مطلع الثمانينيات وهو التالي:

في حال وقوع تغيير في النظام العراقي فإنه سيؤدي إلى تحالف

العراق مع سورية التي بدورها كانت ستعرض وساطتها مع إيران لوقف الحرب العراقية ـ الإيرانية والتوصل إلى تسوية سلمية. وكان من الممكن زعزعة الوضع في سورية عن طريق تحريض إسرائيل على التدخل ضدها. لذلك لم يكن من المتوقع أن يتدخل الاتحاد السوفياتي ضد تركيا أو العراق، ما دامت القواعد الأميركية في الأراضي التركية وقوات التدخل السريع فيها، والأسطول السادس مرابطاً في مياه البحر المتوسط والأسطول السابع في مياه بحر العرب.

وكان الافتراض الأميركي في هذا السيناريو هو أن الاتحاد السوفياتي غير قادر سياسياً وعسكرياً على التدخل لسببين:

- **الأول**: انشغاله عسكرياً وسياسياً في بولندا وأفغانستان في حينه (١٩٨٢).

- **الثاني**: عدم قدرة زعماء الكرملين وقتئذٍ على اتخاذ قرار بالتدخل لانشغالهم بصراعاتهم الداخلية. ومن ثم فإن الاتحاد السوفياتي لم يكن ليحتاج إلى التدخل بموجب هذا السيناريو ما دامت القوات التركية لا تهدده مباشرة أو تهدد إيران أو حتى العراق. لذلك بقي السوفيات مترددين إلى أن فاتتهم الفرصة. وهذا ما حدث تماماً عند وقوع حرب الخليج الثانية في العام ١٩٩١، مع بدايات تفكك الاتحاد السوفياتي في عهد غورباتشوف.

إلاّ أن هناك نقطة ظلت مستعصية في التفاهم الأميركي ـ التركي، وهي ضغط العسكر التركي الحاكم على الإدارة الأميركية لإعطائه تفويضاً بإعادة احتلال الموصل وكركوك في حال وقوع أي

اضطراب داخلي في العراق. وظلت واشنطن متحفظة على هذا الجزء من السيناريو.

□ □ □

مما لا شك فيه أن تركيا اليوم تتشوق إلى دور مشرقي من خلال وجود دولتين توسعيتين وقويتين طامحتين في المنطقة، هما إيران وإسرائيل. فتركيا المتفرنجة، المتغربة، التي فشلت في أن تجد لنفسها دوراً غربياً أوروبياً حقيقياً طوال نصف القرن الأخير، والتي فشلت في إقناع أوروبا والأوروبيين أنها جزء منها ومنهم، قد تجد اليوم في ظل الظروف الراهنة التي يمر بها المشرق العربي والجزيرة العربية، فرصتها الذهبية وقد اكتملت الدورة التاريخية التي بدأت بنهاية الحرب الكبرى وانتهت بالحروب العربية ـ الإسرائيلية الخمس، والحرب العراقية ـ الإيرانية وحرب الخليج الثانية. ومعنى هذا سقوط سياسة مصطفى كمال (أتاتورك) الداعية إلى انكفاء تركيا إلى الداخل، والتعامل مع أوروبا، والابتعاد عن المشرق العربي والعالم الإسلامي.

لكن التساؤل عن الدور التركي الجديد لا بد أن يبدأ من الخطر الذي تشكله تركيا على الجزيرة العربية وعلى العراق بالذات.

لذلك لا بد من التوقف قليلاً عند بعض المعلومات الأساسية والخطيرة عن الخلاقات التركية ـ الأميركية منذ مجيء الحكم العسكري إلى تركيا بقيادة كنعان أفرين عام ١٩٨٠ وإلى الحكم المدني السياسي في الظاهر، الذي يتحكم به العسكر عملياً بموجب الدستور التركي كحماة للعلمانية اليوم. هذه المعلومات التي لا بد أن تلقي بعض الضوء على الدور التركي الجديد في الشرق الأوسط الذي تهيئه لها الولايات المتحدة.

إن قوات التدخل السريع الأميركية التي كانت قد أنشئت لإعطاء الولايات المتحدة مزيداً من القوة العسكرية للتدخل في الخليج العربي وحماية منابع النفط ضد احتمال أي هجوم خارجي أو تخريب داخلي، قد أقامت قواعد عسكرية وقيادة سرية لها شرقي تركيا. وقد تمّ الكشف عن هذه القواعد العسكرية الأميركية الجديدة هناك في أيار ١٩٨٢، عندما تحطمت طائرة عسكرية أميركية وقتل فيها ٢٧ رسمياً أميركياً كانوا يعملون في بناء هذه القواعد. وكان قيام هذه القواعد جزءاً من مخطط سري أميركي مشترك. واستخدمت بعد توسيعها، بالإضافة إلى قوات التحالف الدولي في حرب «عاصفة الصحراء» في العام ١٩٩١.

وإذا كان الهدف الأميركي من قيام هذه القواعد في تركيا هو أن تكون قوات التدخل السريع على مقربة من الخليج العربي، فإن الهدف التركي كان أكثر طموحاً من ذلك. وكان النظام العسكري في الثمانينيات قد خلق مجموعة من الضباط يشكلون نواة شبيهة بـ «تركيا الفتاة» التي برزت في نهاية العهد العثماني والتي كانت أساس جمعية «الاتحاد والترقي» التي خلعت السلطان عبد الحميد، وبدأت موجة التتريك في العالم العربي، وحاربت قيام الحركات الوطنية والقومية، وتحالفت مع ألمانيا.

وكانت طموحات ضباط «تركيا الفتاة» الجدد، لو وافق البيت الأبيض على هذه السياسة وسارت الأمور بموجب الخطة المعدة، أن تسير تركيا بجيوشها عبر الحدود العراقية وتحتل الموصل والمنطقة الكردية في الشمال العراقي تحت ستار أن الأكراد يقومون بعمليات تخريبية ضد تركيا عبر الحدود. وهذا ما قامت به عدة مرات منذ حرب الخليج الثانية، بدخولها المتكرر للأراضي العراقية تحت غطاء

وقف الإرهاب الكردي، مستعيدة بذلك ما أخذته بريطانيا في الحرب العالمية الأولى وأعطته للعراق نتيجة لخسارة الأتراك هذه الحرب.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تفكر فيها أنقرة وواشنطن بخطة كهذه. ففي ١٤ تموز ١٩٥٨، عند قيام الثورة العراقية وسقوط الملكية في العراق، أرسلت إدارة الرئيس أيزنهاور «المارينز» الأميركيين إلى لبنان، وأرسلت حكومة ماكميلان البريطانية جنود المظليين إلى الأردن، وبدأ الجيش التركي زحفه نحو شمالي العراق. ولم يوقف تقدم الأتراك نحو الموصل سوى أن واشنطن غيّرت رأيها في اللحظة الأخيرة.

□ □ □

منذ أن تسلم الجيش الحكم في تركيا في أيلول ١٩٨٠، والصراع الدائر بين السياسيين والعسكريين في أنقرة كان حول مدى الاستفادة من نتائج الحرب العراقية ـ الإيرانية لاستعادة «الأراضي التركية». وكان أكبر دعاة التدخل خلال فترة الحرب هذه الجنرال حيدر سلتيك الأمين العام لمجلس الثورة العسكري الحاكم وقتها وصاحب الطموحات العثمانية التقليدية. وظل الجنرال سلتيك أشهراً طويلة يغذي ويدير الأحاديث الدائرة في العاصمة التركية عن احتمالات التدخل التركي في شمال العراق تحت ستار تأييد مطالب الأكراد الاستقلالية. إلى أن أقصاه رئيس الجمهورية في حينه كنعان أفرين إلى منصب آخر لكثرة ما أصابه من حرج نتيجة كلامه المتواصل. وكان الجنرال سلتيك يعتقد أن تركيا تستطيع بضربة واحدة أن تستعيد أراضيها السابقة وتحتل آبار النفط في كركوك، وبذلك ينقذ الاقتصاد التركي الضعيف والمتدهور منذ

عشرات السنين، لتعطي تركيا الأكراد العراقيين والأتراك منهم، حكماً ذاتياً تحت إشرافها بحيث تحل مشكلة الأكراد ـ الأتراك المتفاقمة منذ ذلك الزمن داخل البلاد، وتمحي عن نفسها السمعة التاريخية السيئة بأنها تضطهد العناصر القومية والعناصر غير التركية.

وكانت هذه الخطة تلقى وقتئذٍ تأييد الولايات المتحدة كما إسرائيل التي لها تاريخ طويل في التعامل مع تركيا ومع العناصر الكردية المناهضة للعراق. وكانت واشنطن تريد أن تبعد إسرائيل عن هذه الخطة حتى لا تتسبب في إحراج أطرافها، ولتجعلها أكثر قبولاً لدى الأكثرية العربية.

إذا كان هذا السيناريو قائماً وموجوداً فعلاً في أدراج الإدارة الأميركية والحكومة التركية، والذي تؤكده وثائق الكونغرس الأميركي، المنشورة منها وغير المنشورة، وبموجب الشهادة التي أدلى بها ريتشارد برلي، مساعد وزير الدفاع الأميركي لشؤون سياسة الأمن القومي في ذلك الوقت، أمام لجنة الدفاع في الكونغرس الأميركي في ١٥ نيسان ١٩٨٢، فإن الدور التركي كان لا بد أن يصطدم بإسرائيل، إلاّ إذا كانت واشنطن تنوي تحجيم الدور الإسرائيلي في المنطقة عن طريق «تشجيع» الدور التركي. فإذا كانت إسرائيل دولة عسكرية معتدة بنفسها وذات امتيازات أميركية حربية لا حدود لها، فإن تركيا دولة عسكرية أيضاً ذات تاريخ عسكري حافل، وذات امتيازات حربية أطلسية لا حدود لها أيضاً. لكن الفارق العظيم بين الدولتين ـ وهو الفارق الأساسي الذي يرجح الكفة في رأي واشنطن ـ أن إسرائيل دولة يهودية غربية مزروعة في المنطقة، بينما تركيا دولة إسلامية هي جزء

من تاريخ وتراث هذه المنطقة. وهنا تكمن خطورة اللعبة. وقد اتضحت معالم هذه اللعبة في الحلف التركي - الإسرائيلي الذي تم في صيف ١٩٩٨، وتوج بزيارة رئيس وزراء تركيا في حينه مسعود يلماظ إلى إسرائيل في أيلول ١٩٩٨. وقام سليمان ديميريل رئيس الجمهورية التركية، بزيارة رسمية لإسرائيل في تموز ١٩٩٩. وبذلك تكون واشنطن قد حققت دمج الدولتين أمنياً في مواجهة العرب.

كان الدور التركي موجهاً في تلك المرحلة ضد إيران، في محاولة لردعها عن أية طموحات خليجية. لكن هذا الدور ظل مرحلياً ومؤقتاً. فالخطر يكمن في أن الأميركيين كانوا يريدون أن يمسكوا بسيف السلطان العثماني الطويل، وإن تقاعد، ويحاربوا بجيش «تركيا الفتاة» المسلم، وإن أصبح أطلسياً، ويقاوموا نفوذ قيصر روسيا الجديدة، وإن مرض، كل ذلك على حساب أرض عربية لم تعد ملكاً للأمبراطورية العثمانية ولا لخلفائها الجدد.

إلاّ أن السيناريو الأخطر الذي تفكر فيه الولايات المتحدة بإعطاء تركيا دوراً في سياسة الشرق الأوسط هو أن توفر الفرصة لتركيا بأن تحل محلها عسكرياً في العالم العربي إذا تم انسحابها من دول الخليج العربية، بعد سقوط النظام العراقي وإكمال مفاوضات السلام في الشرق الأوسط، وإعادة العلاقات الطبيعية مع إيران. فبعد أن تحررت القوات التركية مع حماية حدودها الشمالية مع روسيا بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، سيتاح لها مجال التحريك جنوباً نحو الجزيرة العربية، في حال تعرض دول الخليج العربي لأي خطر إيراني، أو حتى قلاقل داخلية قد تهدد الأنظمة القائمة هناك. فبدلاً من إرسال قوات أميركية «ملحدة» إلى أراض إسلامية محرم

أكثرها على غير المسلمين، ترسل أميركا قوات تركية مسلمة سنّية إلى أرض تعرفها جيداً، وسبق لها أن خبرتها عشرات السنين. فالقوات التركية ظلت في الحجاز وفي اليمن حتى عامي ١٩١٧ ـ ١٩١٨.

وبذلك تقوم تركيا، الدولة المسلمة الأولى، والتي حوت آخر خلافة إسلامية في التاريخ، بالدفاع عن أراض إسلامية مهما كانت علاقاتها بإسرائيل، ومصالحها الاستراتيجية معها. وبذلك يكون المسلمون هم الذين يدافعون عن المسلمين. وتبقى أميركا بعيدة عن إثارة العواطف الإسلامية والعربية ضدها بقدر ما تبقى بعيدة عن المواجهة العسكرية والاحتكاك المباشر مع روسيا. فتحقق بذلك أطماع تركيا العثمانية التاريخية، بقدر ما تحقق سياستها، من دون أن يخدش أميركي واحد.

أمام هذه الاحتمالات كلها في مستقبل الأيام اللاحقة، ووراء هذه التراكمات التاريخية العاتية، تدخل تركيا ساحة الشرق الأوسط من باب الأقليات الأرمنية والكردية من جهة، ومن باب الإسلام الذي أغلقته وأدارت ظهرها إليه قبل سبعين سنة من جهة ثانية. وعندما تفتح أميركا هذه الأبواب لها بعد أن علاها الصدأ طوال نصف قرن، تكون دورة التاريخ قد اكتملت بأن تدير تركيا وجهها نحو الشرق، بعد أن تعبت من احتقار وإهمال الغرب لها.

□ □ □

هنا لا بد من الحديث عن دور لبلد إسلامي آخر، هو باكستان. فالباكستانيون قد أصبحوا منذ سنوات حراساً للأبواب التي كان يخاف أصحابها ـ قبل وصول «الإرهاب الإسلامي» إلى المنطقة ـ

من أن تخترقها إيران حالياً أو الاتحاد السوفياتي سابقاً. والحراس الباكستانيون مؤتمنون على ذلك ما دامت مفاتيح الأبواب الخليجية ليست معهم، وربما كان هناك بعض هذه المفاتيح في أنقرة أو واشنطن. فالتنسيق الباكستاني ـ التركي ـ الأميركي قائم في الجناح الشرقي للعالم العربي من عُمان إلى العراق من داخل القوس الممتد من باكستان إلى أفغانستان مروراً بإيران حتى تركيا الموازي لحدود روسيا.

ما يحدث في باكستان أمر يعني كل دولة عربية، وبالذات كل دولة خليجية. بل إن تأثير ما يحدث في باكستان على الجزيرة العربية ودولها، لهو أكثر أهمية من أحداث إيران من قبل سقوط الشاه وبعد قيام الثورة وما جرّت من نتائج على الخليج العربي. وكما هزّت الاضطرابات الإيرانية دول الخليج وغيرت الكثير من المسلمات التي كانت سائدة في المنطقة، فإن أحداث باكستان بدت في الماضي، وتبدو اليوم، أكثر خطورة منها.

باكستان هي الدولة المسلمة غير العربية الوحيدة التي تملك وجوداً عسكرياً فعلياً وحقيقياً داخل عدد كبير من دول الخليج العربي من قبل أن تمتلك سلاحاً نووياً، أو «قنبلة إسلامية». مدربون، خبراء، مستشارون، ضباط، جنود، خدم، مرتزقة، إنكشاريون. كل هذا وذاك وأكثر. وإنما الأهم من ذلك كله أن باكستان هي العمود الفقري للاستراتيجية العسكرية الأميركية في منطقة الجزيرة العربية وخط الدفاع العسكري الأول مع روسيا وأفغانستان. والنظام الباكستاني بتركيبه الحالي هو الدعامة الأساسية للاستراتيجية الغربية في آسيا الوسطى، إلى الجسر الباكستاني ـ التركي، الذي أخذ

يدعم أخيراً عسكرياً عن طريق تبادل الخبرات العسكرية والتنسيق المشترك.

في الماضي، كان هنالك تشابه بين ضياء الحق العسكري الباكستاني الفظ، الذي أطاح عن طريق انقلاب عسكري حكم ذو الفقار علي بوتو السياسي ـ الحزبي ـ الشعبي ـ البرلماني قبل أن يتم قتله بتفجير طائرته وعودة الأحزاب السياسية والمدنيين إلى الحكم، وبين كنعان أفرين، العسكري التركي الأكثر فظاظة، الذي أطاح أيضاً عن طريق انقلاب عسكري حكم سليمان ديميريل السياسي ـ الحزبي ـ الشعبي ـ البرلماني قبل أن تتم إقالته ليعود ديميريل المدني ومعه أحزاب تركيا السياسية إلى الحكم مرة ثانية. واليوم لا يقل بولند أجاويد ونواز شريف ونظامهما وجه شبه.

وعلى الرغم من هذا التشابه ظلت الديموقراطية التركية المصطنعة مرفوضة حتى الآن من شركاء تركيا الأوروبيين ـ الأطلسيين ذوي الديموقراطيات الأكثر عراقة وأصالة. أما باكستان فكانت قد قررت أن تستعير التجربة التركية في تشكيل الأحزاب وإجراء الانتخابات وتطريز نوع من الديموقراطية خاص بها. وينساق هذا التشابه من الحاضر إلى الماضي، عندما وصل وسط أعنف ما عرفته باكستان من اضطرابات في عهد الجنرال ضياء الحق، وزير الدفاع الأميركي نفسه الذي جاء تركيا في العام ١٩٨٢، كاسبار واينبرغر إلى العاصمة الباكستانية إسلام آباد في تشرين الأول ١٩٨٣، واستقبلته جماهير الشعب الباكستاني الغاضب بلافتات: «يسقط الاستعمار الأميركي، تسقط الصهيونية» بعد أن أحرقت العلم الأميركي أمامه.

وكانت هذه الزيارة قد تمت تحت غطاء رغبة الولايات المتحدة بأن

ترى باكستان معقلاً للغرب يقف في وجه الاتحاد السوفياتي بعد غزوه لأفغانستان. وقد بلغت المساعدات الأميركية لباكستان تلك السنة بين عسكرية واقتصادية ٣,٥ مليار دولار.

□ □ □

دول الخليج كانت تعرف عبر تعاملها الطويل مع باكستان ـ من قبل التوازن النووي بينها وبين الهند ـ كم هي عريقة العسكرية الباكستانية. فأقدم أكاديمية عسكرية في المنطقة، كانت وما زالت في باكستان. ويعرف الخليجيون أيضاً أن العسكري الباكستاني الذي يعمل عندهم يحمل كفاءة معينة. لكنه يحمل إلى جانب هذه الكفاءة هويته الإسلامية التي ترشحه للقيام بالدور الذي أفسحه الخليجيون له في بلادهم. فكفاءة العسكري الباكستاني وحدها لم تكن جواز مروره الوحيد، بل كانت إسلاميته إلى جانب خبرته الطويلة في العمل «الإنكشاري»، سبباً في الإقبال على استخدامه. هذه الهوية الإسلامية أصبحت مدار جدل وتحفظ بعد الثورة الإيرانية والمد الأصولي والمواجهة السنية ـ الشيعية.

يضاف إلى ذلك أن باكستان منذ قيامها كدولة مستقلة، كانت على ارتباط وثيق بالولايات المتحدة ودول الغرب، تحمل علم مناهضة الشيوعية والنفوذ السوفياتي. مما أفسح في المجال لها لأن تكون مقبولة لدى دول الجزيرة العربية كلها. فباكستان منذ قيامها كانت عضواً في الأحلاف الغربية مع جارتيها إيران وتركيا الموازيتين في حدودهما للاتحاد السوفياتي، بدءاً بحلف بغداد ومروراً بحلف المعاهدة المركزية «السانتو»، ونهاية بالتنسيق المشترك مع نظام الشاه في إيران بالأمس والنظام التركي العسكري بالأمس والمدني واليوم.

كلما مرَّ زمن على تأسيس باكستان وفتحت ملفات وكشفت أوراق، اتضح أن قيام دولة باكستان كان خطأً فادحاً، وأن «القائد الأعظم» محمد علي جناح (المسلم الشيعي الإسماعيلي) قد أمعن في الإصرار على هذا الخطأ عندما دفع إلى تقسيم الهند إلى دولتين. وبعد مرور أكثر من نصف قرن على إنشاء الكيان الباكستاني ليكون دولة المسلمين في الهند، لم تستطع باكستان أن تحل مشاكل المسلمين لا داخل باكستان ولا خارجها، بل أصبح صراع السنة والشيعة (ومع الأقليات الأخرى) أكثر منها في أية دولة في العالم. وإذا بالمسلمين في الهند الذين هم أقلية يبلغ تعدادها حوالى أربعين مليون نسمة، لا يعاملون بأسوأ مما تعامل به باكستان مواطنيها المسلمين، وهي الدولة التي قامت أساساً لحماية المسلمين، بل على العكس. وإذا بدماء المسلمين التي هدرت في باكستان بين جناحها الغربي الذي هو باكستان اليوم وجناحها الشرقي الذي هو بنغلادش اليوم، أكثر مما هدر من دماء المسلمين في الهند حين قسمت بريطانيا شبه القارة الهندية عند الاستقلال في العام ١٩٤٨.

□ □ □

غير أن احتمال «بلقنة» باكستان لا بد أن تقلق دول الخليج، لما تسببه من انعكاسات على المنطقة ككل، وعلى الأيدي العاملة الباكستانية فيها المتعددة الولاء القبلي والإقليمي. فالباكستانيون العاملون في الخليج هم اليوم منقسمون في ما بينهم إلى من هو مع النظام الحالي ومن هو ضده ـ إلى جانب تنوعهم القبلي بين الباتان والبنجاب والبلوش ـ إذ لا بد من أن يرسو ولاؤهم على الاختيار القبلي الإقليمي عند نهاية المطاف.

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن خلاصة موضوع الصراع داخل باكستان المتشعب أمران بسيطان: الأول، الديموقراطية والمطالبة بتعزيز مؤسساتها وضماناتها لوقف احتمال عودة حكم العسكر التعسفي. والثاني وقف تسلط فئة إقليمية قبلية (كالبنجابيين اليوم) على فئة إقليمية أخرى تعتبر نفسها مغبونة الحقوق كالسنديين والبلوش. وهذا ما حصل بالضبط وأدى إلى انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية وقيام دولة بنغلادش، عندما ثار البنغاليون ضد حكم العسكر البنجابيين في باكستان الغربية وتسلطهم على مقدرات البنغال بقيادة الشيخ مجيب الرحمن، الذي بدأ بالمطالبة بعودة الأحزاب والديموقراطية، وانتهى لما واجه قمع عسكر أيوب خان بالانفصال التام ودعا الهند إلى التدخل العسكري إلى جانبه.

لذلك لا بد لدول الخليج العربية من أن تواجه عدداً من الأسئلة المتداولة الآن، منها التساؤل عما إذا كان الباكستانيون نواطيرُ أمن الخليج هم بالفعل أداة استقرار وحماية لصد احتمالات أي غزو مسلح، وحراساً يعتمد عليهم، أم هم طابور خامس داخلي بالفعل؟ والباكستانيون الذين اعتادوا الخدمة في جيوش الآخرين وأصبح أحد تقاليدهم تجارة تصدير الخبرات العسكرية إلى الخارج، لا بد من أن يواجهوا خيار أن تكون قلوبهم مع الدول التي يخدمون ويعملون فيها، وكذلك سيوفهم. والباكستانيون المقيمون والعاملون في دول الخليج، لا يعنيهم نظام تلك الدول إلاّ بقدر ما توفر لهم سبل الارتزاق.

إن احتمالات «بلقنة» باكستان، لن تبقى محصورة في نطاق الدولة. فنحن كعرب نعرف معنى هذا الطرح، في ضوء تجاربنا من

تردّي الأوضاع العربية نتيجة للحروب التي عاصرناها في الربع قرن الأخير. لذلك نعرف أن مشاريع «البلقنة» الباكستانية قد تصل إلى شواطئنا ولن تبقى محصورة داخل باكستان المتعارف عليها الآن. إن رسامي الخرائط الجدد، لن يكتفوا برسم خريطة واحدة لبلد واحد. إنما هناك خرائط حديثة وجديدة لحدود لا نعرفها تشمل بلادنا.

إذن، إذا بدأ غناء موال أمن الخليج من جديد، فلا بد من محاولة إبعاد الموسى الباكستاني عن الذقن الخليجي.

... وما بين أوروبا والأتراك!

■ «وقف أبو العيناء يوماً إلى الوزير صاعد بن مخلد، فقيل له:

ـ هو مشغول يصلّي.

فقال: لكل جديد لذة.

(وكان صاعد قبل أن يلي الوزارة نصرانياً).»□

«حدائق الأزاهر»

لابن عاصم الغرناطي

في الأسبوع الذي بدأت فيه مفاوضات السلام السورية ـ الإسرائيلية في واشنطن، كان الاتحاد الأوروبي في هلسنكي يفتح أبوابه بكثير من التردد وبشيء من الخجل أمام تركيا، وبشروط «مسكوبية» لإدخالها إلى دياره، بعد أن «لطعها» تنتظر أكثر من ثلث قرن.

وحتى تختلط الأمور ببعضها، من قبل أن يعرف أحد إلى أين ستؤدي محادثات واشنطن، وأي سلام سيتم التوصل إليه، حشرت إسرائيل نفسها في الموضوع التركي، البعيد حالياً عن واشنطن، عندما أعلن وزير إسرائيلي رفض ذكر اسمه لوكالة «الصحافة الفرنسية»، أن السوريين طلبوا مساعدة الولايات المتحدة لحل مشاكلهم مع تركيا، معتبرين أن العلاقات بين إسرائيل وتركيا تشكل تهديداً لسورية («السفير» ـ ١٩٩٩/١٢/١٤).

وقال الوزير الإسرائيلي إن الولايات المتحدة استجابت للطلب السوري بعد التشاور مع تركيا، بوعد أن يتضمن اتفاق السلام النهائي بين سورية وإسرائيل تسوية للمشاكل القائمة بين سورية وتركيا، ومن بينها مشكلة المياه القائمة بين البلدين من سنوات بعيدة. معتبراً (الوزير الإسرائيلي) أن حل قضية مياه نهر الفرات بين دمشق وأنقره سينعكس إيجابياً على مشكلة المياه في إسرائيل، التي هي إحدى أعقد المشاكل بين البلدين وأخطرها تهديداً للسلام والاستقرار في المدى البعيد للمنطقة.

قد يكون هذا صحيحاً، لكن الحشرة الإسرائيلية لتركيا في موضوع محادثات السلام السورية - الإسرائيلية جاءت من قبيل إعلان إسرائيل للعالم أنه لولا علاقة تل أبيب بأنقرة واللوبي الإسرائيلي في أوروبا، لما دعت أوروبا تركيا للانضمام. محادثات واشنطن بدورها ليست همّاً تركياً آنياً في هذا المفترق الزمني، لأن تركيا مستريحة إلى التحالف الحالي بينها وبين إسرائيل ولا يقلقها كثيراً أي توتر في العلاقات مع سورية وخاصة في ظل اتفاق سلام شامل في الشرق الأوسط.

□ □ □

الذي يقلق تركيا اليوم، بعيداً عن الموضوع السوري أو الإسرائيلي الذي له حديث آخر، هو أن الطموح الأساسي لتركة مصطفى كمال (أتاتورك) السياسية قد تحقق بعد ست وسبعين سنة تماماً من قيام الدولة التركية الحديثة، وتمثّل بـ«أوربة» بلاده، أي اعتراف أوروبا بتركيا على أنها دولة أوروبية وإدخالها في ملكوتها، أيا كان شكل مؤسساتها. فعندما وافق الاتحاد الأوروبي في هلسنكي في آخر قمة عقدها القرن الماضي، على دخول تركيا مرشحاً لعضوية

«نادي الخمسة عشر»، شعر الأتراك أن وصية باني الجمهورية العلمانية قد بدأت ترى النور. فالصراع التاريخي بين تركيا العثمانية المسلمة وتركيا الأوروبية العلمانية قد وصل إلى مشارف النهاية.

أما «الأوربة» التامة لتركيا والانضمام النهائي للاتحاد الأوروبي، فلعلهما يحتاجان إلى خمس وعشرين سنة أخرى حتى تستطيع تركيا تلبية كافة الشروط. وبذلك تكون قد مرت مئة سنة على حلم أتاتورك في أن تستدير تركيا نهائياً نحو الغرب لتصبح عضواً فاعلاً - وإن لم يكن متساوياً - في أنديته، دون أن تخشى أن ظهرها في الشرق معرض لرياح عاصفة وهي وسط حماية الغرب. فالمشكلة في تركيا اليوم أن رياح الشرق بعد انهيار الاتحاد السوفياتي لم تعد تهدد أحداً في هذه المرحلة. فالخطر يكمن في الثمن الذي سيطلب من تركيا تأديته للغرب، حتى تحصل على الاعتراف الكامل.

□ □ □

لكن ماذا حدث في هلسنكي، ومَنْ كان مع تركيا ومَن كان ضدها. وكيف استجابت أو لم تستجب تركيا لدعوة الاتحاد الأوروبي وشروطه التي غيرت الكثير من تقاليد الرغبة التركية في الانضمام إلى الاتحاد والرفض الأوروبي - المذل في أحيان كثيرة - لهذه الرغبة التاريخية التي رافقت كل عهود الحكم في تركيا وعاندت كل المعوقات الأوروبية؟.

ما حدث من تحول كبير لتركيا (الأوروبية)، يبدأ من البيان الختامي لقمة الاتحاد الأوروبي في هلسنكي الذي صدر في ١١ كانون الأول ١٩٩٩، والذي اشترط إحالة الخلاف بين أنقرة وأثينا على

محكمة العدل الدولية إذا لم يتم حله ديبلوماسياً حتى عام ٢٠٠٤، وقبول عضوية قبرص في الاتحاد في ذلك التاريخ حتى لو لم يتم حل النزاع السياسي عليها. هذه هي صعوبة قضية تركيا في أوروبا. لا قبلها ولا بعدها.

ورفضت أنقرة مسودة البيان، وطالبت قمة هلسنكي بمساواتها في المعاملة مع الدول المرشحة الأخرى التي لم يفرض الاتحاد الأوروبي عليها شروطاً خاصة مثل هذه. وتدخلت الديبلوماسية الأوروبية عقب ذلك على الفور لإقناع أنقرة، وأرسلت خافيير سولانا الممثل الخاص للسياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي الذي قابل وزير الخارجية التركي إسماعيل جم ورئيس الحكومة بولنت أجاويد. وقام رئيس الوزراء الألماني غيرهارد شرودر والرئيس الفرنسي جاك شيراك بالاتصال بأجاويد وأبلغاه أن البيان فرصة تاريخية لتركيا وطلبا منه الموافقة عليه والحضور إلى هلسنكي.

ولكن الفضل الأكبر في إقناع أجاويد كان لواشنطن، إذ اتصل الرئيس بيل كلينتون شخصياً بأجاويد وقال له إنه يشاركه عدم رضاه التام على ما جاء في البيان، ونصحه بعدم تضييع الفرصة، فالصيغة معقولة ولا يمكن رفضها. وهذا ما دعا أجاويد لإعلان قبول حكومته البيان وعزمه الذهاب إلى هلسنكي. وأعلن أجاويد أن أنقرة مصممة على موقفها من قبرص، وأكد أنه بقدر ما يقترب جنوب قبرص من عضوية الاتحاد الأوروبي بقدر ما يقترب شمال الجزيرة من الاندماج مع تركيا. وهذا ما تريده تركيا بالفعل.

واعتبرت تركيا أن البيان الختامي للقمة الأوروبية وما فيه من مواد تتعلق بقضية قبرص سيؤثر سلباً على محادثات نيويورك والتي استؤنفت في ١٩٩٩/١٢/٢١ بين الزعيم القبرصي التركي رؤوف

دنكطاش والرئيس القبرصي اليوناني غلافكوس كلاريدس. ذلك «لأن هدر الوقت والتسويف سيكونان لصالح الجانب اليوناني الذي سيفضل تأجيل هذه المحادثات إلى ما بعد العام ٢٠٠٤»، أي بعد حصول قبرص على العضوية الكاملة في الاتحاد.

حتى ذلك الحين سيكون الاتحاد الأوروبي قد صادق على تقسيم الجزيرة فعلياً عندما تضم أنقرة شمالها إليها رسمياً. في حين لم تخف الأوساط السياسية التركية استياءها من عدم تحديد الاتحاد الأوروبي تاريخاً لبدء مباحثات العضوية مع أنقرة وتأجيل ذلك لأجل غير مسمى. أي حتى تقوم تركيا بخطوات جادة على طريق تطبيق «معايير كوبنهاغن» الخاصة بالتركيبة السياسية وحقوق الإنسان والشروط الاقتصادية لتوافق البنية الأوروبية. وبهذا الخصوص سيرسل الاتحاد الأوروبي ملفاً من آلاف الصفحات يشرح فيها التعديلات القانونية والدستورية التي يجب على الحكومة التركية تنفيذها في مختلف المجالات لتتأقلم مع المعايير الأوروبية. ويعتقد أن هذه التعديلات ستأخذ حوالى ١٥ سنة من عمر تركيا وحوالى ٧٠ مليار دولار أميركي من أموال أوروبية ـ أميركية لتنفيذها.

□ □ □

ووجدت تركيا أنها نالت من حلاوة اللسان الأوروبي طرفاً، فأعربت الصحف التركية عن سعادتها بدعوة الاتحاد الأوروبي، التي طال انتظارها، لتركيا بمنحها حق الترشيح. ووصفت ذلك بأنه «تحقيق حلم». وهنا يجب أن لا ننسى أن تركيا تنظر إلى أوروبا بمزيج من الإعجاب والريبة كما كانت أوروبا المسيحية في الماضي تنظر إليها باشمئزاز وقسوة. ويقول فهمي كورو المعلق المتعاطف مع

حزب الفضيلة الإسلامي «يرحب الكثير من المثقفين الذين قد تكون لهم تحفظات على العضوية بالعرض الأوروبي لما يمثله من مزيد من الديموقراطية وحماية حقوق الإنسان والسيطرة على الجيش». وأوضح كورو أن الطامحين أوروبياً يعتبرون عضوية الاتحاد الأوروبي النقطة الأخيرة في قطار التحول إلى الغرب. ولكنهم يخشون أن يكون هناك جدول أعمال أوروبي خفي، وإن كانت عضوية تركيا الكاملة «لن تتحقق حتى لأحفادنا».

ومن أبرز المخاوف التركية أن تسعى أوروبا إلى ربط تركيا بالمعسكر الغربي نهائياً، مما يبعدها عن نفوذ جيرانها مثل إيران والعراق وسورية، ويحرمها في الوقت ذاته من مزايا عضوية الاتحاد الأوروبي إذ يبقيها خارجه ولكن على مقربة منه.

ولكن يوكسيل سوليميز السفير السابق والمحلل في معهد أنقرة للسياسة الخارجية يرفض القول إن موقف أنقرة تجاه أوروبا يتصف بالانفصام، ويقول إن تركيا ببساطة لديها تساؤلات حول كيفية تقييم أوروبا للهوية التركية. ومن هنا تأتي المشكلة. فالأتراك دائماً يقولون نحن نريد الأوروبيين ولكن هل أوروبا تريدنا؟

ويعتبر سوليميز أن هناك تركيتين: تركيا ذات الثقافة الغربية العلمانية، وتركيا الأقل ثقافة غربية والأكثر فقراً وإسلاماً. ولكن «نجد انقساماً شبيهاً في إيطاليا أو اليونان أو البرتغال». ويرى أن الدين الإسلامي هو النقطة الرئيسية التي تؤثر على وجهة النظر الأوروبية تجاه تركيا، مضيفاً «تركيا ليست أوروبية بحق، فالصبغة الأوروبية ترتبط نوعاً ما بالحضارة اليهودية المسيحية وتركيا ليست جزءاً من ذلك».

ولكن سوليميز يرى أن الدين يجب أن لا يكون من العناصر المؤثرة ويضيف: «في عصر آخر كان الأتراك ينظرون إلى الأوروبيين على أنهم كفار والأوروبيون ينظرون إلى الأتراك بالطريقة نفسها، ولكن الدين الآن لا يمثل المشكلة التي كان يمثلها من قبل». ويرى ديبلوماسي أجنبي في أنقرة أن الدين أو الاقتصاد لا يمثلان عقبة أمام تركيا في الاتحاد الأوروبي «ما يزعجني هو موقف الدولة. عندنا في أوروبا الدولة تخدم الشعب ولكن هنا الشعب يخدم الدولة».

ويعتبر الأتراك من معارضي انضمام تركيا إلى الاتحاد، أن قبول ترشيح تركيا لا يتجاوز كونه فخاً تنصبه أثينا لأنقرة. ويشيرون إلى أن أثينا ستكون المستفيد الأول من ذلك لأنها ستقبض ثمنه غالياً من الاتحاد الأوروبي الذي اشترطت عليه ضمها إلى اتحاد تداول العملة الأوروبية الواحدة ـ اليورو ـ ومن تركيا لاحقاً التي اشترطت عليها حل كل ما يتعلق بالخلافات بينهما. ويؤكد هؤلاء أن ترشيح تركيا لن يمنع الاتحاد من قبول قبرص عضواً قبل حل الخلاف السياسي على الجزيرة.

□ □ □

لماذا اعتبر عدد من الخبراء الأتراك أن قمة هلسنكي كانت انتصاراً لليونان؟ ذلك يعود إلى ثلاثة أسباب:

١ ـ النجاح في إيصال القضية القبرصية إلى الخاتمة التي تريدها حيث قبل الاتحاد الأوروبي الطلب المقدم باسم قبرص اليونانية وكأنه باسم الجزيرة بأكملها، وهي ستحصد نتيجة ذلك بعد مدة أمام الاتحاد الأوروبي. ورغم الاعتراضات التركية على

ذلك، فإن مجلس الاتحاد الأوروبي هو الذي سيعطي القرار النهائي.

٢ ـ تحويل خلاف اليونان مع تركيا في بحر إيجه خلافاً بين تركيا والاتحاد الأوروبي. فقرار هلسنكي يرى أنه بعد العام ٢٠٠٤ إذا لم يتوافر الحل في إيجه، فإن مجلس الاتحاد الأوروبي يمكنه أن يحيل القضية على محكمة العدل الدولية. واليونان التي انتزعت مثل هذا القرار من الاتحاد الأوروبي لم تعد مضطرة للتعاون مع تركيا لحل خلافاتها في إيجه بعدما فُتح أمامها باب لاهاي.

٣ ـ انتزاع ضمانة الاتحاد الأوروبي خلال تقويم زمني ملزم في شأن خلافاتها مع تركيا في بحر إيجه. وفي هذا الإطار لا بد من القول إن الفترة الزمنية المعقولة التي يشير إليها القرار (حتى العام ٢٠٠٤) تخدم مصالح اليونان. فموضوع قبول عضوية تركيا سيأخذ في أحسن الأحوال، وهذا ما يجمع عليه الخبراء والمتابعون، وقتاً طويلاً يستغرق بين ثماني وعشر سنين على الأقل، أما فترة العضوية فتراوح بين ١٥ و٢٠ سنة. وفي جميع الأحوال إذا أخذ بعين الاعتبار أن لا قبول لعضوية أحد قبل العام ٢٠٠٣، فإن ما حققته اليونان من خلال القرار الأوروبي هذا يعني أنه قبل أن تقطع تركيا أي مسافة في الطريق نحو الوحدة مع أوروبا، تكون اليونان حلت مشكلتين رئيسيتين لها مع أنقرة، ولا بد أن اليونان نفسها تعرف أكثر من غيرها أن موضوع حتمية قبول عضوية تركيا ما زالت قضية غير محسومة.

□ □ □

وحتى لا تكتمل الفرحة التركية باعتراف أوروبا بها، جاء وزير خارجية فرنسا هوبير فيدرين ليعلن أن انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي يبقى مشروطاً باحترامها المعايير الديموقراطية. وقال الوزير الفرنسي أن «على تركيا إدراج نفسها في عملية احترام معايير هي قيمنا الأوروبية المشتركة، التي تلتزم الديموقراطية واحترام دولة القانون واحترام الأقليات». («الحياة» ١٩٩٩/١٢/١٥). وكان الموقف الفرنسي هذا من تركيا، بمثابة رد على احتجاج الأحزاب الديموقراطية المسيحية في أوروبا، وعلى الأحزاب اليمينية التي تعتبر أن تركيا ليست بلداً أوروبياً وأن انضمامها سيغير طبيعة الاتحاد الأوروبي. فالذي فعلته هلسنكي أنها أقرت أن لتركيا توجهاً أوروبياً قد يرشحها للاتحاد لكن ذلك لا يعني على الإطلاق أنها فتحت باب المفاوضات بهذا الشأن، قبل أن تنفذ تركيا شروط الترشيح وتلتزم بها.

وجاء الرد من وزير الخارجية التركي إسماعيل جيم، «إن تركيا ليست أي مرشح. إن لها ثقافتها الخاصة بها وهويتها التي تختلف عن بقية المرشحين (...) ومن غير الوارد أن تتخلى عن ذلك (...) وسنقدم مساهمة مميزة إلى الاتحاد الأوروبي بفضل هويتنا الثقافية الخاصة بنا وعبر التوفيق بين الغرب والشرق والمسيحية والإسلام». فهذا الطرح التركي لا يشكل فقط رداً على المخاوف المحافظة والتقليدية في أوروبا، بقدر ما يسعى إلى التخفيف من حالة العداء ضد تركيا بطرح فكرة «تركيا الجسر ـ الوسيط» بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، مما يبرر قبول الاتحاد الأوروبي لعضوية تركيا في السنوات المقبلة.

□ □ □

لم ينجح قرار ترشيح أوروبا تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي في دفع الشعب التركي إلى الشوارع للتعبير عن فرحته بقرار انتظره ٣٦ عاماً. ومن سخرية القدر أن يقف أشد المعارضين لقبول عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي مثل أنصار حزب العمال الكردستاني ومنظمة العفو الدولية إلى جانب تركيا هذه المرة. ومع ذلك فإن الفرحة جاءت مبتورة بسبب ما يردده بعض وسائل الإعلام التركية عن تنازلات سياسية مهمة قدمت مقابل هذا الترشيح، ومصحوبة بغضبة شديدة لرؤوف دنكطاش الذي انتقد بعنف قرارات قمة هلسنكي التي ستشجع القبارصة اليونان «على التدلل والغنج أكثر فأكثر» على حد قوله.

ورغم أن رئيس الوزراء التركي بولنت أجاويد لوح بخطاب ضمانات قدمه رئيس وزراء فنلندا، الرئيس الحالي للمجموعة الأوروبية، يشرح فيه النقاط الغامضة في الخطاب الأوروبي ويؤكد على عدم وجود شروط مسبقة فرضت على تركيا، فإن صيحات النصر التي ترددت في أثينا تركت حالاً من الشك والتخوف على المستويين الشعبي والسياسي في تركيا.

ومع أن مصالح الطرفين الأوروبي والتركي هي التي دفعتهما للوصول إلى هذه النتيجة، إذ أعلنت أوروبا أنها مقتنعة أكثر فأكثر بالتدابير والإصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تقوم بها حكومة الائتلاف التركية برئاسة أجاويد. كما أنها حسمت قرارها بالدور الاستراتيجي المهم الذي تلعبه تركيا في المنطقة. كذلك فإن أنقرة ذكّرت الأوروبيين في كل مرة أنها فرصة اقتصادية وبشرية وثقافية لا ينبغي التقليل من شأنها على المستوى الأوروبي. إلاّ أن المسألة القبرصية والوضع القائم في بحر إيجه

يدفعان الكثيرين للاستفسار بحذر عن أسباب تحجيم قيمة هذا الحدث التاريخي المهم بمثل هذه القضايا التي دفعت بها اليونان إلى الواجهة لتستفيد قدر الإمكان من الوضع القائم.

أثينا ترد بدورها على هذه الانتقادات بقولها إنها قبلت التخلي عن حق النقض الذي تملكه كسلاح وحيد في وجه تركيا، فمن الطبيعي أن تطالب ببعض الضمانات لحماية مصالحها في قبرص وبحر إيجه، لكنها تنسى أو تتناسى أنها تستفيد من كونها تدافع عن نفسها بالغطاء الأوروبي الذي يحمي مصالحها في حين أن تركيا ستكون مضطرة ليس لمواجهة اليونان وحدها بل لمواجهة قرارات ١٥ دولة أوروبية تعمل لإلزامها بمبادىء وأهداف وتطلعات فيها الكثير من الجديد والطارئ عليها.

ومن الممكن أن تكون تركيا قد قبلت عن قصد بدفع الكرة في إيجه وقبرص إلى ساحة المجموعة الأوروبية لترى ما الذي يمكن أن تفعله هي بهذا الشأن بالمقاييس والموازين الأوروبية، فتجرب الحل الأوروبي لقضيتين مزمنتين ترهقانها منذ أمد بعيد. وتشتري، إذا أعجبها ما يروج له وما يعرض عليها أو ترده شاكرة وتمضي في طريقها.

□ □ □

أكدت حرب الخليج الثانية في العام ١٩٩١ دور تركيا كمفرق استراتيجي. فقواعد أميركا العسكرية فيها سهلت كثيراً مهمة طائرات التحالف الدولي ضد العراق. لكن الولايات المتحدة لم تنفذ وعوداً قطعتها لأنقرة بتعويضها عن الخسائر الناجمة عن الحرب ومن ثم الحظر على العراق. وهو أمر لا يعدم الإسلاميون

والمعارضون للحكم في تركيا مناسبة إلاّ ويذكرون الرأي العام التركي به. يضاف إلى ذلك وقوف تركيا الطويل أمام باب الاتحاد الأوروبي الذي ما زال، برغم اتفاقات الشراكة العديدة مع تركيا يرفض منحها الهوية الأوروبية لأسباب عديدة منها الأزمة القبرصية وملف حقوق الإنسان بما فيه الحقوق الكردية كما يعلن عنه الأوروبيون، إلى جانب الحذر الأوروبي الدائم من الإسلام كما يضمرون.

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وزوال القطبية الثنائية في العالم، نجد أن بعض النجاحات الثقافية والتجارية قد تحققت لدى معظم جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية (السوفياتية سابقاً). بينما تبدو تركيا في الهضبة الأناضولية، منكفئة، معزولة، ومحاصرة من كل الجهات. والتقارب الروسي ـ الإيراني، والعربي ـ اليوناني ـ القبرصي، وتقارب الكتلة الأرثوذكسية مع موسكو وتقارب العواصم العربية، دمشق وبغداد، مع روسيا. كل ذلك، يُشعر أنقرة بفقدان الدور الذي جعل منها لعقود خلت، حلقة مركزية في المنظومة الاستراتيجية الغربية.

هذا الحصار دفع أنقرة إلى المراهنة على ثلاثة محاور:

١ ـ العلاقات مع إسرائيل وأميركا.

٢ ـ دخول الاتحاد الأوروبي.

٣ ـ تطوير العلاقات الاقتصادية والثقافية مع بلدان آسيا الوسطى الإسلامية التركمانية الأصل. ولكن هذه الاندفاعة نحو القوقاز تبقى تجارية وثقافية ولا تملك آفاقاً واسعة بسبب ضعف تركيا وعدم قدرتها التكنولوجية والاقتصادية

والسياسية على الاستفادة من الفرص الجديدة في هذه المنطقة الواعدة.

لذلك فإن تركيا تحاول إقناع الغرب بدور جديد رسمته لنفسها يصر على أنها أوروبية ويقول في الوقت نفسه بأنها آسيوية كذلك، وأن هذه الإزدواجية لها منافعها. وقد أعربت تركيا عن الانزعاج لأن أصلابها الأوروبية موضع تساؤل، بعد أن عاشت ٧٠٠ سنة من تاريخها في أوروبا كقوة أوروبية. والواقع أن التساؤل حول وضع تركيا في ترتيبات الأمن الأوروبية يقود إلى تساؤل آخر بشأن مؤهلات تركيا الأوروبية في بحثها عن دور جديد في أمن أوروبا.

□ □ □

تركيا عرّضت نفسها لتحديات مختلفة كانت قد تخطتها عند قيام تركيا الحديثة. فما كان قد عرف من قبل بأنه دولة أوروبية علمانية قومية يواجه تحدياً صريحاً من الأصولية الإسلامية والقومية الكردية، ويثير نقاشاً عنيفاً في كل من أوروبا وتركيا. لذا فإن إعادة صياغة أهداف السياسة الخارجية التركية، في عهد ما بعد الحرب الباردة تؤدي إلى إعادة صياغة الهوية التركية، هو أمر دونه مخاطر لأن من شأنه إخراج مختلف الاتجاهات في تركيا من عقالها، مما يهدد الهوية المحددة رسمياً للدولة التركية.

وتتركز الاعتراضات على إدخال تركيا في عضوية الاتحاد الأوروبي في ثلاثة أمور:

١ ـ الإسلام وسكانها المسلمون.

٢ ـ فقرها وتخلفها الاقتصادي.

٣ ـ معاملتها الصارمة للمنشقين السياسيين. والعنصرية في تعاملها

مع شعوبها في الداخل وجيرانها في الخارج. والاعتراض الأخير هذا هو في الواقع الأكثر جدية، بل الأكثر خطورة، ومواجهته تتطلب مراجعة جذرية لغطرسة الكمالية.

وتفضل دوائر أوروبية أن تكون هذه المراجعة عن طريق مجلس الأمن القومي في تركيا ذاتها، لأن القوات المسلحة التركية لها دور يتعارض مع الديموقراطية الأوروبية لأنه دور أساسي. وإزاحة حكومة نجم الدين أربكان الإسلامية في حزيران ١٩٩٧ تحت ضغط عسكري وفرض حظر عليه وعلى حزبه لم يكونا من الأمور التي تتوقع من عضو في الاتحاد الأوروبي. يضاف إلى ذلك الاضطهاد الذي يقوم به العسكريون ضد أولئك الذين يطالبون بالحكم الذاتي للأكراد. وسوف يتطلب أي انتقال لعضوية الاتحاد الأوروبي انسحاب الجنرالات إلى الثكنات وإنشاء أحزاب سياسية ديموقراطية في مقدورها الوقوف على أقدامها. وسوف يكون ذلك بلا ريب أعنف اختبار لالتزامات تركيا بإزاء الاتحاد الأوروبي.

□ □ □

عندما كان الغرب في حاجة إلى تركيا، بتأييد من الولايات المتحدة، عقدت معها المجموعة الاقتصادية الأوروبية اتفاق انتساب في عام ١٩٦٣. وقبلت أن تبحث طلبها لعضوية الاتحاد في العام ١٩٨٧. وأنشأ معها الاتحاد الأوروبي الذي خلق المجموعة الاقتصادية الأوروبية اتحاداً جمركياً في عام ١٩٩٦، كل ذلك دون أي ذكر لأي من الاعتراضات التي تثار الآن ضد عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي.

فموضوعا الإسلام وفقر أهلها لم يرد لهما ذكر على الإطلاق.

وموضوع سوء معاملة الأقليات والعرقيات وحقوق الإنسان وسيطرة العسكر على السياسة جرى كذلك غض النظر عنه لأن هذا النوع من الحكم كان في مصلحة الغرب وقتها. وبالنسبة إلى الإسلام فإن المعاهدات التي قام عليها الاتحاد الأوروبي لا تتضمن نصاً أو شرطاً يقضي بأن تكون الدولة المرشحة للعضوية مسيحية، وتركيا في الواقع ليست أكثر فقراً من دول أوروبية في قائمة المرشحين للعضوية كبلغاريا ورومانيا مثلاً.

وكذلك فإن أوروبا تشكك حالياً في حدود تركيا الجنوبية مع شمال العراق أو بالأحرى في شرعية هذه الحدود، وتقول بأنها غير واضحة على الإطلاق، وهي مناطق كردية، إن شُغلت تركيا بأمرها طويلاً فسوف يساعد ذلك على تحرير الجزء الأوروبي من تركيا الحالية، أي إخراجها من أوروبا إلى ما وراء البوسفور، وبعد سيطرة العسكر على الحكم في تركيا أخيراً بدعوى الدفاع عن الكمالية توقفت الديموقراطية أو ما يسمى بذلك هناك، وبذا فقدت أهم شروط عضوية الاتحاد الأوروبي: «الديموقراطية التعددية».

وكانت الولايات المتحدة وإلى حد ما جمهورية ألمانيا الاتحادية (ألمانيا الغربية)، قبل انتهاء الحرب الباردة تساندان تركيا في حلف الأطلسي في الاتحاد الأوروبي أكثر من غيرهما. بعد ذلك تغير الوضع. فبعد توحد ألمانيا بدأت خشية الألمان من هجرة تركية وغزو عمالة إن هي أصبحت عضواً في الاتحاد الأوروبي، لأن ذلك يضيف إلى ما تعانيه ألمانيا اليوم من وطأة نحو ثلاثة ملايين عامل تركي يقيمون بها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ويتوالدون بشكل يهدد المجتمع الألماني دونما أمل، من قريب أو من بعيد، باحتمال اندماجهم لاختلاف دينهم، (الإسلام)، وتقاليدهم.

وكان لانقسام الولايات المتحدة على نفسها إزاء تركيا قبل العام ١٩٩٨تأثير بالغ على عضوية الأخيرة في الاتحاد الأوروبي. فالإدارة الأميركية تتحدث عن الحاجة إلى حلف أطلسي قوي يحتفظ بتركيا. ولكن ثمة ثغرة بين ما تعلنه أميركا وما تفعله، ما أدى إلى فتور العلاقة بينهما في العام ١٩٩٦ - ١٩٩٧. وتزامن ذلك مع نهاية الحرب الباردة والتطورات في داخل تركيا وتسلم الإسلاميين الحكم (حزب الفضيلة) لفترة قصيرة. كل هذه أمور أضعفت وشائج العلاقة بين واشنطن وأنقرة، مما جعل تركيا تندفع إلى الارتماء في أحضان إسرائيل. هذا الخيار الحاسم الباهظ الثمن أدى إلى إرضاء أميركا وساهم في إنعاش العلاقة الأميركية - التركية. وبعد حرب كوسوفو ظهرت الولايات المتحدة كأمبراطورة للحلف الأطلسي. ورغبة منها بمكافأة تركيا على علاقاتها مع إسرائيل وموقفها من دول الخليج، ضغطت على الاتحاد الأوروبي لقبول ترشيحها لعضوية الاتحاد.

□ □ □

إن وضع تركيا في أوروبا الآن، كوضع الوزير العباسي صاعد بن مخلد، الذي اعتنق الإسلام فانشغل بالصلاة واستلذ بها لأنها كانت جديدة عليه، ونسي شؤون الدولة. وهكذا هو الحال مع تركيا التي اعتنقت الأوروبية وانشغلت بشروطها واستمرأت مطالبها، فنسيت إسلامها وعثمانيتها ومشرقيتها. وخلعت الطربوش ولم تحسن ارتداء القبعة، وبدلت حروف لغتها إلى الحروف اللاتينية، فتبلبل لسانها. وأخشى أن يكون مثلها كمثل جماعة عجلان الذين جاء ذكرهم في العقد الفريد لابن عبد ربه:

«قال زياد لعجلان حاجبه: كيف تأْذَن للناس؟

قال: على البيوتات، ثم على الأنساب، ثم على الآداب.

قال: فمن تؤخر؟

قال: مَنْ لا يعبأ الله بهم.

قال: ومَنْ هم؟

قال: الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف، وكسوة الصيف في الشتاء».

متى تدرك تركيا أن الحاجب الأوروبي سيعاملها كعجلان حاجب زياد، إلا إذا كانت كسوتها تصلح لطقس أوروبا بقدر ما كان طربوشها صالحاً لمناخ أمبراطورية إسلامية دامت أكثر من خمسة قرون!



حكاية
الدب والذئب

يوم الملياري دولار

■ «قال الحراني في تصنيف الناس:

منهم من هو كالغذاء الذي يمسك رمقك.

ومنهم من هو كالدواء يحتاج إليه في الحين بعد الحين على مقدار محدود.

ومنهم من هو كالسمّ الذي لا ينبغي أن تقربه فإنه سبب هلكتك». □

أبو حيان التوحيدي

كتاب «الصداقة والصديق»

كانت تلك الأيام، غير هذه الأيام.

في مطلع حياتي المهنية، كصحافي يعنى بقضايا الخليج، كنت كثير التردد على المنطقة، وكانت سلطنة عُمان دائماً في أولويات اهتماماتي. وكان لا بد من مسقط ولو طال السفر أو طالت الجولة. ولذلك سبب بسيط، أنني كنت أول صحافي عربي زار عُمان في آب ١٩٧٠، بعد التغيير التاريخي الذي حدث فيها، وخروجها من القرون الوسطى إلى القرن العشرين. وفتنت منذ اللحظة الأولى بتاريخ هذا البلد وجغرافيته وناسه وقضاياه الخاصة وسياسته المختلفة عن باقي دول الخليج. واكتسبت سمعة «عُمانية» من جراء ذلك، وهي شرف لم أدّعه. وهي سمعة كان من نتائجها، أنها «خرّبت» لي علاقات خليجية كثيرة.

وعلى مدار أكثر من عشر سنوات، حظيت بأكثر من عشرة أحاديث صحافية مع السلطان قابوس بن سعيد، مهندس «الثورة» الإصلاحية العُمانية وباني عُمان الحديثة. وكانت هذه الأحاديث على تنوعها، والتي نشرت في حينه، في جريدة «النهار» ومجلة «المستقبل»، محطات سياسية هامة لمفاصل أساسية في تاريخ الخليج. من بينها كان هناك حديثان بارزان، إذا قرأتهما اليوم بعد حوالى عشرين سنة، تكتشف أن في الواحد منهما استشرافاً مستقبلياً تحقق، وفي الثاني دعوة لم يستجب لها الغرب، وتتمنى دول الخليج اليوم، لو لبّاها.

كان الحديث «الأول» في العام ١٩٧٩، وسقوط الشاه ما زال حديث العهد، والثورة الإسلامية في إيران في بدايتها، والفوضى ضاربة أطنابها، والخوف منها يلف الخليج كله. كانت الأساطيل الأميركية، بحاملة طائراتها وصواريخها تبحر بين مضيق هرمز وبحر العرب ومياه الخليج، تحسباً من الثورة الإيرانية وتهديداً لها. وكانت احتمالات التدخل العسكري الأميركي واردة في حسابات كل المحللين السياسيين، وكانت صيحة «الأميركان قادمون» على كل شفة ولسان. وسط هذه الأجواء السياسية القلقة والأمنية المتوترة في الخليج، قابلت السلطان قابوس في ٨ كانون الأول ١٩٧٩، في قصر «السيب» في مسقط، وسألته: «هل وصلوا». إبتسم السلطان وقال: «مَن هم». قلت: «القوات الأميركية. فالدول الكبرى تهدد بالتدخل كما نسمع». هنا ضحك السلطان وقال:

«إن الدول الكبرى إذا وجدت مصالحها في خطر فلن تستأذن أحداً منا بالتدخل. لن يسألونا إذا أرادوا أن يتصارعوا عندنا. ونحن لا

نريد أن نُجرّ إلى صراع الدول الكبرى لأننا سنكون الضحية. لذلك يجب أن نقف على أرض صلبة ونعتمد على أنفسنا، وعلى قوتنا الذاتية أكثر وأكثر من حيث حماية أمننا، وصون استقرار المنطقة. قاعدة ذلك هي التفاهم السياسي بيننا، والتنسيق العسكري والتكامل الاقتصادي. يجب أن نمنع الدول الكبرى بشتى الوسائل، من أن تحيل هذه المنطقة، وهي المؤهلة بحكم موقعها الاستراتيجي وثرواتها، إلى أرض الصراعات الدولية. لا نريد من أصدقائنا في الغرب، أكثر من مساعدتهم السياسية، وإعطائنا ما يلزمنا من خبرات ومعدات من دون تردد».

وهذا ما حصل تماماً بعد حوالى عشرين سنة، لما جاءت حرب الخليج الثانية و«عاصفة الصحراء»، حين لم تستأذن الدول الكبرى والتحالف الدولي، دول الخليج في التدخل، وجرتهم إلى حرب لم يكن لهم رأي فيها ولا دور. وكان كلام السلطان قابوس في حينه استشرافاً تحقق، من المؤسف أنه كان في حينه بلا صدى.

□ □ □

كان الحديث التالي في العام ١٩٨٢. وكانت الأحداث كثيرة. من القمة العربية في عمّان، إلى القمة الإسلامية في الطائف، إلى الحرب العراقية ـ الإيرانية، إلى صراعات الثورة الإسلامية الداخلية في إيران، إلى تفكك الأوضاع العربية، إلى وجود قوات الاتحاد السوفياتي في أفغانستان، إلى إنشاء قوات التدخل السريع الأميركية، إلى أحداث كثيرة كثيرة غيرها. كان رونالد ريغان قد وصل إلى الرئاسة في أميركا، حاملاً معه سياسة المواجهة مع «أمبراطورية الشّر» الاتحاد السوفياتي. وكان اتفاق كامب دافيد قد وصل إلى طريق مسدود وليونيد بريجنيف يبادر لإعلان الخليج

منطقة محايدة. وكانت التحالفات الدولية تتغير في البحر الأحمر والقرن الأفريقي. وكان دور الجامعة العربية قد سقط وأولويات العلاقات العربية قد تغيرت.

الأهم من ذلك، كان نظام اليمن الجنوبي الماركسي قد انضم كعضو شرف إلى حلف وارسو، وعضو مراقب في منظمة «الكوميكون» الاقتصادية للدول الشيوعية، ووقع معاهدة صداقة ودفاع مع الاتحاد السوفياتي. في الوقت نفسه يعلن الرئيس أنور السادات في حديث صحافي أنه «لا يخشى من انضمام مصر إلى حلف الأطلسي» (٢٠ نيسان ١٩٨١).

وسط هذه الأجواء، التقيت السلطان قابوس في قصر «الحصن» في صلالة في ٢٤ نيسان ١٩٨١، حيث أكد لي في حديثه أن عُمان قد وافقت على إعطاء الولايات المتحدة تسهيلات عسكرية لافتاً: «وقد أعلنا ذلك على رؤوس الأشهاد. بينما غيرنا من دول المنطقة يعطي تسهيلات أهم مما أعطيناه نحن للأميركيين، دون أن يعلن عنها». هنا طرح السلطان قابوس دعواه، وهي الدخول في حلف الأطلسي قائلاً:

«لماذا لا يتم إشراك الدول الحليفة والصديقة للغرب، ذات الارتباط المصلحي والموقع الاستراتيجي والموارد الحيوية بالنسبة إلى العالم الصناعي الغربي في عضوية حلف الأطلسي، إلى جانب أعضائه الحاليين من الأميركيين والأوروبيين، وبالتالي يتم إشراك الدول الأوروبية الأعضاء في حلف الأطلسي إلى جانب الولايات المتحدة في الدفاع عن مصالحها خارج أوروبا، بالالتزام نفسه الذي تدافع فيه عن مصالحها داخل أوروبا، وذلك بصفة مراقب (...) أي ليس بعضوية كاملة، بل بالطريقة نفسها التي يعتمدها الاتحاد السوفياتي

مع دولة اليمن الجنوبي، التي هي عضو مراقب في حلف «وارسو»، والدولة العربية الوحيدة التي تتمتع بهذه الصفة».

لكن هذا لم يحصل قبل حوالى عشرين سنة، لأن حلف الأطلسي لم يلبِّ هذه الدعوة، ولأن الولايات المتحدة والدول الأوروبية الأعضاء فيه لم يلتقطوا هذه الإشارة العربية. كذلك دول الخليج، التي تجاهلت بدورها الدعوة الأطلسية. لماذا؟ لأنها كانت مشغولة بمولودها الجديد، مجلس التعاون لدول الخليج العربية، بقدر ما كانت قلقة من ردود الفعل العربية على هذه الدعوة.

في هذه الفترة، كانت عُمان قد منحت الولايات المتحدة تسهيلات عسكرية، وكانت الكويت تحديداً ضد هذه السياسة العُمانية، لأنها كانت تخشى «أمركة» ولادة مجلس التعاون، بقدر ما كانت تريد أن يكون للمجلس سياسة خارجية واحدة، تلتقي حولها كل الأطراف الخليجية، إنما بمواصفات كويتية.

من ضمن هذا الإطار، وفي سياق هذه الأحداث، تبدأ رواية ما أهملته الذاكرة.

□ □ □

■ المشهد الأول ـ الحَرَج

□ **المكان:** قصر «الغبرة» في مسقط.

□ **الزمان:** الثلثاء ١٠ آذار ١٩٨١

□ **البطل:** الشيخ صباح الأحمد وقيس الزواوي.
(وزير خارجية الكويت ووزير خارجية عُمان)

كان لا بد أن يحدث ما حدث ذلك الصباح من يوم الثلثاء ١٠

آذار ١٩٨١، إذا أراد مجلس التعاون لدول الخليج العربية أن يعطي أية مصداقية للكيان الهش الذي كان قد تمّ الاتفاق عليه نهائياً ذلك اليوم. فالثوب لم يكن كثير الثقوب فقط، يحتاج إلى رتق هنا ورتق هناك، بل كان فضفاضاً إلى حد كبير. فالأسرة السداسية الخليجية التي اتفقت على عقد «زواج كاثوليكي الشروط»، لم تبحث حتى تلك اللحظة إلاّ تلميحاً في المهر. والمهر هو موضوع أمن الخليج ومضاعفاته على كيان البيت الخليجي اليافع والجديد التأسيس، حتى لا يبقى بيتاً من دون سقف، مشرّع الأبواب ومفتوح النوافذ أمام هجمات العواصف السياسية العاتية القادمة من وراء الأفق.

وبينما كان النظام الأساسي لمجلس التعاون الخليجي مع الأنظمة الداخلية الأخرى المتفرعة عنه يعد للتوقيع عليه بالأحرف الأولى، كان وزراء خارجية دول الخليج الست قد أغلقوا الباب على أنفسهم في قصر «الغبرة» في مسقط، ليبحثوا في ما لم يبحث. فقد قرروا فتح الملف الأمني وملف العلاقات الدولية الخليجية من دون أية ورقة عمل أو حتى تدوين كامل. وهكذا أخرجوا كل الخبراء والمستشارين من الاجتماع، وبدأوا الخوض لوحدهم، بتهيّب مع شيء من الحرج، في الموضوع الأهم الذي لم يتطرقوا إليه حتى تلك اللحظة بأي تفصيل يذكر.

□ □ □

وجلس حول تلك الطاولة المستديرة كل من:

- □ الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية.
- □ الشيخ صباح الأحمد وزير خارجية الكويت.

- الشيخ محمد بن مبارك الخليفة وزير خارجية البحرين.
- الشيخ أحمد بن سيف آل ثاني وزير خارجية قطر.
- راشد عبد الله النعيمي وزير الدولة للشؤون الخارجية في دولة الإمارات.
- قيس عبد المنعم الزواوي وزير الدولة للشؤون الخارجية في سلطنة عُمان[١].
- يوسف العلوي عبد الله وكيل وزارة الخارجية العُمانية[٢]، بطلب خاص من وزيره، ليقوم بتسجيل ما سيتم التوصل إليه من مشاورات.

افتتح الشيخ محمد بن مبارك وزير خارجية البحرين الكلام قائلاً: إن حكومة البحرين وشعبها يتساءلان عن دور مجلس التعاون الخليجي في موضوع أمن الخليج، وأن الكثيرين من المسؤولين في البحرين يطالبون بضرورة بحث هذا الأمر وعدم الاستمرار بتجاهله.

وطلب الشيخ صباح الأحمد وزير خارجية الكويت الكلام فقال إنه يريد أن يتحدث بصراحة ـ بل بصراحة متناهية ـ ومن دون أية حساسيات، لذلك يرجو أن يتقبل الجميع منه هذا الكلام ويتفهم مراميه. وأضاف الشيخ صباح ما معناه، أنه سيجد صعوبة كبيرة في أن يدافع في مجلس الأمة الكويتي (المنتخب حديثاً في ذلك الحين) الجديد عن مجلس التعاون وسياسته الخارجية ما دامت إحدى الدول الأعضاء تلتزم بسياسة مختلفة عن بقية الأعضاء. كذلك في أن يبرر ويقنع حكومته بالتناقض الحاصل بين ما اتفق عليه حول

صيغة مجلس التعاون وبين سياسة تلك الدولة في النواحي الأمنية والسياسية.

وكان الشيخ صباح الأحمد يقصد بالطبع سلطنة عُمان. وتابع وزير الخارجية الكويتي موجهاً كلامه إلى قيس الزواوي وزير الخارجية العُماني قائلاً: إن عُمان خرجت عن مقررات قمة بغداد (القمة التي أعلن فيها طرد مصر من الجامعة العربية ومقاطعتها بعد اتفاق كامب دافيد في العام ١٩٧٨) ولم تقطع علاقاتها بمصر وأن اتفاق التسهيلات العسكرية مع الولايات المتحدة أمر لا تجد الكويت ما يبرره. فإذا كانت عُمان تخاف تهديدات اليمن الجنوبي ـ والكلام ما زال للشيخ صباح الأحمد ـ فإن الكويت مع بقية الأعضاء المجتمعين على استعداد لممارسة أقصى الضغوط على عدن لحل هذه المشكلة. لذلك يرجو من عُمان أن تعيد النظر في سياستها هذه حتى يبقى المجلس منسجماً في سياسته الأمنية العربية وعلاقته الدولية مع بعضه البعض، وأن تعود عُمان إلى مقررات قمة بغداد.

□ □ □

وطلب قيس الزواوي الرد، وقال: إن سلطنة عُمان في ما يعني قطع العلاقات مع مصر قد أوضحت منذ البداية أنها لا تؤمن بهذا الأسلوب في العمل الديبلوماسي، وأنها استشارت السعودية خلال كل مراحل قمة بغداد ونسقت معها. وأضاف الوزير العُماني أن جميع دول المجلس الأعضاء على علاقات واتصالات بمصر، وأن قطع العلاقات اقتصر على الشكل. في حين استمر تبادل السفراء، وهذا نفاق يجب الخروج منه. أما في ما يخص التسهيلات العسكرية الأميركية فإن ما أعطته عُمان علناً فقد أعطاه عدد من

دول المنطقة من دون أن يعلن عنه. وأن عُمان كدولة صغيرة لا تملك في وجه خطر التخريب الذي يقوم به نظام اليمن الجنوبي الماركسي ضدها، بما تملك من قوات وخبراء ألمان شرقيين وكوبيين وسوفيات، إلاّ أن تعتبر أن اتفاق التسهيلات الأميركية والمناورات المشتركة نوع من الردع السيكولوجي ضد أي احتمال سوفياتي في استعمال اليمن الجنوبي ضدها. وأردف الزواوي أن بلاده على استعداد لأن تتخلى عن هذا الاتفاق إذا أرسلت الكويت، وغيرها من الدول الأعضاء، بوارجها وأساطيلها وجيوشها إلى المحيط الهندي وبحر العرب ومضيق هرمز دفاعاً عن سلامتها وسلامة ممرات النفط!

وتابع قيس الزواوي كلامه قائلاً: إن لعُمان تجربة مرة مع الأخوان الخليجيين. فهي قد واجهت وحدها في حرب ظفار الغزو الماركسي من الجنوب وما زالت دولة ناشئة. وقد طلبت العون العسكري والمادي من الكل من دون أن يستجيب أحد. كذلك فإن الكويت بالذات، ومعها دول الجامعة العربية كلها، قد حاولت القيام بوساطة مع اليمن الجنوبي لكنها باءت بالفشل. وظلت عُمان مستفردة طوال عشر سنوات. لكن السلطنة على استعداد لأن تعيد النظر في سياستها إذا قدم أعضاء المجلس ضمانات حقيقية تطمئن عمان.

□ □ □

ورد الشيخ صباح الأحمد مجدداً على قيس الزواوي قائلاً: إن للكويت علاقات ديلوماسية ودية مع الاتحاد السوفياتي، وهي على استعداد للتحدث مع موسكو في تخفيف ضغطها على مسقط بواسطة حليفتها عدن، إذا تخلت عُمان عن علاقاتها الأميركية.

كما أن الكويت، مع غيرها مع الدول الأعضاء في المجلس، على استعداد أيضاً لبعث الوساطة مع اليمن الجنوبي بشكل حاسم، تُمارس فيه الضغوط السياسية والاقتصادية والمالية إلى أقصى الحدود. وقال الشيخ صباح الأحمد أن عُمان من خلال علاقاتها مع أميركا تعطي الذريعة لعدن بالتمسك بسياستها الموالية للاتحاد السوفياتي.

وطلب قيس الزواوي الرد مجدداً قائلاً: أن ليس لعُمان على الإطلاق علاقة خاصة مع الولايات المتحدة أكثر مما لكل دولة من الدول الأعضاء في المجلس المجتمعين هنا من علاقة مع واشنطن. كما أنه ليس للصغار القدرة على الحوار والتوسط مع موسكو حيث فشل الكبار. وأن السياسة العُمانية هي ردة فعل على المعاهدة السوفياتية مع اليمن الجنوبي وسياسة عدن العدوانية وليس العكس. وأسهب الزواوي في شرح الأخطار التي تحيط بالخليج وسياسة الاتحاد السوفياتي التوسعية في المنطقة.

وقال وزير الخارجية العُماني: إن العلاقات مع أميركا ليست غاية ترتجى بحد ذاتها. إلاّ أنه في الوقت الذي تتواجد فيه قوات مغربية وقوات أردنية وقوات سودانية وقوات باكستانية في بعض دول المنطقة، لا يوجد جندي أميركي واحد على الأرض العُمانية. وأكد الزواوي أن على دول مجلس التعاون أن تجد بدائل أمنية لأوضاعها الحالية، وأن تتفهم حقيقة الخطر الذي يتهدد الخليج وأبعاده الدولية، مكرراً استعداد بلاده لإعادة النظر في سياستها إذا أبدت اليمن الجنوبي رغبة حقيقية ملموسة في تغيير سياستها وارتباطها الوثيق بالسياسة السوفياتية.

واستمر الحوار سجالاً بين الشيخ صباح الأحمد وقيس الزواوي.

وظل الأربعة الآخرون مستمعين، إلاّ من بعض التدخل الذي مارسه الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي بين الوقت والآخر لشرح بعض المواقف وتلطيف بعض الآراء!.

□ □ □

وبعد قرابة الساعتين فتحت أبواب قصر «الغبرة» في مسقط، وخرج وزراء خارجية الدول الست أعضاء مجلس التعاون وعلى وجوههم شيء من التفاؤل. فالإنجاز كان حتى الآن محاولتهم «تربيع» الطاولة المستديرة التي كانوا يتناقشون حولها على أساس القيام بوساطة مع عدن، وتكليف مسقط بورقة عمل عسكرية.

وكانت ترجيحات التشاؤم أكثر واقعية:

- أولاً: لأن احتمال قيام وساطة ثلاثية مع اليمن الجنوبي، سيكون حظها من النجاح ضئيلاً، على الرغم مما يملكه أعضاؤها الثلاثة (السعودية، الكويت والإمارات) من نفوذ سياسي ومالي واقتصادي يمكن استعماله كأداة ضغط على اليمن الجنوبي. لأن الشيخ صباح الأحمد (الكويت) والأمير سعود الفيصل (السعودية) بالذات كانا يدركان تمام الإدراك أن ارتباط عدن العضوي بالسياسة السوفياتية لا يفكه ضغط أو إقناع من هذا النوع. والشيخ صباح الأحمد، الذي كان في حينه ومازال أقدم وزير خارجية في العالم بعد أندريه غروميكو وزير الخارجية السوفياتية في ذلك الوقت، هو رجل سياسي مخضرم، وصاحب تجربة سابقة ومعروفة في الوساطة مع عدن، انتهت في الماضي بتسميته «بالرفيق صباح الأحمد»

في البلاغات الرسمية وفي وسائل الإعلام اليمنية الجنوبية عند زياراته لعدن. والتي لم تسفر بالطبع عن تحقيق أي نتائج.

وكانت سياسة الكويت في هذا المجال وفي تلك السنوات، تعتقد أنه من الممكن احتواء اليمن الجنوبي ونظامه الماركسي عن طريق المساعدات المالية والاقتصادية والتأثير عليه سياسياً بعدم حصاره أو قطع العلاقات معه. كما كان يدرك راشد عبد الله (الإمارات) أن أموال دولته على كثرتها لا تستطيع أن تقنع المتربعين سعيداً على سدة الحكم في عدن بالتخلي عن ارتباطهم بموسكو إكراماً لعيون الشيخ زايد.

□ ثانياً: لأن ورقة التحليل الاستراتيجي العُمانية، ستكون شبيهة بالمشروع الذي قدمه العُمانيون قبل سنة حول مضيق هرمز وسُبل حمايته، مع توسع وإضافات فيها حول الأوضاع المستجدة في المنطقة.

□ □ □

■ المشهد الثاني ـ الصفقة

□ **المكان:** قصر «المؤتمرات» في الطائف.

□ **الزمان:** ١٨ أيلول ١٩٨١.

□ **البطل:** قيس الزواوي والشيخ صباح الأحمد.

إلتفّ وزراء خارجية دول الخليج مجدداً حول طاولة المحادثات المستديرة في الطائف، وكأن «فرسان الخليج الستة» قد أدركوا بعد حوالى ستة أشهر أن ما تمَّ إنجازه في اجتماعات المجلس الوزاري

لمجلس التعاون الخليجي في مسقط، وعلى أهميته، ما زال ناقصاً من غير البحث في الأولويات السياسية والاستراتيجية، أي بالعلاقة مع الغرب وبالارتباطات الخارجية لكل دولة من دول المجلس.

افتتح الحديث في جلسة الطائف الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية الكويتي بسؤال قيس الزواوي وزير الخارجية العُماني مجدداً عن موضوع التسهيلات الأميركية في عُمان، وعما إذا كانت تزيد أو تنقص من الأخطار الاستراتيجية التي تواجه بلدان الخليج العربي.

رد قيس الزواوي على تساؤلات الشيخ صباح بقوله: «إن موضوع التسهيلات الأميركية في عُمان ليس لغزاً على الإطلاق حتى يستمر السؤال عنه والتحقق عن مضاره أو منافعه. لذلك يجب وضع موضوع التسهيلات الأميركية في عُمان في إطارها الزمني ـ التاريخي حتى يمكن مناقشة أسبابها ودوافعها. فالتسهيلات الأميركية أعطيت بعد توقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين اليمن الجنوبي والاتحاد السوفياتي في تشرين الثاني ١٩٧٩. كما تمّ الاتفاق حولها بين مسقط وواشنطن بعد حادثة احتجاز الرهائن الأميركيين في طهران والأزمة الإيرانية ـ الأميركية من تشرين الثاني ١٩٧٩ وطوال سنة ١٩٨٠ وما شكلته من تهديد لاستقرار المنطقة. كذلك تمت بعد الغزو السوفياتي لأفغانستان وانتشار الاحتلال السوفياتي في البلاد وتصعيد الوضع الدولي حوله.

«كل هذه العوامل أشعرت عُمان ـ والكلام ما زال للزواوي رداً على الشيخ صباح ـ، بأن الوجود السوفياتي قد أصبح يطوقها من أفغانستان وشبه القارة الهندية ويهدد بانهيار إيران في أحضانه، كما

أصبح الخطر السوفياتي أكثر اقتراباً منها عن طريق اليمن الجنوبي ومعاهدته مع موسكو التي عززت من الوجود العسكري السوفياتي في البحر الأحمر والقرن الأفريقي بحكم علاقته مع النظام الأثيوبي (نظام منغيستو مريم الماركسي). وعندما وجدت عُمان نفسها على بعد لا يزيد عن أربعين دقيقة من مرمى الطيران السوفياتي سواء جاء من كابول أو من أديس أبابا، عندئذٍ تم طرح موضوع التسهيلات مع الولايات المتحدة.

«كان شعورنا بالطوق السوفياتي يقترب منا ـ والكلام ما زال أيضاً لوزير الخارجية العُماني ـ قد دفعنا إلى البحث مع الولايات المتحدة في موضوع إعطائها تسهيلات عسكرية في عُمان، لقاء تطوير المرافق العسكرية العُمانية من المطارات والمرافىء التي ليس عند عُمان القدرة المالية على الإنفاق عليها، بحيث تصبح في مستوى دفاعي قادر على ردع أي هجوم أو احتمال هجوم سوفياتي مباشر إما عن طريق اليمن الجنوبي أو أثيوبيا. كذلك تدريب وتسليح القوات المسلحة العُمانية بشكل ينسجم مع التطورات الخطرة التي تحيط بالمنطقة ويتلاءم مع تطوير التسهيلات العسكرية الضرورية لحماية أمن البلاد. وقبلت واشنطن بتطوير هذه المرافق بالشكل العسكري المطلوب لقاء إعطائها حق استعمالها عند الضرورة.

«وكان لا بد للموافقة الأميركية من اتفاق رسمي يصادق عليه الكونغرس حتى تتمكن الحكومة الأميركية من دفع تكاليف تطوير وتوفير هذه التسهيلات التي ستبلغ ملياري دولار على مدى عشر سنوات. لأن واشنطن لا تستطيع أن تدفع هذه الكمية من الأموال من دون اتفاق رسمي مصادق عليه من الكونغرس الأميركي، بينما تستطيع دول الخليج وبسهولة، دفع مبالغ بهذا الحجم دون أي

اتفاقيات مكتوبة. واعتقدنا في عُمان ـ والكلام أيضاً وأيضاً ما زال للزواوي ـ أن اتفاقية التسهيلات مع الولايات المتحدة قد تشكل في حدّ ذاتها رادعاً ضد أي مغامرة سوفياتية مباشرة أو غير مباشرة».

□ □ □

عند هذا المنعطف توقف قيس الزواوي عن الكلام برهة من الزمن، ثم عاد ليقول بصوته المنخفض كالعادة، أن بلاده على استعداد للتخلي تدريجياً عن اتفاق التسهيلات الأميركية إذا كانت دول مجلس التعاون الخليجي على استعداد لدفع ملياري دولار خلال السنوات العشر القادمة لتطوير المرافق العسكرية العُمانية نفسها.

هنا تحمس الشيخ صباح الأحمد وقال: «إننا مستعدون لدفع هذا المبلغ مقابل إلغاء هذه التسهيلات».

وابتسم الزواوي لحماس الشيخ صباح وقال: «لا يكفي أن تكون أنت وحدك مستعداً، بل يجب أن تكون دول مجلس التعاون كلها مستعدة».

ورد الشيخ صباح أنه على استعداد لأخذ الأمر على عاتقه. ولم يعلق أحد من الوزراء الحاضرين على العرض العُماني ولا على الرد الكويتي، واكتفى المجلس بأخذ العلم من الموقف العُماني في موضوع التسهيلات. لكن الشيخ صباح عاد للكلام قائلاً للزواوي:

«لا يهمك سكوتهم فأنا سأتابع الموضوع معهم». ولم يعلق الوزراء الخليجيون بكلمة على الموضوع.

عندئذٍ قال الشيخ صباح للزواوي: «لماذا لا يعرض اتفاق التسهيلات على المجلس لمناقشته».

فأجاب الزواوي: «إن الاتفاق منشور ومعروف».

فقال الشيخ صباح: «لماذا لا يودع منه نسخة في الأمانة العامة للمجلس».

ردّ الزواوي قائلاً: «إن بلادي على استعداد لإيداع نسخة من اتفاق التسهيلات الأميركية لدى الأمانة العامة إذا كانت دول المجلس كلها على استعداد لإيداع نسخ من كل اتفاقاتها مع الدول الأجنبية في الأمانة العامة».

سكت الحاضرون ولم يعلق أحد منهم بشيء. واعتبر الشيخ صباح والزواوي الموضوع منتهياً من دون نتيجة.

□ □ □

عاد المجتمعون إلى الحديث، وقال قيس الزواوي «أنه كلما كبرت القوة الذاتية الخليجية وترسخت عسكرياً كلما خفّ الاعتماد على الوجود الغربي. لكن مهما حدث فإن ذلك لن يخفف من الوجود السوفياتي في المنطقة». فالصراع بين الجبارين الدوليين قد فرض فرضاً على المنطقة. لذلك فمهما جرى من تقدم في قضية الشرق الأوسط، فإن ذلك لن يلغي الصراع الأميركي ـ السوفياتي حول الجزيرة العربية. وستبقى المواجهة بين موسكو والدول الحليفة لها في المنطقة وبين مجموعة الدول الخليجية.

وعاد الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي ليؤكد أن إسرائيل تشكل خطراً حقيقياً على المنطقة، لا يلغي الخطر السوفياتي إنما يوازيه، مما دعا إلى طرح الوزير العُماني موضوع معاهدة الصداقة والتعاون بين ليبيا واليمن الجنوبي وأثيوبيا مذكراً بما قاله رئيس اليمن الجنوبي علي ناصر محمد، من أن الدول الثلاث تهدف إلى مجابهة «النشاط العسكري المتزايد للولايات المتحدة وبلدان عربية

أخرى في المنطقة. وطالب الوزير العُماني بالتنديد بهذه المعاهدة باعتبارها تهديداً مباشراً لأمن المنطقة ومحاولة لإدخالها ضمن حلقة التحالفات الدولية.

ورفضت الكويت مبدأ التنديد المباشر لأنه سيعطي انطباعاً بأن مجلس التعاون الخليجي يشكل تكتلاً عسكرياً وسياسياً مضاداً للتكتل اليمني الجنوبي ـ الليبي ـ الأثيوبي. كذلك تحفظت السعودية على الطلب العُماني، لأن فتح أي معركة جانبية مع أي طرف عربي سيجرّ إلى انقسام في الموقف العربي.

وكان الوزراء الخليجيون الستة يريدون التعامل مع الأشقاء العرب ومجلس التعاون، على أساس المحافظة على الحد الأدنى من العلاقات مع الدول التي تبقيهم في خانة الأصدقاء ولا تستعديهم. كذلك كانت رغبتهم في لملمة الصف العربي بغض النظر عن مواقف أي فريق من الفرقاء من مجلس التعاون الخليجي، أكانت سلباً أم إيجاباً.

□ □ □

ومرت أيام الطائف الخليجية الثلاثة بعد أيام مسقط قبل ستة أشهر، وازدادت رقعة الوجوم على الوجوه التي أحاطت بالطاولة المستديرة، وأدرك المجتمعون أن ما قاموا به هو الخطوة الأصعب، إلا أنها الأهم. لكنها كانت الأخطر في حساب الأرباح والخسائر في عالم السياسية المتغير.

لقد بدا الطريق وكأنه غير آمن تماماً. وكانت تلك الأيام غير هذه الأيام.

(*) اعتمدت في هذه الرواية على مجموعة ملاحظات دونتها في أوراقي الخاصة، كشاهد عيان لتلك الفترة بين ١٩٧٩ و١٩٨١، وكصحافي شهد كل مراحل تأسيس مجلس التعاون الخليجي. وعلى مجموعة مقالات وأحاديث نشرت في مجلة «المستقبل» الباريسية بين ١٩٧٨ إلى ١٩٨٨.

(١) قتل في حادث اصطدام سيارته في صلالة في صيف ١٩٩٤.

(٢) وزير الخارجية الحالي.

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ موت الآخرين ـ شعر، ١٩٦٢.

٢ ـ الفترة الحرجة ـ دراسات نقدية (١٩٦٠ ـ ١٩٦٥). الطبعة الأولى ١٩٦٥.

الطبعة الثانية مزيدة وليست منقحة، بعنوان فرعي «النقد في أدب الستينات» ـ ١٩٩٢.

٣ ـ صراع الواحات والنفط ـ هموم الخليج العربي. الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة الثانية ١٩٧٤.

٤ ـ البحث عن توفيق صايغ ـ شعر، ١٩٧٥.

٥ ـ المسار الصعب ـ المقاومة الفلسطينية: منظماتها، أشخاصها، علاقاتها. ١٩٨٦ (مع دنيا نحاس) [صدر بالإنكليزية أيضاً].

٦ ـ ظفار ـ قصة الصراع السياسي والعسكري في الخليج العربي (١٩٧٠ ـ ١٩٧٦) ـ ١٩٧٨.

٧ ـ الخليج العربي ورياح التغيير ـ مستقبل الوحدة والقومية والديموقراطية. الطبعة الأولى ١٩٨٦، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

٨ ـ وثائق الخليج العربي ـ طموحات الوحدة وهموم الاستقلال. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

٩ ـ جواسيس العرب ـ صراع المخابرات الأجنبية. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٠ ـ شخصيات عربية من التاريخ. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٨٩.

١١ ـ المسيحيون والعروبة ـ مناقشة في المارونية السياسية والقومية العربية. الطبعة الأولى ١٩٨٨، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٢ ـ العرب وجيرانهم ـ الأقليات القومية في الوطن العربي. ١٩٨٩.

١٣ ـ قبل أن تبهت الألوان ـ صحافة ثلث قرن. ١٩٩١ .

١٤ ـ رياح السموم ـ السعودية ودول الجزيرة بعد حرب الخليج، ١٩٩١ - ١٩٩٤. الطبعة الأولى ١٩٩٤، الطبعة الثانية ١٩٩٥. الطبعة الثالثة ١٩٩٧.

١٥ ـ أكتب إليكم بغضب ـ كيف تقول «لا» في عصر «نعم». ١٩٩٦.

١٦ ـ ثلاثة شعراء وصحافي ـ رسائل جبرا ابراهيم جبرا، يوسف الخال وتوفيق صايغ إلى رياض نجيب الريّس. ١٩٩٦.

١٧ ـ رياح الشمال ـ السعودية والخليج والعرب في عالم التسعينات. ١٩٩٧. الطبعة الثانية ١٩٩٧.

١٨ ـ صحافي ومدينتان ـ رحلة إلى سمرقند وزنجبار. الطبعة الأولى ١٩٩٧.

١٩ ـ رياح الجنوب ـ اليمن ودوره في الجزيرة العربية (١٩٩٠ - ١٩٩٧). الطبعة الأولى ١٩٩٨.

٢٠ ـ حديث صحافي مع الإمام علي بن أبي طالب. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢١ ـ المفكرة الأندلسية ـ أموي في غرناطة دمشقي في قرطبة. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٢ ـ رياح الشرق ـ الخليج والعالم العربي عند نهاية القرن العشرين. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٣ ـ مصاحف وسيوف ـ إيران من الشاهنشاهية إلى الخاتمية. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

فهرس الأعلام

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

فهرس الأماكن

أ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م